سلسلة الدراسات الأدبية
في
أفغانستان
(٤)

السيد جمال الدين الأفغاني

بين الحقيقة والافتراء

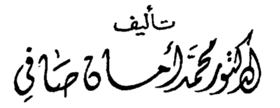
تأليف
الدكتور محمد أمان صافي



سلسلة الدراسات الأدبية
في افغانستان
(٤)

السيد جمال الدين الأفغاني بين الحقيقة والافتراء

تأليف



الطبعة الأولى

محرم سنة ١٤١٢ هـ – السرطان سنة ١٤٧٠ هـ ش – يوليه سنة ١٩٩١ م

ت ٣٥٠٩٧١٩

الإهـداء

* إلى شريكة حياتى وأم أولادى التى وقفت بجوارى فى جميع أعمالى فهى أحق الناس بشكرى وامتنانى واحترامى .

* إلى أبنائى .. محمد ومحمود وأحمد ومصطفى الذين هم أحق الفتيان بحبى ، جعلهم الله على درب الأفغانى رائد وحدة الشعوب الإسلامية الأول .

* وإلى بناتى .. حليمة ولطيفة وجميلة وفهيمة وسناء وهناء اللاتى شاركن فى إنجاز هذا العمل .. إنهن أحق الفتيات بودى ودعائى بالتوفيق .

* وإلى كل من شارك فى الكتابة عن الأفغانى وساهم فى الدفاع عن فكره الإسلامى .. إنهم أحق الكتاب بالتقدير والتبجيل والتكريم .

* وإلى صحيفة الأهرام التى نشرت جهد قادة الفكر فى مصر دفاعا عن الأفغانى ، وإلى صحيفة الشرق الأوسط التى نشرت الحوار التاريخى لقادة الفكر فى العالم الإسلامى بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأفغانى .

* إلى هؤلاء جميعا أهدى هذا العمل مع تقديرى العظيم ، ودعائى الخالص ، وحبى الدائم .

محمد أمان صافى

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لانبى بعده

وبعـد :

كفى تطاولا وتطرفا فى الاتهام

مرة أخرى تتزايد وتتطاول معاول الهدم والتخريب والتحريض لتصل حدا لا أظنه إلا تعريضا لاذعا بالسيد الأفغانى ، وتهويشا فادحا لأفكاره الإسلامية ، وإساءة فاضحة لرموزه الدينية ، وتهديما مقصودا للأعمدة الشامخة التى تحمل مشاعل فكره ومنهجه وسلوكه . وقد كنت بالطبع متابعا للحملات العنيفة والهجمات الشائنة التى نشرتها مجلة التضامن التى تصدر فى لندن بالعربية ابتداء من إبريل ١٩٨٣م والتى صب فيها الدكتور لويس عوض ومن سار على دربه جام غضبه المر على هذا المصلح الثائر جمال الدين الأفغانى الذى طارده أعداء الإسلام حيا وميتا ، كما كنت متابعا بالطبع للردود الموضوعية الهادفة الهادئة التى نشرتها صحيفة الأهرام القاهرية - مشكورة - حول قضية فكر السيد الأفغانى ، وحول أفغانيته وماسونيته المزعومة ابتداء من ٢٩ أغسطس وحتى ١٧ أكتوبر ١٩٨٣م اشترك فيها عدد من خيرة العلماء والمؤرخين والكتاب فى مصر بعنوان « الأفغانى بين الحقيقة والافتراء » كذلك تابعت بدقة وبلهفة ما نشرته - مشكورة - صحيفة الشرق الأوسط العربية فى صفحة « ملفات الشرق الأوسط » من الجدال المتزن الهادف ، والنقاش الموضوعى الهادئ حول الأفغانى وفكره ، وحول كونه أفغانيا أو إيرانيا ، وحول موضوع عضويته فى أحد المحافل الماسونية ، وقد اشترك فى هذا النقاش الهادئ والجدل الهادف عدد كبير من المفكرين فى العالم الإسلامى والعربى مشرقه ومغربه .

وبعيدا عن التطرف والتعصب ، وبعيدا عن الانقياد والانحياز إلى جانب معين من الجوانب الفكرية والعلمية أقول : إن الدكتور لويس عوض قد حاول

فيما كتبه عن الأفغانى ارتداء لباس الموضوعية والمنطقية وإشهار سيف الحقيقة والحرص عليه على طريقة السم فى الدسم ، وتحت هذا الغطاء فسر الأمور والحقائق على طريقة من يؤمن بولائهم فى الغرب بمعنى أنه من أجل الإيغال فى إدانة الأفغانى اكتفى عمدا بالنقاط والآراء التى وردت فى تقارير المخابرات والجواسيس والتى تؤيده دون الإشارة إلى سلسلة طويلة من المصادر الوثيقة التى تخالفه ومن هنا – على ما أعتقد – جاء جهد الأهرام ، ثم جهد الشرق الأوسط فى الرد عليه لاستجلاء الحقيقة .

عرضت كل من صحيفتى الأهرام والشرق الأوسط جملة من الدراسات والتحقيقات الخاصة بفكر الأفغانى ، وقد هدفتا أساسا تقويم فكر الأفغانى وتقديره ، والوصول إلى منهجه الثورى الأصيل بغية تقديمه إلى القراء ، وبالذات إلى الوعى الإسلامى بغرض ربطه بالأصالة الفكرية ، وبسالف أمجاد المعرفة الإسلامية وبخصائص الهوية المطابقة للكتاب والسنة .

فمن جملة انتقادات وغمار سجال عشنا معه من خلال دراسات الباحثين والمفكرين المعاصرين فى مجلة التضامن اللندنية ، وعلى صفحات جريدة الأهرام القاهرية وعلى صفحات جريدة الشرق الأوسط السعودية وقفنا على حقيقة مفادها أن البلبلة وزعزعة الثقة بالخصائص الفكرية لحركة الأفغانى الإسلامية وبالتالى لخصائص المعرفة الإسلامية وتمسخ الشخصية الإسلامية هى الاستراتيجية التى يسير عليها الدكتور لويس عوض ومن يسير على نهجه من بعض الكتاب الضيقى الأفق أصحاب العقليات التبعية المتخلفة المترسبة فى كياننا الثقافى والفكرى .

لقد انصب النقد والتجريح فى مقالات الدكتور لويس عوض على السيد الأفغانى وكأن الإشكال فى أمر محصوله الفكرى هو ما خلفه هذا المفكر المسلم الذى قضى حياته بصدد إحياء التراث العربى والمنهج الإسلامى فى التفكير ، ليس الإشكال فى منهج هذا المفكر وما يدعو إليه من الأفكار الإسلامية ، وإنما الإشكال فى الدكتور لويس عوض نفسه .. فى عقده النفسية التى تنطوى على عداوة للفكر الإسلامى عامة .. ليس الإشكال فيما خلفه الأفغانى من

الإنتاجات الفكرية الإسلامية طيلة حياته وحياة تلاميذه ، وتلاميذ مدرسته الفكرية وما تولده عن التفاعلات الفكرية والاجتماعية والسياسية وإنما الإشكال فى مدلولية الفكر العدائى الذى يحمله لويس عوض بالنسبة للإسلام ومن ينتمى إليه من المفكرين ، وعلاقة هؤلاء بالوعى الإسلامى ، هذا هو الوادى الذى يهيم فيه فكره وعقله وثقافته ، فيه انزلق بعد الوقوع فى الزلل والمغالطة بإيمانه بالحضارة الغربية وبالفكر الغربى ، إن هذا الأساس هو الغائب عن الذين يسيرون خلفه ، إن هذا الالتزام هو الذى يسيره ويسير من يسير على نهجه فى مسايرة العقلانية الغربية أو مواكبتها .

دعوة ضالة ، وفهم مغلوط ، وطريقة مضللة .. تلك التى سار ويسير عليها الدكتور لويس عوض فى عرضه لحركة الأفغانى ، ولغيرها من الأفكار الإسلامية والعربية وهذا ما طرحته الأهرام والشرق الأوسط على بساط المناقشة والمساجلة مع بعض المهتمين بدراسة الفكر الإسلامى لهذا المفكر الثائر على النهج الإسلامى ذلك لأن داعى التغريب الدكتور لويس عوض قد أثار عديدا من التساؤلات عن الثائر الأفغانى فى بحثه عنه المنشور فى مجلة التضامن ، وهى تساؤلات على درجة من الخطورة والأهمية وبخاصة أننا نعلم موقف الرجل من الدراسات الفكرية فى الإسلام فى العصر الحديث وبالذات حول المفكر الثائر السيد الأفغانى الذى أثار حوله العديد من المساجلات التشككية على طريقته الملتوية بمحاولة النبش فى محفوظات المخابرات وتقارير الجواسيس والسفارات الأجنبية .

كان على هذا الدساس أن يتعد عن نقد الفكر الإسلامى للأفغانى الذى أحدث انقلابا منهجيا فى الحياة الثقافية والعلمية والسياسية . إن العلم المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى ، وقليل النفع ، بل عديم الفائدة ، والدكتور لويس عوض ليس من المتصفين بالعلم الإسلامى .. ليس له مجال هنا ، بل مجاله هناك فى الدعوة إلى التغريب والدعوة إلى الصليبية والدفاع عنها . إن مطلب عمل الفكر والنقد فى الإسلام مشروط بالاتصافية العلمية .. بالاتصافية الصادقة المخلصة ، وبالممارسة والتذوق العملى .. تذوق الفعل والممارسة والتعلق به تعلقا صادقا بعيدا عن الأهواء ، ثم توجيه النقد إليه إن كان هناك ما يستدعى ذلك ..

إن كان هناك مجال لتوجيه النقد البناء بعيدا عن الطائفية والأهواء الغربية والصليبية . إن الذى غاب عن ناقد بل شاتم العقل الإسلامى فى فكر الأفغانى هو مدلول وسائل النقد والمعرفة . إن الجهد الجهيد ، ووفرة التنظير والتمثيل ، والنبش فى القبور ، وكثرة الكتابات الانتقادية الادعائية لا تجدى نفعا فى مثل هذه الأحوال .

إن المفكر الإسلامى السيد جمال الدين الأفغانى هو الذى وضع الجذور الحقيقة للإحياء الإسلامى فى الوقت الذى كانت الشعوب الإسلامية تعيش فى ظل الاحتلال الفكرى ولم تكن للثقافة الإسلامية موضوعات ذات بال ، فشرع يعرض ببصيرته حركته العقلية والفكرية ، ويبرز خصائص الحضارة الإسلامية بما تحتوى من فكر وعقل وأدب ، وكان رائده فى ذلك الفكر الإسلامى الأصيل والجامعة الإسلامية ، ونهضة الشعوب الإسلامية . وقد بالغ فى إبراز الخصائص العقلية والأدبية فى الحضارة الإسلامية ، كما آمن إيمانا قويا راسخا بالوحدة الإسلامية .

إن المجدد الإسلامى والمصلح السياسى والفيلسوف الاجتماعى السيد جمال الدين الأفغانى الذى ظهر والأمة الإسلامية وشعوبها المتفرقة تركة رجل يوشك أن يلفظ أنفاسه ، ويقتسم ميراثه ، وأصبح العالم الإسلامى فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر على وشك تمزيق أوصاله والاستيلاء على أجزائه ، فحمل مشعل اليقظة والإصلاح والتنوير ، وأيقظ الشعوب ونفخ فيها روح النهضة الإصلاحية فى الدين والاجتماع والفكر والسياسة ، وجال فى أنحاء الأرض ينثر بذور الإصلاح ، ويلهب المشاعر ، ويثير الوعى الإسلامى ويطالب بنشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية لغة الفكر الإسلامى لتكون لغة الزعامة الإسلامية .. وقد منحه الله قوة الشخصية ، والقدرة على التوجيه ، والفهم للأفكار السائدة فى المجتمع ، والثقة الكاملة بالنفس ، وإنكار الذات ، والقوة على الدفع ، هذه الأوصاف كانت تؤهله للزعامة فى المجالات الفكرية والسياسية والاجتماعية .

إن السيد الأفغانى فيلسوف اليقظة الإسلامية والشرقية فى الفكر والسياسة كان من أبرز زعماء الإصلاح فى العالم ، ومن أبرز الذين رفعوا راية الإسلام

فى الخافقين ، ولقد أعطى بذلك المقاومة للاستعمار طابعا ثوريا قويا ، وفتح الأبواب أمام العودة إلى مفهوم الإسلام ، وكان الأسلوب القرآنى والأصولية النبوية منطلقه الأساسى لكل حركاته الإصلاحية فى الفكر والسياسة والاجتماع .. هذا هو الذى أزعج لويس وغير لويس .

إن الأفغانى رفض رفضا مطلقا أى نوع من المصالحة مع الاستعمار وأعوانه ، وقد ركز فى ذلك على البعد الإسلامى دون البعد القومى الضيق ، كان قوى الاعتماد على الله لا يبالى ما يأتى به الدهر ، لايهاب الموت كأنه لا يعرفه .. جاهد وناضل وكافح وأثار الكراهية ضد الاستعمار والاستبداد والطغيان .

وعلى الرغم من أهمية فكر الأفغانى وأثره فى الإصلاح والتنوير وإيقاظ الشعوب الإسلامية والشرقية .. وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من المفكرين والكتاب والمؤلفين فى الشرق والغرب قد قاموا بدراسة فكر الأفغانى إلا أنه قد تعرض لبعض الانتقادات فى كتابات بعض المفكرين وقد استغلوا فى ذلك بعض أخطائه وزلاته التى ضخموها بظنونهم ، وهولوها بأوهامهم ليشوهوا صورته وصورة فكره وما يدعو إليه من اليقظة الفكرية ، والنهضة السياسية والوحدة الإسلامية ..

ولا أدعى أن السيد جمال الدين الأفغانى فوق النقد ، فهو بشر يخطئ ويصيب فى الاجتهاد .. يخفق فى اجتهاده فى موضوعات ويوفق فى أخرى .. لاشك أن له أخطاءه – كغيره من المجتهدين – فى الرأى والتقدير والاجتهاد ، وليس هناك بشر معصوم من السهو والخطأ ومن الزلة والوقوع فى الغلط غير الأنبياء .

ولقد تعرض الأفغانى رحمه الله وهو واحد من أبرز الشخصيات فى التاريخ الإسلامى فى العصر الحديث ، وأكثرهم إثارة وإنارة وحيوية لنقد ذوى القربى من بعض العلماء الرسميين المتجمدين الأمر الذى أعطى السلاح لأعداء الزعامة الإسلامية ، فكان من الطبيعى أن تنطلق الأبواق الخادعة لتطعن فى عقيدة الأفغانى وعلمه ومكانته الاجتماعية وزعامته السياسية ، وهذا الدكتور لويس عوض يصب جام غضبه على هذا الثائر الإسلامى ، ويصفه بكل الموبقات ،

ويسلب منه كل المحاسن والمحامد لحاجة فى نفسه ، وموقفه من كل ما يتصل بالإسلام والزعامة الإسلامية ، وفى هذا الموقف هدف ، ومن ورائه أهداف وأهداف ، والوقوف عند هذا الموقف والسكوت على هذا الهدف أو الأهداف خيانة علمية ودينية وتاريخية ، ذلك لأن السيد جمال الدين الأفغانى يعد بحق ودون منازع من الرواد الإسلاميين الأوائل فى النهضة الإسلامية ، ومن المجاهدين الأبطال الذين رفعوا شأن البلاد الإسلامية والشرقية وخاصة شأن أفغانستان ومصر ، وعملوا على توحيد الكلمة لتحقيق الهدف الذى أراد لويس عوض هدمه بهدفه فى نفسه ، لذلك فقد رأى المفكرون فى البلاد العربية وفى مصر بخاصة توضيح الحقائق فى مقالات وبحوث تفضلت صحيفة الأهرام القاهرية مشكورة بنشرها فى الفترة بين ٢٩ أغسطس عام ١٩٨٣م و١٧ أكتوبر سنة ١٩٨٣م كامر ، ثم تفضلت صحيفة الشرق الأوسط السعودية مشكورة بنشر بحوث ومقالات أخرى فى الفترة بين ١٨ مارس سنة ١٩٨٩م، و ٣١ مايو سنة ١٩٨٩م، وهى بادرة جادة وطيبة نشكر عليها الصحيفتين العربيتين الكبيرتين اللتين عودتنا القراء على تقديم كل ما هو مفيد جاد ، وطيب نافع فى هذا الشأن لخير هذه الأمة ولزعامتها الإسلامية ، ولثقافتها التاريخية .

ولقد رأيت إتماما للفائدة أن أقوم بجمع وترتيب هذه الأبحاث ثم طبعها ونشرها ليسهل الرجوع إليها والاستفادة منها لكل من أراد معرفة حقيقة هذا المصلح الكبير فى فكره وموطنه ونشأته . وأرجو الله وحده أن تكون فى هذه البحوث القيمة الدامغة ، والدراسات التاريخية الموثوقة لهذه النخبة المختارة من المفكرين الصادقين العلماء ما يوضح الحقيقة ، ويدفع الافترء ، ويرفع الظلم ، ويحفز الهمم إلى الاقتداء به والسير الحثيث على سننه . وفيما يلى ما نشرته الأهرام ، وما نشرته الشرق الأوسط من المداولات الفكرية حول الفكر الإسلامى فى فكر الأفغانى راجيا منه تعالى أن يجعل هذا العمل من الأعمال المقبولة لديه .

الدكتور محمد أمان خان صافى الأفغانى
السليمانية بجدة
يوم الأحد
١٢ المحرم ١٤١٠هـ = ٢٢ أسد ١٣٦٨هـ ش = ١٣ أغسطس ١٩٨٩م

الفصـــل الأول

مداولات فكرية – مساهمات علمية – مناقشات تاريخية
صحيفة الأهرام القاهرية
٢٩ أغسطس ١٩٨٣ – ١٧ أكتوبر ١٩٨٣م

الأفغانى .. بين الحقيقة والافتراء

الأستاذ سامح كريم

صحفى جليل بصحيفة الأهرام الغراء بالقاهرة

أيها السادة المثقفون .. لقد كنا ضحية خديعة فاجعة . كنا جميعا مخطئين حين تصورنا أن السيد جمال الدين الأفغانى رجل يوزع السعوط بيمناه . وينشر الثورة بيسراه . كنا مخدوعين حين تصورنا أن جمال الدين الأفغانى ثائر إسلامى . ومصلح اجتماعى . ورجل عظيم أيقظ الشرق من سباته . إن جمال الدين الأفغانى هو عكس ما كنا نتصور . إن اسمه ليس هو اسمه . إن اسمه الأفغانى بينما هو إيرانى ، وليته كان إيرانيا فحسب . إنما هو الإيرانى الغامض .. وهو غامض لأنه أفاق مغامر متلون ..

هذا الاكتشاف « الهزلى » الجديد يدين بوجوده للدكتور لويس عوض كشف عنه فى سلسلة المقالات التى يكتبها لمجلة عربية تصدر فى لندن . ويسمى الدكتور لويس ما ينشره بحثا جريئا .. والأصل فى البحث أن يتحرى الحقيقة . ويحلل الأحداث والمواقف .. ويضىء جوانب كانت غامضة بهدف نهائى هو اكتشاف الحقيقة ..

أما بحث الدكتور لويس فليس كالبحوث . فهو بحث جرىء . ومن ثم فهو لا يلتزم بأصول البحث ، ولا يرجع إلى المراجع المحترمة ... أو المعتمدة ، وإنما يستند إلى مراجع تشبه تقارير المخبرين السريين التى يكتبونها عن ثائر ، فيصفونه بكل رذيلة وشر ، ويسندون إليه كل نقيضة وبلية .. وشر البلية ما يضحك .. ويبذل الدكتور لويس عوض جهدا كبيرا فى بحثه المزعوم ، بينما الحقيقة أنه يرسم صورة كاريكاتيرية للأفغانى .. صورة تفتقر إلى الفن وإن كان هدفها السخرية والتشويه وإسقاط الاحترام .

ويبدو عبث المحاولة فى الجهد الشديد الذى يبذله الدكتور وهو يلوى عنق الأحداث ويستشف منها ما يحاول به تشويه صورة الأفغانى فهو فى البداية والنهاية إيرانى غامض يتسلل وسط الظلام مدججا بالمؤامرات .. ولست أعرف كيف فات على الباحث الجرىء أن يحدثنا عن العلاقة بين الأفغانى والخمينى . ولعله يفرد لنا بحثا فى بحثه الجرىء يربط بينهما ولو بأى رباط .. لا يهم هنا أن يكون الأفغانى قد مات قبل ميلاد الخمينى .. فإن الدكتور لويس يكتب بحثه وفى ظنه أن الناس لا تقرأ ولا تكتب ولا تفهم .

إن تحطيم صور الثائرين المسلمين فى تاريخنا يستهدف عزلنا عن الماضى ، ومحاصرتنا فى الحاضر ، وتجريدنا من ثروتنا فى الأبطال والزعماء . حتى نصير إلى الفقر والوحدة . فيسهل إقناعنا بأى هراء يصبه أصحاب المصالح فى عقولنا .

هذا هو الهدف .. وهو كما نرى هدف يصعب السكوت عليه ... ومن هنا جاء جهد الأهرام فى الرد ..

الأفغانى وتقارير الجواسيس (المقال الثانى للأستاذ سامح كريم) :

مغامر مجهول كافر مجنون مخاطر مغمور زنديق مخبول ملحد مأجور .. أفاق دساس دجال كذاب متلون متفرنج مرتد سكير .. مهيج سياسى .. زعيم إرهابى عميل مزدوج ، رجل لكل القصور ، داع للفوضوية واللاأخلاقية ، منكر لوجود الله ، ينتحل لنفسه لقبا فى كل دولة .. فهو بين الأفغانيين رومى وبين الأتراك والمصريين أفغانى ، وفى بعض الدول استانبولى ، وفى بعضها الآخر بغدادى .. أقام بيننا نحو تسعة أعوام ، ومضى ليبقى إلى اليوم لغزا غامضا !؟

على هذه النغمة الفاسدة .. يظل يعزف الدكتور لويس عوض من إبريل الماضى حتى الآن .. بمجلة « التضامن » التى تصدر فى لندن بالعربية فى بحث عن جمال الدين الأفغانى . يختار له عنوانا يحمل الكثير من الدلالات ، فى هذه المرحلة بالذات .. وهو : « الإيرانى الغامض فى مصر » معتمدا على تقارير

العملاء والجواسيس ، فى سجلات الخارجية البريطانية أو أرشيف الخارجية الفرنسية ، أو محفوظات المباحث والبوليس فى كل من البلدين ، أو كتابات أخرى غير منشورة لأجانب مجهولين .

والمرء يأسف حقا .. من عمل كهذا للدكتور لويس عوض .. الذى نعتز به ناقدا وكاتبا وأستاذا لأكثر من جيل .. وفى معان تجعل الصمت على ما كتبه عن الأفغانى تقليلا من هذه المكانة فى نفوسنا . وتقصيرا حيال واجب فكرى نحو قلم كبير يحمل تبعة ما يكتب ، والأهم تهوينه بالكثير من قيمنا . على اعتبار أن الشك - دون مبرر - فى شخصية كالأفغانى يورثنا الشك فى الكثيرين من رجال التاريخ الأقدمين منهم والمحدثين ، كما يورثنا الشك فى من يكتبون عنهم . وبهذا الأسلوب لا يبقى فى تاريخنا رجل واحد موضع ثقة .

وقبل الوصول إلى إجابة لأسئلة : كيف كتب ؟ وماذا كتب ؟ ولماذا كتب ؟ لنا وقفة تأمل مع هذه المصادر الأجنبية التى يستهل الدكتور لويس بها بحثه ويذكر أنها ظهرت فى السنوات العشر الأخيرة ، كمحاولة للكشف عن شخصية الأفغانى .. فزاد الأمر تعقيدا ، أنقذته محاولات النبش فى وثائق الخارجية البريطانية والفرنسية ، ومحفوظات المباحث فى البلدين فتوارت صورة الأفغانى الأسطورة لتحل محلها صورة الأفغانى المحير . وهنا أذكر الدكتور لويس أن هذا الذى اكتشفته مصادره الأجنبية اكتشفته مصادر عربية منذ أكثر من ثمانين عاما ، وأمامى الآن منها أكثر من ستين كتابا إلى جانب الدوريات . بل إن أهم جانب فى شخصية الأفغانى - على حد تعبير الدكتور لويس - وهو الخاص بجنسيته وعقيدته قد نوقش بصحيفة المؤيد عام ١٩٠٩م ، بعدها حرصت أغلب الكتابات العربية على الإشارة إلى ذلك ، إشارة عظمت لتصبح كتبا تتحاور ، حين ادعى أحد الإيرانيين بأنه ابن أخت الأفغانى ، وكتب مذكرات عنه نشرها ابنه عام ١٩٢٦ فظهرت كتب تدحضه فى مصر والعراق وأفغانستان وإيران .

ونعود إلى سؤال : كيف كتب ؟ وهو بعينه المنهج الذى اتبعه الدكتور لويس فى تناوله لشخصية الأفغانى ، وأول ما يستوقفنا هو اهتمامه بالمصادر الأجنبية

أكثر من المصادر العربية ، ولا بأس فى ذلك ، إذا كانت المصادر الأولى أكثر دقة وأبعد موضوعية ، ولكن أن تكون أغلب مصادره عبارة عن تقارير للعملاء والجواسيس وموظفى السفارات ، فالأمر لا يدعو إلى الاطمئنان العلمى . ومما يؤسف له أن الدكتور لويس كان يميل فى أغلب الأحيان إلى تصديق وثيقة من هذا النوع ، أكثر من تصديق الأفغانى نفسه أو مؤرخ سيرته الأول الإمام محمد عبده ، أو الاثنين معا ، حتى أصبح مألوفا أن تقرأ فى بحثه « ليس صحيحا ما قاله الأفغانى لمحمد عبده .. الصحيح .. » مع أن الدكتور لويس أكثر من يعلم أنه فى كتابة سيرة أى إنسان ينبغى أن يكون الاعتماد الأول على أقواله وأعماله . يأتى بعد ذلك ما كتب عنه بشكل موثق . وبعد ذلك يأتى دور التقارير والكتابات غير المنشورة .

ولأن الدكتور لويس اعتمد على مصادر من النوع الثالث ، فكان عليه أن يستخدم منهجا يجمع بين التاريخ والاستدلال . على اعتبار أن ما لا يحققه التاريخ يحققه الاستدلال .. فالمنهج التاريخى يعاونه على جمع ما يمكن جمعه من هذه الوثائق ، ثم يبدأ فى فحصها وتمحيصها للتأكد من صحتها كنقد خارجى للوثيقة CRITIQUE EXTERNE يتبعها الاستفسار عن صاحب الوثيقة نفسه وهل هو أهل ثقة ؟ وهل هناك ما يؤثر على موضوعيته ؟ ثم عن معنى الوثيقة وهل آمن بها صاحبها ؟ وهل كان محقا فى إيمانه ؟ وهل تدفعه إلى كتابتها إغراءات معينة للحصول على نتائج مطلوبة ؟.. إلى آخره .. وهو ما يعرف بالنقد الباطنى للوثيقة CRITIQUE ENTERNE .

فإذا طبقنا هذه الخطوات على إحدى الوثائق التى اعتمد عليها البحث .. وهى وثيقة كتبها موظف فى حكومة كابول عام ١٨٦٨ كان يعمل جاسوسا لحساب الإنجليز وعنوانها « سجل بأوصاف السيد الرومى فى كابول يشتبه أن يكون عميلا روسيا يخدم فى بلاط كابول » . ثم تقول سطورها الأولى « وجه شاحب اللون ، جبهة عريضة ، عينان زرقاوان له لحية كلحية التيس ، بها بعض الشعر الأحمر ، صغير الشارب ، نحيل البنية حليق الرأس ، عمره نحو ٣٥ سنة » تجد فى هذه الوثيقة أخطاء فى تقدير الأوصاف الجسدية ، وفى تقدير

العمر حيث كان فى الثلاثين لأنه ولد عام ١٨٣٨ وفى تقدير مكانته حيث كان فى أفغانستان الوزير الأول وفى بلاطها الملكى الرجل الأول .. وبالمثل لا نجد لأى وثيقة أساسا من الصلاحية .

يبقى الأمل – بعد ذلك – فى الاستدلال للحصول على مادة جديدة عن الأفغانى وفقا لقواعد الحساب المنطقى ، وهنا نجد صعوبة للتأكد من صحة هذه الوثائق .. فالمعلومات الظنية أو الاحتمالية لا تعطينا أحكاما مؤكدة ، والأقوال غير الصحيحة أو حتى المشكوك فيها لا تصلح مقدمات لنتائج ، والمصادر التى تتعمد تشويه الشخصية موضوع البحث تفرض علينا جنوحا إلى السلبية .

وتطبيقا لهذا المنهج أصبح مألوفا أن ينظر الدكتور لويس إلى تحركات الأفغانى على أنها غامضة مشكوك فيها ، فهو فى أفغانستان عميل مزدوج ، وفى تركيا داع للإلحاد ، وفى مصر مهيج سياسى وداع للفوضوية ، وفى إيران محرض للانقلابات ، وفى الهند متواطئ مع الباب العالى ضد بريطانيا ، وفى كل بلد لابد أن يخرج مطرودا ، وأن يتخذ الدكتور لويس موقفا وسطا مع الوثائق التى تشوه الأفغانى لإدراكه أنه إذا انحاز مؤيدا فسوف يرد عليه وإذا عارض مدافعا فسوف يسلب من بحثه هذا الهدف المضمر مسبقا وهو وضع الأفغانى موضع الشك والبلبلة ، كما نرى فى وثيقة الجاسوس الإنجليزى السابقة ، فنجده بعد تسجيل أوصاف هذا الجاسوس للأفغانى ومنها « له لحية كلحية التيس » نراه يتخذ حيالها موقفا وسطا حين يعلق « وبغض النظر عن الأوصاف الجسدية » ، وهنا أسأل إذا كان الأمر لا يستحق معه إلا غض النظر فلماذا يسجله ؟ لماذا يسجل هذه الأوصاف الشاذة غير الموجودة فى أى من الكتابات الموثوق بها ؟ لماذا يتلقف تشبيها لخيال مريض ويغض عنه النظر ؟ إن الإجابات تنتهى إلى هذا الموقف الوسط الذى يشكك .. وأن يستخدم الدكتور لويس التعميم فى أمور تستوجب التخصيص كأن يردد معنى رفع تكاليف العبادات كالصوم والصلاة بالنسبة للشيعة والمتصوفة ، وأن يستدل على أحكام عامة من مجرد تصرفات عادية كأن يستدل من قول الأفغانى لأمه وهو طفل أن يجعلها حاكمة

على خراسان بأن الأفغانى يتصور نفسه ملك الدنيا أو خليفة المسلمين أو حتى المهدى المنتظر الذى يوزع العروش على أصفيائه ، وأن يستخدم القياس فى الحلقة الرابعة حين يقيس ما فعله الإنجليز بثورة أعظم خان بأفغانستان على ما فعلوه بثورة عرابى فى مصر . ويرفض مبدأ القياس نفسه فى الحلقة الخامسة عندما يستخدمه الأفغانى ويصفه بالجهل والعودة إلى منطق العصور الوسطى ، وأن يستدل من مقطوعة أدبية كتبها الأفغانى وهو فى الثلاثين من عمره وهو فى لحظة يأس على إحساس الأفغانى بالضياع مع أن الأفغانى فى هذا العمر كان ملء السمع والبصر .

على أن المفاجأة الكبرى حيث يسجل الدكتور لويس نفسه فساد هذه الوثائق التى اعتمد عليها حيث يقول فى نهاية الحلقة الرابعة : « إن عمالة الأفغانى للروس لا دليل عليها إلا فى الوثائق البريطانية يؤيدها بعض تصرفاته المريبة لكن معرفتنا بالاستعمار البريطانى تدلنا على أن الإنجليز كالأمريكيين اليوم .. كانوا يصفون كل زعماء الحركات الوطنية بالشيوعية أو بالعمالة للروس . ولذا وجب أن ننتفع من الوثائق البريطانية باحتياط شديد .. » وهنا قدم الدكتور لويس بيديه الدليل الكافى على فساد ما اعتمد عليه .

انتهينا فى الحلقة الماضية إلى إثبات عدم صلاحية أسلوب الدكتور لويس عوض فى تناوله لشخصية جمال الدين الأفغانى ، وننتقل إلى الإجابة على سؤال : ماذا كتب ؟ وأول ما يطالعنا فى البحث هو إصرار الدكتور لويس على القول بإيرانية الأفغانى ثم شيعيته . ومن عجيب الأمور أنه يقول ذلك بينما نجد كلمة « الأفغانى » تتكرر أكثر من عشرين مرة فى كل صفحة من صفحات بحثه ، فيبدو أنه أصبح من الصعب تصديق « إيرانية » جمال الدين بعد أن عاش فى وجداننا أكثر من مائة عام « أفغانيا » .

ورغم هذا .. فلنذهب مع شك الدكتور لويس فى جنسية الأفغانى إلى منتهاه ، ونفترض أن جمال الدين « إيرانى » لكن قبل ذلك نسأله لماذا قرر هذه الإيرانية دون مناقشة أو حتى تأصيل ؟ ولماذا قررها اعتمادا على مصدر واحد بينما العشرات تقول بأفغانية جمال الدين ولماذا قررها استنادا إلى أن صاحب

هذا المصدر الوحيد إيرانى مع أن هناك عددا من المفكرين الإيرانيين يرفضونها وينادون بأفغانيته ؟ والسؤال الأهم الذى كان ينبغى أن نجد له إجابة عند الدكتور لويس هو : متى بدأ القول بإيرانية الأفغانى ؟ هذا السؤال وإجابته فى دراسة عنوانها « السيد جمال الدين : إيرانى أم أفغانى » كتبها أحد تلاميذ الأفغانى وهو الشيخ عبد القادر المغربى عام ١٩٠٩م بصحيفة المؤيد حيث ذهب إلى أن إيرانية الأفغانى كانت بدافع انتقام شاه إيران ناصر الدين - المعروف بحبه للغرب وثقافته ، وتحرره شبه الكامل من الدين والذى اتسم عهده بالعلمانية فشملت الجوانب الاقتصادية والثقافية والاجتماعية وكما يسجل كل من باول شمتز فى كتابه « الإسلام قوة الغد العالمية » ، والدكتور محمد محمد حسين فى كتابه « الإسلام والحضارة الغربية » فأوعز إلى أحد موظفيه ، محمد حسن خان ، وكان يلقب باعتماد الدولة أن يسجل فى الكتاب السنوى للدولة وعنوانه « المآثر والآثار » . أن الأفغانى مولود فى أسد آباد بدلا من أسعد آباد .

ضاعف من هذا الشك ادعاء أحد الإيرانيين « ميرزا لطف الله خان » بأنه ابن أخت الأفغانى ، وأنه كتب مذكرات عنه نشرها ابنه « ميرزا صفات الله خان عام ١٩٢٦ فى كتاب جمال الدين الأسد آبادى المعروف بالأفغانى » الذى يعتمد عليه الدكتور لويس رغم إشارته فى مقدمة البحث إلى كتاب آخر : « جمال الدين الأسد آبادى الملقب بالأفغانى » للأستاذة هوما باكدمان ، ومن عجيب الأمور أن الدكتور لويس يستخدم كتاب لطف الله فى بحثه ، ويحتل من اهتمامه حجما كبيرا ، أمرا جعله يعتبره مصدرين ، أولهما ينسبه إلى الأب لطف الله ، وثانيهما ينسبه إلى الابن صفات الله . مع أنه مصدر واحد : مذكرات تركها الأب ونشرها الابن . وترجمت للعربية .

ولأن لطف الله إيرانى ، ويدعى أنه ابن أخت الأفغانى ، فإن ذلك ألقى ظلالا من الشك حول الأفغانى ، شك لا يزيله إلا الأدلة الحاسمة .

(١) أدلة للأفغانى على أفغانيته : حيث يقول فى العروة الوثقى « الأفغان هى أول أرض مس جسمى ترابها » وحيث يقول فى خاطراته للمخزومى باشا : « اضطررت لترك بلادى الأفغان » وحيث يكتب بخط يده ما يصوره

أبراج أفشار وأصغر مهدوى فى كتابهما مجموعة أسناد ومدارك : « من سكنة كابل من أهالى أفغان – السيد جمال الدين – من سادات كنر » ، وحيث يجيب على أرتو أرنولودز بصحيفة بال مال فى لندن ما ترجمته : « أنا أفغانى أصلا وفرعا وليس لى علاقة بإيران » ، وحيث يؤلف كتابه (تتمة البيان فى تاريخ الأفغان) بروح وأحاسيس لا يستطيعها إلا أفغانى لحما ودما ، وحيث يعلن أفغانيته أمام قاضى البصرة ليبلغها للسلطان عبد الحميد بتركيا : « ليس لى أى علاقة تابعية بإيران كما يشيع الشاه » .

(٢) أدلة للمفكرين الإيرانيين : وهنا أحيل الدكتور لويس إلى كتب : « الكنى والألقاب » للعلامة عباس القمى ، و « إيران » للكاتب الإيرانى إبراهيم صفاتى ، و « جمال الدين الأفغانى » لعلى الأستانة ، و « مدرسة جهادرهى » لمرتضى جهادرهى ، و « سيد جمال الدين .. أفغانى » لحسن تقى زاده ، و « تاريخ همدان » للدكتور مهدى درخشان .

(٣) أدلة للمحققين الأفغان : وأحيله إلى كتب الرد على الدكتور الوردى ، للدكتور غلام حسين الأفغانى ، جمال الدين نابغة الشرق ، للدكتور سعيد الأفغانى ، نفحات من تاريخ الأفغانى للدكتور محمد أمان خان الأفغانى ، حياة السيد جمال الدين الأفغانى للعلامة محمد أمين خوكيانى ، السيد جمال الدين أفغانى لغلام جيلانى ، مبارزة السيد جمال الدين الأفغانى لغلام صفدر بنجشيرى .

(٤) أدلة للمستشرقين : وأحيله إلى كتب الإسلام والتجديد لتشارلز أدمز ، التاريخ السرى لاحتلال بريطانيا لمصر ، لألفريد بلنت ، انقلاب إيران للمؤرخ براون ، حاضر العالم الإسلامى للوتروب مستودارد ، رهينة الخمينى ، لروبرت دريفوس ، إلى جانب مقالة جولد تسيهر عن جمال الدين فى دائرة المعارف الإسلامية .

تبقى عقيدة الأفغانى .. وهل ينتمى إلى السنة أم إلى الشيعة ؟ هذه لا تحتاج إلى أدلة بعد إثبات بطلان إيرانيته التى بنى عليها الدكتور لويس عقيدته ، وقبل ذلك بل وأهم من ذلك رأى الإمام محمد عبده ، ولا يلومنا الدكتور لويس

إذا أخذنا به كمفت للإسلام وكمفكر آلت إليه زعامة الفكر العربى فى بدايات هذا القرن حيث يقول فى مقدمته لرسالة الرد على الدهريين : « أما مذهب الرجل فحنيفى وإن لم يكن فى عقيدته مقلدا لكنه لم يفارق السنة الصحيحة » وبذلك لا نستطيع أن نذهب مع الدكتور لويس ونقرر شيعية الأفغانى ، ونبنى عليها نتائج ، تلقى ظلالا من الشك حول شخصية الأفغانى فى مجال العقيدة والدين والفكر والسياسة ومن أجل ذلك نراه يجهد نفسه فى محاولة التفرقة بين السنة والشيعة وبين الاثنى عشرية وفروع أخرى من الشيعة كالبهائية أو البابية أو الشيخية يرى أن الأفغانى كان عضوا فيها ولا نلمح لآرائه أسانيد معقولة ولا حتى مصادر علمية متفقا عليها بل ويظل يردد بطريقة الدق إلى جانب الأذن على التفرقة بين السنة والشيعة ، مع أن الخلافات بينهما كلامية اجتهادية لا تضر بوحدة المسلمين ويكفى أن الاثنين ينبعان من دين واحد هو الإسلام .. وكم كنت أود أن يرجع الدكتور لويس إلى مصادر موثوق بها فى هذا الجانب ليكون لرأيه وزن علمى .

وإذا ما انتقلنا إلى الجانب السياسى للأفغانى فى بحث الدكتور لويس نجده لا يختلف كثيرا – فى نظرته للأفغانى – عما يكتبه الأجانب فى السنوات الأخيرة . فمثلا فى كتاب صدر أخيرا بعنوان « رهينة الخمينى » يصر مؤلفه روبرت كارمن دريفوس على أن يجعل الأفغانى الذى توفى عام ١٨٩٧ مسئولا عما حدث فى إيران عام ١٩٧٩ م ، ففى فصلين كبيرين يخصصهما المؤلف للأفغانى مستلهما بتاريخ للبهائية فى إيران حتى يصل إلى أيامنا هذه حيث يجعل البهائية هى المسئولة عن هز عرش الشاه .

وحين يرصد الدكتور لويس التحرك السياسى للأفغانى فى بلده أفغانستان يراه مشكوكا فى أمره ... معتمدا على تقرير من عميل بريطانى فى أفغانستان يقلقه النفوذ المتزايد للأفغانى فى أفغانستان حيث يصل إلى مكانة الرجل الأول فى الوزارة وفى البلاط الملكى . وبالطبع يكتب هذا العميل لحكومته بأن الأفغانى عميل روسى !!

وبعد رحيله من تركيا يختار الأفغانى مصر مكانا لدعوته ، ليبقى بها نحو تسع سنوات .. غطاها الدكتور لويس فى خمسة فصول من بحثه وقراءتها تضع ملاحظات كثيرة أهمها :

ـ يتردد فى هذا الجانب من البحث أن الأفغانى اقترح على الإمام محمد عبده اغتيال الخديوى إسماعيل على كوبرى قصر النيل ، وأن الإمام وافقه ، ويستخلص الدكتور لويس من ذلك أن الأفغانى زعيم إرهابى وأنه أول من أدخل فكرة الاغتيال السياسى فى قاموس السياسة المصرية على المستوى الشعبى .. وبهذه المناسبة نسأله : هل نفذ أى عملية إرهابيـة تؤكد زعامته ؟ هل يدلنا على عملية واحدة للاغتيال خططها الأفغانى ونفذها محمد عبده كأداة ؟ هل يستطيع ذلك كما استطاع من قبل أن يجعل من المعلم يعقوب – الذى كون فيلقا لضرب الشعب المصرى معاونا الاحتلال الفرنسى ، ويخرج هاربا مع الفرنسيين ويموت على ظهر سفينة ويضعون جثته فى برميل يلقونه فى البحر – بطلا وطنيا ؟

ـ وفى أكثر من حلقة يردد الدكتور لويس أن الخديوى إسماعيل كان بطلا وطنيا يقود المقاومة الشعبية ضد الدولة العثمانية من جهة وضد التدخل الإنجلوفرنسى من جهة أخرى وأنه زعيم لدعوة مصر للمصريين وزعيم أيضا – للحركة الدستورية .. هل يعقل ذلك ؟ إن من يصدق ذلك كمن يصدق القول بأن الدكتور لويس يدافع عن الإسلام بهجومه على الأفغانى إن تفسير ذلك هو أن الخديوى إسماعيل كانت لديه رغبة فى أن تستقل مصر عن تركيا وتنشىء لها قومية مستقلة ، فى وقت نشطت فيه قيام القوميات فى أوربا ، إنها رغبة بالضبط كرغبة الدكتور لويس فى الهجوم على الأفغانى ، لا يمكن أن نفسرها بأنها من أجل الإسلام لأن واقع الحال يؤكد غير ذلك ، أجتهد فى هذا التفسير حتى لا أسرف فى القول وأسأل هل سر إعجاب الدكتور لويس بالخديوى إسماعيل كان لمقاومة الأخير لفكرة الجامعة الإسلامية ؟؟

ـ ويندد الدكتور لويس باشتراك الأفغانى فى المحافل الماسونية وكنت أتوقع منه كمفكر ليبرالى أن يكون له منظور آخر للأفغانى الذى قال عن هذه المحافل : « إن السبب الأصلى فى قيام المحافل الماسونية .. هو مقاومة سلطة البابا فى أوربا ، ولكن أربابها لما دونوا تعاليمها رأوا أن يسمح لغير المسيحيين أن يدخلوا فيها . وبذلك أصبحت الماسونية حزبا سياسيا لا شائبة للدين فيه »

ورأى الأفغانى يتفق مع رأى الشيخ محمد الغزالى حيث قال مؤخرا عن الأفغانى : « كان منتسبا لأحد المحافل الماسونية ولا أنفى هذا وإنما أسأل فى أى كتاب إسلامى شرحت آثار الماسونية وحذر المسلم منها قبل عصر الأفغانى » .

ـ وتتردد فى الحلقة الثانية أقوال حول موقف الإمام محمد عبده من الثورة العرابية ، يفهم منها بأن موقف الإمام كان سلبيا ، حيث لم يتعاون مع العرابيين إلا فى اللحظات الأخيرة حين استفزت الأساطيل الأوروبية فى الإسكندرية الباب العالى فى إستانبول . وإذا ثبت ذلك ثبت أن الإمام محمد عبده تحرك فى اللحظات الأخيرة فى أقسى درجات الأزمة . فإنه موقف يحسب له لا يحسب عليه ، أو كما عبر عنه الأستاذ العقاد فى كتابه عن الإمام قائلا : « ولما استفحلت الحركة العرابية وضرب الأسطول الإنجليزى الإسكندرية انضم الشيخ محمد عبده إلى العرابيين ووضع يده فى أيديهم ، لأن الواقعة قد وقعت .. » فلو أن الإمام محمد عبده كان سلبيا مع العرابيين كما تصوره حلقات الإيرانى الغامض لكان قد ولى الأدبار ، فى هذه اللحظات بالذات واختار الجانب المنتصر ، أو حتى لاذ بالصمت ، لكن الذى حدث أنه اختار جانب العرابيين وهم فى أزمة ليتشرد وينفى .

ـ ويذهب الدكتور لويس إلى القول بأن الأفغانى كان رجعيا فى السياسة ، تقدميا فى الدين ، يقول رجعيا ومنذ لحظات يقول : الأفغانى كان يتحرك بوضوح فى مرحلته المصرية أساسا بين صفوف المجددين والديمقراطيين والدستوريين والعرابيين ودعاة مصر للمصريين ، ولا يتحرك داخل معسكر الرجعيين ، دعاة الحكم المطلق .. ويستكثر الدكتور لويس على الأفغانى أن يتعاون مع رياض باشا المعروف برجعيته ويندد بذلك ، بل ويقول فى الحلقة الخامسة : « الأفغانى فى كل مرحلة من مراحل حياته مع الثوار على السلطة .. فهو فى إيران مع البابيين ضد الشاه .. وفى الهند مع الثوار ضد الإنجليز ، وفى أفغانستان مع الثائر أعظم خان .. » فكيف يقال عنه بعد ذلك إنه رجعى ؟

ـ ويرى الدكتور لويس أنه غير صحيح ما يقوله محمد عبده وغيره من

أن دور الأفغانى فى تحريك الفكر المصرى كان أهم عامل فى إشعال الثورة العرابية . يقول هذا ومنذ لحظات كان يقول : إن الأفغانى اختار التحرك بوضوح بين صفوف المجددين والديمقراطيين والدستوريين والعرابيين ، ولا ندرى من نصدق : الدكتور لويس فى تناقضه أم الإمام محمد عبده أحد المشتركين فى الثورة أو مؤرخ مصر الحديثة عبد الرحمن الرافعى الذى يقول عنه تحت عنوان « جمال الدين أبو الثورة العرابية » مؤكدا أن الأفغانى كان من الوجهة الفكرية أبو هذه الثورة الروحى ؟

وبعد فلا يبقى إلا الإجابة على سؤال : لماذا كتب الدكتور لويس عوض هذا البحث ؟ والإجابة تطل من سطوره الأولى حيث يلوح بمنهج يعمل على تحطيم جمال الدين ، حتى ولو كان أسطورة ، بتصيد العورات والأخطاء الصحيحة وغير الصحيحة .. ثم التعامل معها بمنهج يضع الرجل موضع الشك والريبة والبلبلة على طول الخط فهل نجح فى ذلك ؟

تحركات الأفغانى السياسية (المقال الثالث للأستاذ سامح كريم) :

يستوقفنا الشبه العميق بين ما كتبه الدكتور لويس عن تحركات الأفغانى السياسية وبين ما نشره روبرت كارمن دريفوس ، منذ ثلاث سنوات عن الأفغانى أيضا فى كتابه « رهينة الخمينى » الأمر الذى يجعل الإشارة إلى هذا البحث تصلح تقدمة لما كتبه الدكتور لويس عن الأفغانى .

ويبدأ المؤلف الأجنبى بتاريخ للبهائية فى إيران حتى يصل إلى أيامنا هذه فيجعلها مسئولة عما حدث فى إيران ، بعد ذلك يقدم لنا الأفغانى ذلك البهائى الأكبر ، منظم أول حركة بهائية شاملة فى العالم ويسجل مراحل حياته مبتدئا من أنه أفغانى من أصل يهودى ، ثم يبدأ فى رصد تحرك الأفغانى السياسى بعد أن أصبح الوزير الأول فى بلده أفغانستان ، بعد ذلك يسافر للهند وتركيا ومصر وباريس ولندن وفى مصر يلتف حوله الأتباع والمريدون .

ويعلن عن قيام عدد من الجمعيات الإسلامية يعتبرها المؤلف أجهزة للمخابرات الإنجليزية فى الشرق ويطرد من مصر بعد أن يكون قد أشعل

الشرارة الأولى للثورة العرابية التى يراها هذا المؤلف قد أعطت مبررا منطقيا للاحتلال البريطانى ، ويتجه إلى باريس حيث يؤسس جمعية العروة الوثقى لوحدة المسلمين ويرى المؤلف أن تحت رايتها تجمعت كل التنظيمات الإرهابية المبعثرة .

ويذكر أن الأفغانى تفاوض مع الإنجليز حول السودان قائلا : إذا انسحبت بريطانيا من السودان فإنه سيرتب حلفا تحت إشراف البريطانيين بين تركيا وإيران وأفغانستان ضد روسيا ، ويختم بحثه عن الأفغانى بالقول : إن حركة الإرهاب التى أسسها الأفغانى فى الربع الأخير من القرن ١٩ لم تمت بموته وإنما امتدت إلى الربع الأخير من القرن ٢٠ لتطيح بالشاه وتضع المنطقة فوق بركان من الخطر .

ولا يختلف الدكتور لويس عن هذه الروح عند تسجيله لتحركات الأفغانى السياسية معتمدا على تقارير الجواسيس أو خطابات مجهولة الاسم ، أو تفسيرات تقودنا من غموض إلى إبهام .

فحين يرصد للتحرك السياسى للأفغانى فى بلده أفغانستان ، يراه مشكوكا فى أمره . معتمدا على تقرير من عميل بريطانى فى أفغانستان يقلقه النفوذ المتزايد للأفغانى حيث يصل إلى مكانة الرجل الأول فى الحكومة والبلاط . وبالطبع يقدم هذا العميل لحكومته تفسيرا لذلك هو أن الأفغانى عميل لروسيا !

وياليت الأمر ينتهى عند حد العمالة للروس . إن الدكتور لويس يرى الأفغانى يخدم مصالح تركيا ، حين ينسق كفاح مسلمى آسيا بشكل يؤدى إلى وحدة العالم الإسلامى تحت راية الخلافة العثمانية . وهكذا يضيف إلى عمالته للروس عمالة جديدة لتركيا !

وتكتمل صورة الشك لدى الدكتور لويس فى الأفغانى حين يتساءل من الذى قدم هذا الرجل الإيرانى لأمير أفغانستان حتى يصل إلى أعلى المناصب ؟

ولا يكتفى بأن يصفه بالعمالة لروسيا أو لتركيا ، وإنما يراه عميلا مزدوجا لأنه كان مدسوسا من الأمير شير على خان على الأمير أعظم خان ، لأداء

مهمة معينة وأن سر غضب أمير البلاد على الأفغانى هو أنه انقلب فتبنى خط تحالف أعظم خان مع روسيا بدلا من تبنى خط تحالف شير على خان مع بريطانيا .

وحين يرصد لتحركاته السياسية فى تركيا يقلل الدكتور لويس من شأن الأفغانى ، حيث يتساءل عن الركائز التى نشأت له فجأة فى تركيا وهل كانت بتوصية ؟ ويستكثر عليه ترحيب رجال التعليم بإستانبول ويرى من خلال التقارير « إياها » أن ذلك قد تم بسبب قصيدة شعرية – لا يذكر بيتا منها – كتبها الأفغانى فى مدح وزير الداخلية ولا ندرى ما العلاقة بين وزير الداخلية ورجال التعليم ، حتى إذا مدح الأفغانى الوزير بقصيدة مزعومة ، نهض رجال التعليم بالترحيب به فى تركيا .

ويصف كلمة ألقاها الأفغانى بالعربية فى حفل افتتاح الجامعة التركية بأنها سخيفة تقول فى أربعين سطرا ما يمكن أن يقال فى أربعة سطور مع أن القارئ لهذه الكلمة – بعد أن ترجمها الدكتور عن كتاب بالإنجليزية لنيكى كيدى ، والأخيرة ترجمتها عن بحث بالتركية لكيسكيوغلو الذى كان قد ترجمها عن العربية – يرى أنها ليست سخيفة ويكفى أنها نالت عشرين سطرا من اهتمام الدكتور لويس كتعليق . ولكن ما العمل والدكتور لويس لا يثق فى كلمة ألقاها صاحبها بالعربية ويفضل أن يترجمها إلى العربية بعد مرورها بثلاث مراحل من الترجمة فربما يكون المترجمون للكلمة أقدر وأدق على التعبير من صاحبها !؟

وفى تاريخه للمرحلة الهندية يعتمد الدكتور لويس على خطاب كتبه رجل اسمه (حسين) للمقيم البريطانى يبلغه بنشاط الأفغانى ، أو على تقرير جاسوس اسمه « عزيز الدين » بعد ذلك يذكر أن الأفغانى بدأ يخالط أحرار الفكر ودعاة الجمود وكأنه أحد من كل فئة ! ويبدأ فى تنفيذ مخططة الذى تضمنته رسالة خطيرة جدا . ولكنها مجهولة ؟ ولأنها مجهولة المرسل إليه فلابد أن يفترض الدكتور لويس أنها للسلطان أو للصدر الأعظم ولما كانت مجهولة التاريخ فلابد أن يفترض أنها كتبت فى فترة الحرب بين تركيا وروسيا ؟ وتتضمن هذه الرسالة

الخطيرة جدا دعوة الأفغانى للجهاد الدينى تحت راية الإمبراطورية العثمانية ، على غرار ما فعل ، أبو مسلم الخراسانى ، الذى عفر وجوه حكومة بنى أمية فى الرغام ، أو ما فعله ، بطرس الناسك ، يوم حمل على ظهره صليبا وطاف به مدن بلاد الإفرنجة مناديا « إلى المعركة » فكانت الحرب الصليبية يعنى باختصار الأفغانى يريد إشعال الحرب الدينية تحت راية الدولة العثمانية .

ويقرر الدكتور لويس أن الأفغانى فشل فى مرحلته الهندية لذبذبته السياسية ونسأله هل فشل لأنه دعا للوحدة بين مسلمى الهند وهندوسها ضد الاستعمار الإنجليزى ؟ أو هل فشل حين دعا إلى إقامة دولة إسلامية تفصل الهند وروسيا هى باكستان اليوم ؟ أم هل فشل لأنه كان يعمل من أجل الوحدة الإسلامية ؟

ويتجاوز كل حدود حيث يقول عن الأفغانى : إنه لا يتبع دينا معينا كما افترض من قبل أقوالا لا وجود لها على لسان أبى الحسن بن لطف الله (حلقة ٢) تصور الأفغانى لا يحافظ على شعائر الدين وبالرجوع إلى المصدر الذى أشار إليه فلم نجد فيه ذلك . ويقول عن الأفغانى إنه لا يهمه أن يكون الدين زائفا أو منحطا المهم استمرار المجتمع !

وتبدأ المرحلة الأوروبية بباريس حيث ينقل صورة خطاب كان الأفغانى قد بعث به لرياض باشا أثناء مروره ببورسعيد وفيه ينقل له شماتة الأفغانى فيما نزل بالقاهرة بعد الثورة العرابية والاحتلال البريطانى لأنها ارتكبت فى حقه ذنوبا وهذا الكلام مشكوك فيه ، لأن الأفغانى الذى يعتبر أبا للثورة العرابية لا يشمت إن أخفق رجالها وبالطبع يعلق د. لويس قائلا ، أى درجة من البارانويا هذه ، وهل نحتاج لفهم الدكتورلويس للعلم اللدنى كما نصحنا من قبل ؟

وفى مرحلة العروة الوثقى يذكر أن الأفغانى اتبع فى سبيل قضية الجامعة الإسلامية أساليب خسيسة لا أخلاقية . وبالطبع لا ينجو الإمام محمد عبده من هذا التهجم حيث يذكر الدكتور لويس من خلال خطاب مرسل للأفغانى واقعة تتهم الشيخ الإمام لأنه تسلم مبالغ من تونس تبرعا لتمويل العروة الوثقى ولكنه لم يسلمها للأفغانى وسافر بها إلى بيروت و لم يلتقيا إلى يوم الممات !؟

وحول الفترة القصيرة التى قضاها الأفغانى بلندن .. نقرأ للدكتور لويس فى حلقته الأخيرة بحثا مطولا عنوانه « الأفغانى ملكا » معتمدا على مجرد لقاء بينه وبين جاك بيرك أبلغه فيه أن الوثائق فى بعض وزارات الخارجية الأوروبية تتحدث عن أن الحكومة الإنكليزية اتفقت مع الأفغانى بعد موت المهدى على تعيينه ملكا على السودان ، وهكذا ؟ أصبح لا حاجة لنا للوثائق ، فيكفى مجرد لقاء بين اثنين ليتحدثا ليصبح وثيقة تعيننا على دراسة مفكر كالأفغانى .. وعلى هذا اللقاء كوثيقة شفوية يرى أن تعيين الأفغانى خليفة المهدى يسهل إقامة الحلف الإسلامى ضد روسيا .

ولابد أن تنتهى حلقات الإيرانى الغامض بنهاية غريبة ، فبعد أن يقص علينا فى السطور الأخيرة قصة زائرين للأفغانى كانا يزورانه فى بيت « بلنت » فتشاجرا وتماسكا بالأيدى مما اضطر « بلنت » أن يطرد الأفغانى وضيفيه ويعلن انتهاء استضافته لأنه رجل يرى كل ما فيه آسيويا لا يستأنس .

وبعد ، فمن حق أحدنا أن يجتهد وأن يخطىء فى اجتهاده ولكن ليس من المعقول أن نسكت على هذا الخطأ خصوصا لو كان يمس قيمنا .

وإذا كان من حق الدكتور لويس عوض أن يكتب عن رجال التاريخ الأقدمين والمحدثين بوجهة نظره الخاصة فمن حقنا أيضا أن نقرأ وجهة نظره باحتياط شديد كما فعل هو عند قراءته للأفغانى كان يردد « الاحتياط دائما كالعادة لأن الأفغانى عودنا أن يروى الأمور من وجهة نظره » .

من حق الدكتور لويس أن يكتب ما شاءت له الكتابة ومن حقنا أيضا أن نقرأ وجهة نظره حتى لو كانت ضارة بالضبط كحقنا المشروع فى التدخين مع علمنا التام بأن التدخين ضار جدا بالصحة .

قصور البحث .. وغياب المنهج

د. جابر قميحة

جامعة عين شمس

ولد جمال الدين الأفغانى فى قرية أسد آباد ، بالقرب من مدينة همدان فى غرب إيران ، وليس فى قرية أسعد آباد الأفغانية ، ونشأ نشأة شيعية ، وتلقى التعليم على أيدى الشيعة والبهائيين « مجلة التضامن العدد الأول » ومعروف أن الشيعة يؤمنون بالتقية أى كتمان الآراء والمعتقدات وإظهار الإنسان خلاف ما يبطن ... وقد نشأ الأفغانى فى هذه التقاليد الشيعية التى جعلت منه إنسانا مزدوج الشخصية بل ومتعددها ، يفصل الكلام والتعاليم بحسب ما يخاطبه ، ويحسب لظروف الزمان والمكان ، حتى بدت تعاليمه وأقواله المأثورة ومواقفه وتحركاته جملة من المتناقضات التى يصعب نسبتها إلى رجل واحد (التضامن العدد الثانى) و لم يكن الأفغانى متدينا بالمعنى المفهوم ولكنه كان ينظر إلى الدين كمجرد دافع للجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسى أو بناء الإمبراطوريات (التضامن العدد الثالث) .

وفى شبابه كان متفرنجا لا يعيش كالمسلمين ، ولكن يعيش كالأوروبيين وفيما يبدو لا يتبع دينا معينا (التضامن العدد الرابع) وكان يجاهر بعصيان الدين أثناء إقامته فى كابول فكان يفطر علنا فى رمضان (التضامن العدد السادس) فلما جاء إلى مصر شدد عليه رياض باشا أن يهتم بشعائر الدين حتى تقبله بيئة الأزهر (العدد السابق) .

وقد ظهر فى مصر لا فى صورة المفكر والسياسى فحسب ، بل فى صورة زعيم إرهابى يمكن أن ينظم الجمعيات السرية للاغتيال السياسى على غرار ما كان يفعله الفوضويون فى أوروبا (التضامن العدد الثامن) .

عنوان البحث يبرز أمامنا ثلاث نقاط مهمة هى :

١ – منطوق العنوان هو « الإيرانى الغامض فى مصر » ، وهو بذلك يعد

حكما يقطع – من ناحية – بأن جمال الدين إيرانى الجنسية « مع أن الراجح كما سنرى أنه أفغانى المولد » وهو من ناحية أخرى يقطع بأن شخصيته « غامضة ذات دروب خفيه وخبايا » وذلك يعنى أن ماكتبته عنه أقلام أخرى من صراحة وجرأة ووضوح وتدين ليس بشىء .. والعنوان بهذا المنطوق المثير يذكرنا بعناوين القصص والأفلام البوليسية المثيرة مثل « القاتل المجهول » و « الرجل الخفى » .

٢ – يأتى نشر حلقات البحث بهذا العنوان لتثير فى وقت أصبح فيه لكلمة « الإيرانى » انطباع سيئ فى نفس القارئ العربى وخصوصا المصرى ... فهو لا يطرق سمعه الآن عن الثورة الإيرانية وزعيمها إلا ما يحزن ويؤلم ويثير الأسى والنقمة . فما بالك إذا كان هذا الإيرانى إيرانيا غامضا ، وكأن بهذا التوقيت الزمنى يهدف إلى خلق لون من اللقاء أو الربط النفسى بين الحاضر والماضى القريب الذى عاشه جمال الدين الإيرانى ، وأن يقرأ العربى عن جمال الدين وطيف الخمينى لا يفارق خاطره ، وأن يتابع حركات جمال الدين وهو أسير الانطباعات التى تثقل كاهله عن الثورة الإيرانية .

٣ – إن مجلة التضامن دأبت على تصدير كل حلقة من حلقات البحث بعبارة « بحث جرىء عن جمال الدين الأفغانى » وهو وصف يعكس إيحاء قويا بأن هذه الحلقات فيها خروج وتمرد على ما كتبه الكتاب ، وعرفه الناس عن جمال الدين ، مع أن البحوث وخصوصا الأكاديمى منها – لا توصف عادة بالجرأة أو الجبن – ولكنها توصف عادة بالموضوعية والتجرد أو بالهوى والتحيز .

وأعتقد أن القارئ يشهد بالبراعة والتوفيق للمجلة والكاتب فى نطاق هذه الثلاثية التى ذكرتها ، فمنطوق العنوان حكم جازم بالإدانة المسبقة على شخصية « يعتقد » أنها قمة من قمم الشرق فكرا ودينا وخلقا .

وتوقيت النشر : أصاب المحز – كما يقولون – إذ جاء مع جو نفسى مهيأ لتقبل أى مذبحة فكرية – مهما كانت ضراوتها – لكل ما هو إيرانى .

والوصف بالجرأة بعد ذلك يعضد من قيمة البحث – ويمنح البحث وصاحبه شهادة بالتجديد والتحرر الفكرى .

ولكن دعك من هذا العنوان ولننظر إلى طبيعة الأحكام التى خلعها الدكتور لويس – بكرم فياض – على جمال الدين الأفغانى . إنها فى إيجاز – تقف على طرف مناقض تماما لما كتبه علماء غربيون عرفوا بسعة الثقافة والقدرة على التعمق والتحليل والتمحيص من أمثال رينان وبراون وجولدزيهر ولوثر ستودارد ، ونكتفى بسطور قليلة مما قاله براون عنه ، كان جمال الدين فيلسوفا وكاتبا وخطيبا معا ، وكان يرمى إلى تحرير هذه الدول (الشرقية) من النفوذ الأوروبى واستغلال الأوروبيين ، والنهوض بها نهوضا ذاتيا من الداخل .

وحتى أرنست رينان الذى هاجم الإسلام فى إحدى محاضراته بالسربون وتصدى له جمال الدين ناقضا ما ذهب إليه فى مقال نشره جمال الدين فى الجريدة الباريسية JOURNAL DES DEBATS يقول رينان عن جمال الدين فى رده على مقاله « تعرفت بالشيخ جمال الدين من شهرين فوقع فى نفسى منه ما لم يقع إلا من القليلين ، وأثر فىَّ تأثيرا قويا وقد جرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هى موضوع محاضراتى فى السربون – والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على النظرية العظيمة التى طالما أعلناها وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس ، وقد خيل إلى من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته – وأنا أتحدث إليه – أنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد .. » كذلك جاء ما كتبه الدكتور لويس مناقضا تماما لما كتبه علماء شرقيون عدول من أمثال محمد عبده ورشيد رضا ومحمد باشا المخزومى وأحمد أمين وعبد الرحمن الرافعى والدكتور عثمان أمين والدكتور محمود قاسم . وكذلك سليم العنحورى الشامى المسيحى المهاجر الذى اتهم جمال الدين بالإلحاد ، ثم تبين له وجه الصواب . فكتب معترفا بخطئه فيما رمى به الرجل العظيم ، ولم تأخذه العزة بالإثم .

وأعتقد أن أعدى أعداء جمال الدين وأعدى أعداء الشرق الذين نقدوا جمال الدين ، وشوهوا بعض جوانب شخصيته لم يبلغوا بعض ما بلغه الدكتور لويس فى حلقات بحثه الأكاديمى من سلب جمال الدين كل محمدة من محامده ،

وقذفه بكل هذا الفيض الغامر من النقائض والمثالب . حتى يظن من يجهل تاريخ الرجل أنه كان مسخا فى فكره ودينه وغاياته ووسائله .

ولا أدعى أن جمال الدين فوق النقد ، فهو بشر يخطىء ويصيب ويخفق وينجح ، كما أن أقوال السابقين وشهاداتهم للرجل لا تلزم الباحث أن يتبع نفس النهج ويستقى من نفس المشرب ، فمن حقه أن يرفض بعض ما قيل عن جمال الدين بل كل ما قيل عنه . ومن حقه أن يحاول أن يفجع الأمة الإسلامية والفكر الإسلامى الناهض فى شخصية كان لها أثرها البالغ العميق فى البعث الفكرى والنهوض السياسى والدينى .

من حق الدكتور عوض أن يفعل كل أولئك . ولكن من حقنا – وقد صدرنا مقالنا بأحكامه – أن نبحث عن ركائزه العلمية التى اعتمد عليها ، ومصادره التى استقى منها ، ومنهجه فى التعامل مع المعطيات التاريخية التى أثرت فى مجريات السياسة والفكر ، وتفاعلت مع شخصية جمال الدين تأثرا وتأثيرا .

حتى أكون أمينا مع نفسى وقارئى أعترف بأنه كان ثمة سؤال يلح على أثناء قراءتى مقالات الدكتور لويس وبعد انتهائى منها وهو : ما حكمنا على من يكتب تاريخ السيد المسيح عليه السلام – معتمدا اعتمادا كليا أو شبه كلى على أقوال الفريسيين واليهود « أبناء الأفاعى » و « خراف إسرائيل الضالة » كما كان يصفهم السيد المسيح عليه السلام ؟!!

وما حكمنا على من يكتب تاريخ النبى محمد – عليه السلام – اعتمادا على تصورات الكفرة من أمثال أبى جهل والمنافقين من أمثال عبد الله بن سلول واليهود من أمثال حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف ؟

أعتقد أن السؤال فى غنى عن جواب ، وأعتقد أنه ما خطر لى أو ما فرض نفسه على إلا لأنى رأيت الدكتور لويس يجعل ركيزته الكبرى فى بحثه الجرىء « الوثائق البريطانية » وهو حينما يتحدث عن هذه الوثائق يتحدث عنها بتقدير وإجلال وثقة كاملة وبعبارات تجرى على النسق التالى ، وقد « أثبتت الوثائق البريطانية » و « أكدت الوثائق البريطانية » وكأن الدكتور لويس يجهل أن هذه

الوثائق إنما هى وثائق الرجال الذين عاش الأفغانى يحارب إمبراطوريتهم فى كل مكان يحل به . ويؤلب عليهم الشعوب ويلهب ضدهم المشاعر .

وما يقوله كبار المسئولين الإنجليز من أمثال السيرفرانك لاسيز قنصل إنجلترا العام فى مصر عن جمال الدين من وصفه بالعمل على نشر مبادئ الفوضى ، وما يقوله مراسل التايمز فى رسالة يصف فيها الأفغانى بأنه « ذو ماضٍ مريب » (التضامن العدد الأول) ، كل هذه الأقوال لها عند الدكتور لويس احترامها وقدسيتها ، بل إن الدكتور لويس يفتح صدره فى سماحة وكرم لتقارير الجواسيس فيكتب (فى العدد الأول من التضامن) بالحرف الواحد « انظر إلى هذا التقرير الذى كتبه موظف فى حكومة كابول سنة ١٨٦٨ كان يعمل جاسوسا لحساب الإنجليز والتقرير بعنوان سجل بأوصاف السيد الرومى فى كابول (يقصد جمال الدين) يشتبه أن يكون عميلا روسيا يخدم فى دِوبارة (بلاط) كابول » .

وتنتهى كل هذه التقارير والوثائق إلى أن الأفغانى كان « عميلا روسيا مأجورا » بل وأكثر من ذلك . كان عميلا مزدوجا DOUBLE AGENT وهذا ما يرجحه الدكتور لويس عوض ويطمئن إليه (التضامن العدد الرابع) .

أما ما يقوله جمال الدين عن نفسه تعبيرا عن فكره ومعتقده فهو مرفوض عند الدكتور لويس عوض .

أما شهادة طلابه ومريديه ومعايشيه من أمثال محمد عبده ورشيد رضا والمخزومى فموضع شك كبير عند الدكتور لويس عوض .

التزوير وأمانة الكلمة (المقال الثانى للدكتور قميحة) :

استعرضنا بالأمس ملامح الصورة الممسوخة التى رسمها الدكتور لويس وتحدثنا عن الطبيعة العامة لأحكامه وكيف كانت فى مجموعها متناقضة مع ما قاله غربيون وشرقيون أعمق فكرا وأوسع ثقافة ورأينا كيف جعل الكاتب مصدره الأساسى تقارير الجواسيس ووثائق الحكومة البريطانية التى عاش الأفغانى حربا عليها فى كل مكان يحل به واليوم نرى مع قرائنا كيف تعامل الأستاذ الأكاديمى مع النصوص وأحداث التاريخ ..

فلنسر مع هذا « الخط المنهجى » إلى حين – ولننظر فى نصوص الدكتور لويس ووثائقه ووقائعه – وسنكتشف أنه – فيما يستخلصه ويستنبطه من نتائج وأحكام – يحملها – لا أقول أكثر مما تحتمل فحسب – بل يحملها – فى كثير من الأحيان – مالا يمكن أن تحتمله إطلاقا ولنعايش بعض الأمثلة :

١ – أغلب الأقوال شرقيها وغربيها – تؤكد أن جمال الدين أفغانى المولد – سنى المذهب – وأنه ولد فى أسعد آباد وهى إحدى القرى التابعة لخطة كنر بالأفغان ، يرتقى نسبه إلى الحسين بن على ، وممن حقق ذلك بدقة واستفاضة : المؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى فى كتابه القيم عن جمال الدين .

ولكن بعض الإيرانيين يزعم أنه ولد فى قرية أسد آباد الإيرانية وهو قول لا دليل على صحته ، وإن كان هذا التنافس على نسبة جمال الدين يعد فى ذاته شهادة بعظمة الرجل وعلو مكانته ، وجمال الدين نفسه قد حسم هذه القضية بما نقله عنه أقرب الناس إليه مثل محمد عبده وشكيب أرسلان وعبد القادر المغربى فمن أقوال جمال الدين : « ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفتنى الأفغان وهى أول أرض مس جسمى ترابها » وقوله مرة أخرى « ... وقد اضطررت لترك بلادى الأفغان ... » .

٢ – ويذهب الدكتور لويس إلى أنه كان يؤمن بالقضية ويظهر خلاف ما يبطن .. مع أن التاريخ يقطع بأن حياة الأفغانى كلها كانت سلسلة متصلة الحلقات من الجرأة والشجاعة والصراحة .. وقد كلفه ذلك من جهده وصحته واستقراره الشىء الكثير ، وكثيرا ما كانت شجاعته تتحول إلى حدة وهياج فى مواجهة القادة والزعماء يقول عنه محمد عبده : « .. وهو شجاع مقدام لايهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج وكثيرا ما هدمت الحدة ، ما رفعته الفطنة » وحينما كتب محمد عبده من مصر كتابا لجمال الدين وهو فى الآستانة كتابا غفلا من الإمضاء ويظهر أن ذلك كان خوفا من الرقابة ، أرسل إليه يؤنبه على هذا التصرف قائلا : « .. تكتب ولا تمضى ؟؟.. أمامك الموت ولا ينجيك الخوف ، فكن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة ، ولا تكن صبيا هلوعا » .

وبسبب صراحته وجرأته « جرد » عليه شاه إيران ناصر الدين حملة من خمسمائة جندى وسحبوه مسلسلا فى الحديد وألقوا به خارج البلاد وهو مريض فى يوم جليدى شديد البرد ، فأخذ يهيج مشاعر الناس على الشاه فى كل بلد يحل به .. ولما استقر به المقام فى الآستانة طلب منه السلطان عبد الحميد أن يكف عن مهاجمة الشاه .. فقال جمال الدين : « إنى لأجلك قد عفوت عنه » وكان يحدث وهو يلعب بحبات مسبحته فلما طلب منه بعض الحاشية أن يكف عن ذلك قال : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بمسبحته كما يشاء ؟؟ » .

ويطول بنا المقام لو رحنا نعدد الشواهد والوقائع التى تنفى عن الرجل القول بالجبن والتقية وإظهار خلاف ما يبطن ، فكم جابه الحكام فى صراحة لا يظهر لها ، وخاصة بدعوته إلى الشورى والحكم النيابى ، ومن هؤلاء الخديو توفيق وقيصر روسيا .

والغريب أن الدكتور لويس نفسه عاد فنقض ما ذهب إليه من القول بتقية الأفغانى حين يقول : « وكان الأفغانى يتحرك بوضوح فى مرحلته المصرية فى سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٩٧٩ أساسا بين صفوف المجددين والديمقراطيين والدستوريين والعرابيين ودعاة مصر للمصريين .. » .

وفى سيرة الأفغانى لأديب إسحق ، فأجرت له الحكومة الخديوية رزقا على أن يكون من المدرسين فجرت بينه وبين علماء الأزهر مناظرة أفضت إلى المنافرة ، فانقطع إلى منزله وصار له فيه حلقة تدريس « التضامن العدد ٦ » .

فالموضوع والمواجهة الصريحة لا يتفقان مع منطق التقية التى تعتمد على التورية والمجاراة وإظهار خلاف الباطن .

٣ - يذهب الدكتور لويس إلى أن جمال الدين طرد من المحفل الماسونى « التضامن العدد ١٤ » ، والثابت أن جمال الدين الأفغانى اشترك فى المحفل الماسونى الإنجليزى مشدودا على حد قوله بشعارهم الكبير الخطير .. « حرية . مساواة . إخاء » .. وكان المحفل يضم أشراف الناس وكبراءهم .. وصدم جمال الدين حين رأى أن هذا الشعار لا وجود له فى واقع هؤلاء الأعضاء

بل لم يجد منهم إلا الجبن والسلبية والتزاحم على المناصب ، فاستقال ، وأنشأ محفلا آخر تابعا للشرق الفرنسي ونجح فى تنظيمه حتى بلغ عدد أعضائه ثلاثمئة عضو . وكان يبغى من ذلك إيصال دعوته الإصلاحية إلى كبار الناس وعظمائهم .

٤ – ولم يكن الأفغانى يستحل لنفسه اتباع الوسائل الخسيسة فى سبيل تحقيق غاياته النبيلة أو غير النبيلة .. فيكفى للرد على ذلك ما جاء على لسان محمد عبده إذ قال : « ماذا كان يضر السيد الأفغانى لو مهد لإصلاحه – وهو فى الآستانة – بالسعى عند السلطان فى إعطاء أبى الهدى الصيادى خمسمائة جنيه ونيشانا لابنه أو لأخيه فإذا رأى أبو الهدى أن السيد يخدمه ، فإما أن يواتيه وإما ألا يناوئه ؟

ولكن ما كان للسيد الأفغانى أن يسلك مثل هذه الخطة حتى لو حققت من النفع العام الكثير والكثير . ولما دس له أبو الهدى الصيادى عند السلطان قال له عبد الله النديم : ليتك ذكرت للسلطان دسائسه وضرره . فغضب جمال الدين وقال : « أعوذ بالله أن أكون من المنافقين » أو أن أفعل ما أنكره على الغير ، أو أن أكون همازا مشاء بنميم » .

فالغاية عنده لا تبرر الوسيلة ، والنفس الكبيرة لا تستشرف إلا الغايات العلية ولا تتبع إليها إلا الوسائل الشريفة النبيلة .

٥ – وهل كان جمال الدين متعصبا دينيا .. داعيا إلى التعصب الدينى فى مرحلة « العروة الوثقى » التى عاشها فى باريس ؟ « التضامن العدد ١٩ » .

إن واقع العروة الوثقى يفند هذا الادعاء .. فمما كتبه فى إحدى مقالاته بالعروة الوثقى : « لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ، ومدافعتها عن حقوقهم – تقصد انشقاقا بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما ندعو إليه ، ولا مما يبيحه ديننا .. » .

فمن أين جاءت تهمة التعصب التى خلعها الدكتور لويس على الأفغانى فى مرحلة العروة الوثقى ؟ أعتقد أنها جاءت من إلحاح الأفغانى – بعد أن رأى ما رأى من انكسار الثورة العرابية والاضطهاد الواقع على المسلمين من حكامهم ومن المستعمرين – على ضرورة التجمع فى دولة واحدة أو دول متوحدة فى شكل كومونولث إسلامى مع التمسك بدينهم والالتفاف حول كتابهم والاعتزاز بالعصبية الدينية ، « وهى غير التعصب المقيت » الذى يقوم على الشقاق والتطاحن بين أصحاب الديانات المختلفة ، والذى تبرأ منه جمال الدين على صفحات العروة الوثقى .

وتاريخ جمال الدين يشهد أن من تلاميذه النجباء وأصدقائه المخلصين كثيرا من غير المسلمين مثل أديب إسحق المسيحى الدمشقى ويعقوب صنوع اليهودى ، وقد شجع الأول على إنشاء جريدتى مصر والتجارة وكان جمال الدين يكتب فيهما بنفسه ، وشجع الثانى على إنشاء مجلته الهزلية « أبو نضارة » .

لقد عاش جمال الدين لفكره وعقيدته ، ولم يتعيش بفكره وعقيدته . عاش عمره يضرب فى أنحاء الأرض ينشر بذور الإصلاح . ويلهب المشاعر وينتصر للعقل فى وضوح دون مواربة . ولو تنازل عن قطعة من كرامته ولو باع ضميره ولو للحظة واحدة لوجد آلافا يغلونه الثمن .. بل كم من أمراء وحكام كانوا على استعداد أن يشتروا سكوته .. مجرد سكوته بثروات طائلة .. ولكنه آثر عذاب الجهاد .. وجوع الليالى ومفارقة الأوطان على استكانة الدعة وسلام الأذلاء .. فعاش فقيرا .. وقضى فقيرا .. وظل قبره تائها مطموسا بين القبور بلا معالم تدل على صاحبه .. إلى أن جاء أمريكى – صديق للعرب – فتبنى القبر وبناه وأظهر ما انطمس من معالمه وسواه وأظهره ولن يضير جمال الدين أن تتناوب عليه ألسنة وأقلام .. فالبقاء للأصلح .. للأصلح دائما .

الأفغانى هل كان تقدميا أم رجعيا ؟

الدكتور عاصم الدسوقى

أستاذ تاريخ حديث – جامعة عين شمس

كانت شخصية الأفغانى ولا تزال يلفها قدر من الغموض أوقع المؤرخين والكتاب فى بعض الحيرة عندما تناولوها بالدرس والتحليل ، ورغم الكم الهائل من الدراسات التى كتبت عن هذا الرجل فى الغرب والشرق على السواء ، إلا أنها لم تفلح بشكل نهائى فى اجتلاء حقيقة هذه الشخصية ، وعجزت عن أن تقول كلمة أخيرة فى الموضوع ولو أن الكلمة الأخيرة فى موضوع من الموضوعات الجدلية يعد من قبيل التفكير غير العلمى .

ولعل « البحث الجرىء » الذى قدمه أستاذنا لويس عوض فى « التضامن » يثبت تلك الحقيقة إلى حد كبير ، حيث انتهى هذا البحث البالغ الدقة إلى زيادة درجة الغموض حول الأفغانى فلم نعد نعرف بعدا خالصا من أبعاد شخصيته التى انطوت على مجموعة السلوكيات المتناقضة ، وجمعت فى ذاتها صنوفا من المعرفة الموسوعية فى الدين والأخلاق والسياسة والفلسفة .

وإذا كانت شخصية الأفغانى مثيرة وغامضة و « متناقضة » على النحو الذى أكده لويس عوض فى مقالاته ، فإن الأحكام التى توصل إليها فى ثنايا هذه المقالات أكثر إثارة وتضعه مع الأفغانى فى مأخذ التناقض ، وسوف أشير فى هذه العجالة إلى أحد تلك الأحكام المثيرة والتى تقول : « إن الأفغانى كان رجعيا فى السياسة تقدميا فى الدين وكان هذا إشكال حياته » (عدد ٢١ مايو ٨٣ ص ٢٢) .

كيف يكون الأفغانى تقدميا فى الدين ورجعيا فى السياسة ؟ لقد استند لويس عوض فى هذا الحكم العام على جزئية فى نشاط الأفغانى السياسى عندما

اقتنع الأفغانى تحت تأثير رياض باشا بمبدأ « تجديد شباب الإسلام داخل إطار الخلافة العثمانية » وهذا يعنى أن الخلافة العثمانية تمثل الرجعية السياسية بينما التجديد فى الإسلام يعنى التقدمية . وبصرف النظر عن مناقشة أفكار رياض باشا هذه التى اقتنع بها الأفغانى فإن محور نشاط الأفغانى كما أثبته لويس عوض يتصادم مع هذا الحكم فالأفغانى – كما جاء فى الدراسة – كان يسخر الفكر لخدمة السياسة أكثر مما يسخر السياسة لخدمة الفكر (عدد ١٦ إبريل ٨٣ ص ٢) .. وهو « يستخدم الدين لتحقيق القومية على أساس الدين لا على أساس العنصر » (عدد ٢٠ إبريل ٨٣ ص ١٢) .. « والأفغانى لم يكن متدينا بالمعنى المفهوم ولكنه كان ينظر إلى الدين كمجرد دافع للجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسى وبناء الإمبراطوريات » (نفس العدد) فأين هنا تقدمية الدين ورجعية السياسة ..؟ هل تحقيق الاستقلال السياسى يعد رجعية سياسية .. هل حركة القومية تمثل رجعية سياسية ، وإذا كانت كذلك فهل يستقيم استخدام محرك تقدمى (الدين عند الأفغانى) فى سبيل هدف رجعى !؟

لقد وقف الأفغانى بشهادة لويس عوض فى مراحل حياته يعاون الثوار على السلطة .. كان فى إيران مع السياسيين ضد الشاه ، وكان فى الهند مع الثوار المسلمين ضد الاحتلال البريطانى ، وكان فى أفغانستان مع الثائر أعظم خان ، وفى إستانبول كان مع تركيا الفتاة ضد السلطان العثمانى ، وإذا كان الأفغانى فى البلاد التى نزل بها لم يبادر بإعلان ثوريته على السلطة بصراحة بقدر ما كان يهتم بإبراز رضا السلطة عنه (عدد ١٤ مايو ص ٢٩) فليس فى هذا ما يعيبه على الإطلاق ، وذلك أن العمل الثورى بداهة يتطلب من صاحبه مثل هذا المسلك .. أن يتوارى عن السلطة التى يناضل ضدها .. أن يدخل فى روعها أنه ليس ضدها إلى أن تكون الظروف مواتية لتوجيه الضربة المناسبة .

وطالما كانت الثورة على الظلم والاستبداد هدف الأفغانى فى نشاطه السياسى فليس مما يعيبه أنه كان ينتقل من مرحلة إلى أخرى فى حياته بين نقائض الفلسفة فى يسر شديد ، إذ من الأوفق أن نقول إنه كان يستعين بكل نقائض الفلسفة التى تعلمها فى حياته للوصول إلى هدفه .. ومن هنا بدا للنظرة الظاهرية

ازدواجيا أو متناقضا » يفصل الكلام بحسب من يخاطبه وبحسب ظروف الزمان والمكان »وعلى هذا الأساس يمكن القول : إن النضال ضد الظلم والاستبداد يمثل البعد الواضح فى شخصية الأفغانى لا يرقى إليه التشكيك ودون الالتفات كثيرا إلى « تناقض » الوسائل التى كان يتوسل بها طالما أنها كانت تستخدم فى سبيل هدف واحد .

أما تفسير لويس عوض لوقوف الأفغانى إلى جانب توفيق لولاية حكم مصر بعد خلع إسماعيل ، والصراع بين أنصار حليم وأنصار توفيق على هذا المنصب والقوى الكبرى المساندة لكل طرف من طرفى الصراع فهذه مسائل محل اجتهادات ولا يكفى فى الدلالة عليها ما ذكره فى بحثه ، لكن اللافت للنظر أن لويس عوض فى سبيل إثبات أن الأفغانى كان يناصر توفيق وبالتالى محور تركيا / إنجلترا يلتجىء إلى استشهادات غير متماسكة .. من ذلك قوله : « إن الأفغانى كان يذكر المصريين بكل غزاة مصر فيما عدا الأتراك والإنجليز فى حين أن الوجود التركى وسطوة الإنجليز فى الوزارة النوبارية كانا أكبر خطرين ماثلين على المصريين » (عدد ١١ يونيو ٨٢ ص ٢٢) فهل يطلب لويس عوض من الأفغانى أن يكون مهاجما للأتراك والإنجليز آنذاك مع السطوة التى كانا يتمتعان بها فى البلاد .. أى أن يقدم نفسه للمشنقة فى يسر وهدوء .. ألم يكن يكفى الرجوع إلى التاريخ الماضى لاستنفار الحاضر ؟ ولماذا لا نقول : إن الأفغانى قد ناصر توفيق بعد أن أجمع المصريون على فساد حكم إسماعيل (عدد ١٦ يوليه ص ٢٥) على أمل أن يكون فى ذلك حل للمشكلة خاصة وأن توفيق فيما يظهر للأفغانى كان واقعا تحت تأثيره .

ثم يقول لويس عوض : « إن الأفكار العثمانية أدت إلى استقطاب ذلك الجناح المحافظ من مجاهدى الحزب الوطنى الحر ، ثم مجاهدى الثورة العرابية مما أحبط الثورة بتوجيهها فى مسارات دينية بدلا من تعميق جذورها المصرية » (ص ٣٣) وهذه نتيجة أخرى مثيرة فلو فرض أن ذلك كان صحيحا فكيف يتفق هذا مع ما أشار إليه لويس عوض فى نفس الصفحة من أن الأفغانى فى خطبة (؟)

أبرز دور القوميات فى نهضة الأمم وأدان التعصب الدينى واستبداد الحكام والأخذ عامة بأسباب القوة والتقدم فى الحضارات الأجنبية .

وأخيرا يكفى الأفغانى فخرا أن الشخصيات المعاصرة له من الأصدقاء والمريدين على اختلاف مشاربهم (محمد عبده وأديب إسحاق وسليم العنحورى وجورجى زيدان) قد أجمعوا على دوره فى التمهيد للثورة العرابية وحركة التحرر المصرية وحركات التحرر فى البلاد الإسلامية فى مواجهة الاستعمار البريطانى .

أباطيل الاستشراق !!

الدكتور عبد القادر محمود

أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة

من البداية أؤكد أننى لست من دعاة الحجر على الآراء . حول مناقشة أعلام الفكر الإسلامى أو القضايا الإسلامية فى القديم والحديث ، سواء صدرت عن أعلام المسلمين أو غير المسلمين ، أجانب أو مستشرقين أو تابعين لكثير من مناهج الاستشراق أو المستشرقين ، تلك التى كان ولا يزال أهم أغراضها الكيد للإسلام ولسلطان المسلمين .

نقول هذا بكل ثقة ويقين لكننا لا نستطيع أن نتوقف عن رجم أى رأى أو صاحب منهج ، له خلفيته الخبيثة السافرة ولن نحجم عن رجمه حتى ولو كان من المعصومين من الخطايا إعلاء وحماية ورعاية لكلمة الله العليا .

نقول هذا بمناسبة ما ينشره الآن الأستاذ الدكتور لويس عوض حول جمال الدين الأفغانى سعيا وراء تشويه شخصيته الفكرية ، ضمن مخطط العدوان الكبير على أصالة التراث الإسلامى قديمه وحديثه .

ولن أتعرض هنا طويلا للدفاع عن الأفغانى فحسبه مدرسته الكبرى مع محمد عبده والكواكبى ، وابن باديس ، ومحمد رشيد رضا ، والمودودى ، والندوى ، وما تطور عن هذه المدرسة من مدارس تجديدية من أمثال محمد إقبال ومالك بن نبى ، وما تأسس مع مدرسة مصطفى عبد الرازق فى الفكر الإسلامى المعاصر وعلى المستوى الأكاديمى فى الجامعات الإسلامية والعربية .

لكننى أناقش القضية من زاوية خاصة ، سبق لشيخنا وصديقنا العالم الأديب الكبير الأستاذ محمود محمد شاكر معالجتها ، بكل يقظة ويقين ، على صفحات مجلة الرسالة فى أكثر من عشر مقالات ومنذ عشرين عاما مواجها

شطط لويس عوض (أديب مصر الرسمى كما كانوا يقولون) وعلى صفحات الأهرام الغراء بالذات ، حين كان يدعو للشك فى أصالة فكر ابن خلدون والمعرى وابن رشد وغيرهم ودعواه أن نبوغ هؤلاء وأمثالهم إنما كان فى حقل مدارس الرهبنة النصرانية أو اليهودية إلى آخر هذا الهراء الذى كان ولا يزال يدعمه بالمصادر الزائفة الصهيونية وغير الصهيونية .

أما الأفغانى فحسبى أن أذكر باختصار شديد أنه فى كل أعماله قد وصل إلى النقط التالية :

١ - أن الإسلام دين التوحيد الحق البعيد كل البعد عن كل صور وأشكال الوثنيات .

٢ - أن الإسلام دين الكمال العقلى (الذى قرر المزايا البشرية على هذا النهج) .

فالناس يتفاضلون بالعقل والفضيلة إذن فلا صحة لدعاوى تمايز الأجناس التى زعمها « رينان » وأمثاله ممن ناقشهم هو وتلميذه محمد عبده .

٣ - أن الإسلام دين العقيدة القائمة على الإقناع العقلى لا التقليد الأعمى .

٤ - أن الإسلام دين العزة والقوة ، لا دين الضعف ، ومن هنا يرفض الإسلام كل قانون يخالف شريعته وينبذ كل سلطة لا يكون القائم عليها ماضيا على صراطه المستقيم ، ومن هنا دعا إلى فكرة الجامعة الإسلامية سعيا للوحدة الشاملة المتكاملة .

ولاشك أن هذه الدعوة قد حوربت من جميع الجبهات الاستعمارية ، التى استغلتها بالذات للتفرقة بين المسيحيين والمسلمين ولم تكن إنجلترا أو أمريكا وحدهما فى هذه الجبهة المعادية للإسلام والمسلمين ، بل كان « لينين » بنفسه وفكره فى مواجهتها حين طالب فى المسودة الأولى التى وضعها للمؤتمر الثانى للأممية الشيوعية (الكومنترن) حول مسألة القومية ، بضرورة النضال المستمرضد الجامعة الإسلامية وما شابهها من تيارات .

٥ - دعوة الأفغانى الواضحة بفتح أبواب الاجتهاد الذى لا يخرج عن

أصول الكتاب والسنة ومن هنا ذكر فيما ذكر عن المتوقفين أو المتجمدين عند مشارف النصوص : « إننى لا أرتاب بأنه لو فسح فى أجل أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد ، وعاشوا إلى اليوم ، لداموا مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكما من القرآن والحديث وكلما زاد تعمقهم ازدادوا فهما وتدقيقا » .

٦ – دعوة الأفغانى للثورة والعداء لكل الفلسفات المغلقة ، تلك التى تدعو للصمت أمام مناطق الكون الرحيبة الأمر الذى أكد فيه الأفغانى إيمانه بسلطان العقل على فتح وكشف المغاليق الكونية والنفسية كما أكد الصلة الوثيقة بين الفكر والعمل ، على أساس : « أن كل شهود يحدث فكرا وكل فكر يكون له أثر فى داعية يدعو إليه ، وعن كل داعية ينشأ عمل . ثم يعود من العمل إلى الفكر دور يتسلسل ولا ينقطع الانفعال أو الاتصال بين الأعمال والأفكار ما دامت الأرواح فى الأجسام . وكل قبيل هو للآخر عماد ، آخر الفكر أول عمل وأول العمل آخر الفكر » .

من هنا مجد الأفغانى قدرة الإنسان وحريته ، ودعا إلى حمايتها ورعايتها وتنميتها فى الوقت الذى أبان عن فكرة القضاء والقدر ، وكشف أنه قد شابتها أفكار جبرية غير محمودة لادينا ولا عقلا فلا غرابة أن نجد تطلعا باصرا من الأفغانى يؤكد فيه أن العقل الإنسانى سيكتشف قريبا صفحات بيضاء بلا نهايات ، وميادين علمية بلا حدود . أو كما يقول بلسان علمى مبين : « وعندى أن العقل إذا ظفر فى هذا العراك والجدال ، تغلب إقدامه على الأوهام ، واستطاع فك قيوده ، ومشى مطلق السراح ، لا يلبث طويلا إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان وغاص فى البحار يسابق الحيتان ، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره ، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره ، كأنه قاب قوسين أو أدنى . وهل يبقى مستحيلا إيجاد مطية توصله للقمر أو الأجرام الأخرى ؟ » « إن أسرار الطبيعة ما وجدت إلا للإنسان ، وما وجد الإنسان إلا لها » .

إن هذا قطرة فى بحر الأفغانى ومن ثورة الأفغانى التى خاض غمارها ثلث قرن ، لكنها عاشت وتعيش إلى الأبد مع مدرسته الكبرى فى أنحاء العالم الإسلامى وغير الإسلامى .

ونعود فنقول ، كما قلنا ، وكما قال شيوخنا وإخواننا فى أكثر من كتاب وبحث ، إنه من الواجب على أمثال الدكتور لويس عوض ، أن يقصر بحوثه على النواحى الأدبية والفنية ، بحكم تخصصه الأكاديمى ، وإذا كان فى هذا نوع من الحجر ، فهو حجر علمى يجب أن يتمسك به كل من يدلى برأى أو يخط كلمة أو حرفا ، فى أى حقل من حقول المعرفة .

أما أن يتعرض لأعلام الفكر الإسلامى قديما أو حديثا . فنحن مستعدون لرجم آرائه والقول له ولأمثاله : « مكانكم يا أصداء أباطيل المدارس الاستشراقية فرءوسكم وعقولكم عارية » .

أقول هذا داعيا كل مسئول عن الفكر الإسلامى فى أنحاء العالم وبخاصة شيوخنا من رجال الأزهر وعلمائه ، وإخواننا الأكاديميين فى سائر الجامعات الإسلامية والعربية ، إلى مواصلة الكفاح بكل الوسائل المقروءة والمشهودة والمسموعة وبكل اللغات ، للدفاع عن كلمة الله العليا ، وحماية التراث الإسلامى وأعلامه من سموم الأباطيل والترهات والرءوس الجوفاء ، أو الممتلئة حقدا على أصالة الفكر الإسلامى أو التراث الإسلامى . والله معنا ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

صاحب الرسالة ورجل المهمات

الدكتور عبد الفتاح الديدى

صديقى وأستاذى الدكتور لويس عوض ؛ عزيز على معزة جمال الدين الأفغانى فى قلبى وخاطرى وقد تتلمذت على الدكتور لويس عوض فى أولى السنوات التى قضيتها بكلية الآداب جامعة القاهرة . ولا أزال وسأظل أكن له شيئا من الحب الذى يتناسب مع شخصيته ، وسأظل أحمل حبا لشخص جمال الدين الأفغانى فى قلبى يجعلنى أرفض إلى الأبد النظر إليه كأحد العملاء ، وأستاذى الدكتور لويس عوض يعلم أنى عشت حياة لم تخل فى أى لحظة منها من الاتصال بالعملاء فى فرنسا ثم فى ألمانيا ومصر وأصبحت أعرف من تعامل على ذلك النحو من لحظة عابرة ، وكذلك فعل أستاذنا العقاد ولو كنت قد سمعت مرة من أستاذى العقاد ما يثير أدنى إشارة إلى وضع الأفغانى لهان الأمر ، ولكن العقاد ورث احترام الأفغانى عن محمد فريد وجدى وحسن الطويل وكليهما كان رجلا أخلاقيا بالدرجة الأولى .

وما كانت لتفوت العقاد أى شبهة جاسوسية فى شخص الأفغانى فالواقع أن الأفغانى كان بطبعه مهيأ لحمل رسالة كبيرة وهى رسالة تجديد الإسلام والدعوة إلى ربط الحضارة والمدنية المعاصرة بأطراف الإسلام من كل نواحيه ، وجاء الأفغانى إلى مصر سنة ١٨٧١م وبدأ بعد ذلك بسنوات نشر كتاب جيزوه عن المدنية الفرنسية مترجما فى صحيفة الأهرام ، وتأثر به الأفغانى أيما تأثر .

المهم هو أن صاحب الرسالة يختلف اختلافا جوهريا عن صاحب المهمة فصاحب المهمة رجل مسالم جبان يمضى فى هدوء إلى حيث يحقق هدفه و لم يكن الأفغانى مستمعا بقدر ما كان صاحب عطاء مستمر ، ووصل إلى مصر قبل الاحتلال البريطانى بعشر سنوات .

وقبل ذلك حلت الثورة حينما حل جمال الدين ، مما يدل على أن شخصيته قد تهيأت بتكوينها لكى تكون شخصية ثائر ، فكان الأفغانى مغناطيسيا بتأثيره الثورى حينما حل ، وحاز إعجاب وتوقير تلاميذه وكلهم من الأفذاذ .. ولم يحتل من أجل أهداف أبعد من تحقيق الثورة . ولم تظهر على دعواه الدينية أى ملامح قاتمة ، وإنما كان مفتوحا مجاهرا فى كل تصرفاته كما كان واضع البذرة الحقيقية للتيار الدينى والأصيل الذى يمثل عصب الفكر فى بلادنا .

والدكتور لويس عوض يعتقد أنه وقع على اكتشاف خطير بأن قرأ خطاب القنصل الإنجليزى فى كابول عاصمة أفغانستان الآن وهو يقول عن الأفغانى إنه من رجالنا المأجورين ولا أستطيع هنا أن أناقش قضايا الجواسيس ، ولكن ببساطة نحن نعرف فى أمثال هذه الظروف مئات الأمثلة التى لا تدل على قليل أو كثير ، ونحن نعرف قوما قيل عنهم ذلك لمجرد المنافسة على فتاة أو المنافسة فى مجالات العمل نفسه أو لإبراز البراعة التى استطاع بها ذلك القنصل وغيره البرهنة على براعتهم أمام المسئولين ، والدكتور لويس عوض يكتب الآن عن الثورة والثقافة فى مجلة المصور ويستطيع أن يراجع الأسماء التى ذكرها ليعرف كم منهم كان على وشك الإعدام بسبب اتهامات أو مظاهر ذكاء من هذا القبيل . وكان من الأسهل على بريطانيا أن تحارب الكثيرين من المصريين والكثير من الحركات الناجحة بسبب التشكيك فى الشرفاء وهو أمر وارد فى كثير من الحالات المعارضة .

بقيت مسألة إنفاق جمال الدين الأفغانى على حياته وهذه مسألة فى الغالب لا تعوق الثائر الموهوب ، ولم تعرف عن الأفغانى أى نفقات خارجة عن أبسط المألوف ، وحياة رجل كالأفغانى كما وصفه أصدقاؤه فى ذلك ما كانت لتتطلب منه أكثر من جنيه واحد فى الشهر بما فى ذلك السكن الذى كان يأوى إليه ولا ننسى أن الأزهر حينذاك كان يدبر هذا كله للمجاورين فضلا على أنه كان ينشر ويصحح كما أن تلاميذه كانوا جميعا من المبرزين وبعضهم كان ميسور الحال إلى درجة ملحوظة ومنهم رياض باشا صديق محمد عبده .

وأعجب العجب أن جمال الدين الأفغانى لم يطرد من مصر بمفرده وإنما طرد معه بأمر الخديوى توفيق أديب إسحق وهو مسيحى من تلاميذ الأفغانى . وهذا يدل على رحابة أفق الدعوة التى دعا إليها الأفغانى وأرسل إليه الخديوى نقودا أعطيت إليه ساعة السفر فردها الأفغانى قائلا قولته المشهورة : « إن الليث لا يعدم فريسته حيثما كان » .. ولا يمكن أن يكون ذلك موقف جاسوس عادى .

ولو كانت الجاسوسية تفسيرا لعبقرية جمال الدين الأفغانى لقبلناها مسرورين بالوقوف على سر هذا الرجل العظيم ، ولكن العجب كل العجب أن يكون مثل هذا الرجل موجودا بين ظهرانينا وينحدر الشرق ولو كانت التهمة صحيحة لأقبل الجاسوس الأفغانى على مفاتن الدنيا يأخذ منها ويعب ولكن هل يكون حرمان كل شيء على المرء الشريف جزءا من جاسوسيته هذا هو السؤال الذى أطرحه على الدكتور لويس عوض وأتمنى أن يكون العذاب من أجل الإسلام والوطن العربى أفضل فى رأيه من جنيه واحد فى الشهر يتلقاه الأفغانى من بريطانيا العظمى .

الأفغانى والإسلام

الدكتور عبد المنعم إسماعيل

جامعة عين شمس

يبدو أن الدور الذى قام به « حكيم الشرق » السيد جمال الدين الأفغانى فى مواجهة الهجمة الاستعمارية الشرسة التى بلغت مداها فى القرن الماضى قد أضاف إلى أعدائه السياسيين أعداء من نوعيات أخرى وبعد أن كنا نقرأ فى بعض المراجع الأجنبية الإنجليزية بالذات تلميحات تستهدف النيل من مكانته الدينية وإشارات إلى شخصيته الغامضة المحيرة ، ظهرت فى الآونة الأخيرة محاولات أكثر مكرا هدفها النيل من قادة البعث الإسلامى ، وقديما قال شاعر عربى :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

إن الكتب والمقالات التى نشرت بالعربية ولغات أجنبية عدة عن حياة جمال الدين الأفغانى قد كشفت عن الدور القيادى المؤثر الذى قام به فى مرحلة من أخطر المراحل فى تاريخ العالم الإسلامى ، حتى لقد أجمع المخلصون بما فيهم كتاب غربيون بارزون على أن الرجل هو أول من نبه بتصميم إلى خطورة التحدى التاريخى بين الإسلام والغرب .

وربما تكون هناك ضرورة علمية للتحقق من هوية جمال الدين لما هو معروف من أن المسلمين الشيعة كان لهم دور يختلف عن دور المسلمين من رعايا الدولة العثمانية لكن هذه المسألة تعد فيما يتعلق بالقضية التى آمن بها جمال الدين وعمل من أجلها مسألة ثانوية لقد ذكرت بعض المصادر الغربية أنه ولد فى إيران وأنه درس فى النجف (المدينة الشيعية المقدسة) ولقد استنتج البعض من هذه المعلومة أن الرجل كان مستعدا لإخفاء جوانب من حياته ومعتقداته فى سبيل تحقيق أهدافه السياسية ، وقيل أيضا : إنه تحول من المذهب

الشيعى إلى المذهب السنى ، والواقع أن جمال الدين - الذى وقف إلى جانب علماء الشيعة فى إيران وشجعهم على معارضة الامتيازات التى أعطاها الشاه ناصر الدين للبريطانيين - لم يشغل نفسه مطلقا بالخلافات المذهبية - ولم يحاول التوفيق بين المذهب السنى والمذهب الشيعى بل كان يتجاهل بتصميم ما بين المذهبين من الخلافات ، وما يقال عن حرصه على تأكيد ارتباطه بالمذهب السنى حتى يرضى تلاميذه وأتباعه فى تركيا ومصر إنما هو قول لا يقدم عليه .

إن الخط الرئيسى الذى كان يسير فيه جمال الدين كان هو الخط المضاد للاستعمار الغربى الذى شرع يتسلل إلى شعوب آسيا وإفريقيا وقد أبى البعض مجرد التماس الرأى فى حقيقة بسيطة هى أن جمال الدين كان شديد الإيمان بالقوة الدينامية للإسلام .. وإنه كان يدرك أن العقيدة الإسلامية هى العامل المشترك بين الشعوب التى كان الاستعمار الغربى يتسلل إليها ويمد إليها نفوذه فى آسيا وإفريقيا ومن ثم أشاعوا ذلك الادعاء المتهافت القائل بأن جمال الدين لم يكن مهتما بالإسلام من حيث هو ، وإنما وجد فيه أداة اتصال مناسبة تتيح له الهجرة من بلد إلى بلد ، وتجعل منه عضوا مقبولا فى الجماعة الإسلامية بل إن منهم من تجاوز كل ما هو قابل للتصديق - مثل إيليا قدورى العراقى المنحدر من أصل يهودى - فزعم أن جمال الدين وتلميذه محمد عبده ليسا من المسلمين السلفيين .

كأن المطلوب من البسطاء إذن أن يعلموا أن السيد جمال الدين الأفغانى ، النجم اللامع فى تاريخ حركات البعث الإسلامى رجل مضلل فهو إيرانى لا أفغانى ، وشيعى اثنا عشرى لا سنى سلفى ، وبعد هذا لا تكون هناك صعوبة فى إلصاق أحط التهم برجل كذب على المسلمين وأخفى هويته الحقيقية ، والأهم من هذا أن يتسلل إلى عقول المسلمين من غير الشيعة أن جمال الدين دسيسة شيعى متأثر بالبابية ولا يستبعد أن يكون بهائيا فالبهائية الملحدة فرع من البابية على أى حال وهذا الكلام ليس مجرد استنتاج من عندى فإن كتابا ظهر فى أمريكا حديثا عن الإسلام يكاد يتعمد إشاعة البلبلة حول قادة البعث الإسلامى وفيهم جمال الدين الأفغانى .

ربما تكون الحملة المسعورة التى تحاول النيل منه جزءا من حملة أكبر أرجو ألا تخفى دوافعها على إنسان .

وما دام الأمر كذلك فإننا نبادر فنؤكد أنه لو صح أن جمال الدين الأفغانى إيرانى شيعى اثنا عشرى فإن هذا لا يقلل من قدره فالعداء بين الإمبراطورية الصفوية التى جعلت من المذهب الشيعى المذهب الرسمى لإيران وبين الإمبراطورية العثمانية السنية لم يكن عداء مذهبيا بل عداء سياسى هدفه توسع الصفويين على حساب جيرانهم من رعايا الإمبراطورية العثمانية ، وأتباع المذهب الشيعى الاثنى عشرى كانوا دائما بمعزل عن الخلافات المذهبية التى كانت ميليشيات الفرق الإسماعيلية تثيرها بين الحين والحين .. ولقد كان الإسلام هو الطابع العام المميز للعلاقة بين الشيعة والسنة كما كان انتقال الأفكار بين الطرفين أمرا مألوفا . على عكس ما نراه الآن من صراع دموى بين بعض المذاهب المسيحية فى إيرلندة .

وجمال الدين الأفغانى لم يمزق العرف الذى كان سائدا فى عصره عندما وصف نفسه بالأفغانى ، فالمعروف أنه استقر بالأراضى الأفغانية فى منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر ، وأنه عمل كبيرا للمستشارين بها وشارك فى رسم سياستها ، وكانت بلاد الأفغان قد وقعت فى أثرة النفوذ البريطانى فعمل جمال الدين على تشجيع الحاكم على مقاومة البريطانيين إيمانا منه بأن دار الإسلام كل لا يتجزأ وكان هذا هو سبب إبعاده من أفغانستان بعد نجاح المؤامرة التى دبرت لها بريطانيا بالتعاون مع المطالب بعرش أفغانستان ، وعلى أية حال فإنه لم يكن من الممكن أن يكون جمال الدين نموذجا مكررا لعلماء الشيعة فى عصره .

وأن فكرة الوفاء وولاءه الشديد للأمة الإسلامية ساعداه على الانطلاق بعيدا عن التصورات الفلسفية والباطنية للمذهب الشيعى وأن يكتفى بما كان يروج له بعض الشيعة فى عصره من أن غياب الإمام الثانى عشر لا يحول دون ظهور رجل مؤمن إيمانا حقيقيا يهدى الناس إلى ما يحقق لهم الخير فى الدنيا والآخرة ، ومن المؤكد أن جمال الدين كان يعتمد على أن ظهور هذا المرشد وتقدمه لأداء

رسالته ضرورة تحتمها المواجهة الحتمية بين الغرب من جهة والعالم الإسلامى بوصفه وحدة ديناميكية قوية من جهة أخرى .

ومن هذا المنطلق تحمس جمال الدين لما كان يطالب به السلطان عبد الحميد من أن تكون عاصمة الدولة العثمانية مركزا للخلافة الإسلامية التى ينضوى تحت لوائها جميع المسلمين فى العالم وأن يكون السلطان خليفة المسلمين يدين له كل المسلمين بالولاء والطاعة . ومن هذا المنطلق أيضا كان جمال الدين يستخدم كلمتى الإسلام والغرب بطريقة تؤكد علاقة التحدى المتبادلة بينهما وتظهر أن هذا التحدى ظاهرة تاريخية حتمية .

وهناك شبه إجماع على أن جمال الدين واحد من الدعاة العظام الذين آمنوا إيمانا راسخا بالوحدة الإسلامية حتى لقد كرس حياته للعمل الدائب فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية . ولقد انعكس هذا الإيمان على حياته الخاصة وفكره ومواقفه وكتاباته بل إنه يمكن القول إن تأثيره على الحركات اللاحقة التى استهدفت تحقيق البعث الإسلامى من خلال التعريف بالقوى الكامنة فى الأخوة الإسلامية كان عظيما .

أما ما يشاع خطأً عن غموض شخصيته فربما يكون مرده إلى الميادين الكثيرة التى عمل فيها والأساليب المختلفة التى اتبعها للوصول إلى هدفه العظيم لقد كان يبدو فى بعض الأحيان وكأنه المدافع الأخير عن قلعة الإسلام وأن العناية الإلهية قد وكلت إليه تنظيم المقاومة لوقف تدفق المدنية الغربية التى تهدد بإغراق دار الإسلام القديمة والقضاء عليها ، وفى أحيان أخرى كان يبدو وكأنه من غلاة المتحمسين لهذه المدنية .. والتحليل المحايد لمواقف جمال الدين الأفغانى يؤكد أنه لم يكن ثمة تعارض أو تنافس بين هذه المواقف فالرجل كان من أشد أنصار التجديد وكان يسعى جاهدا إلى اكتشاف منابع القوة فى الحضارة الغربية وكان لا يفتأ يدعو تلاميذه ومريديه إلى اكتشاف منابع القوة فى الحضارة الغربية وكان لا يفتأ يدعو تلاميذه ومريديه إلى ضرورة المحافظة على حضارتهم الإسلامية الخاصة بالتعليم من النمط الحضارى الغربى .

ومن المؤكد أن إلحاحه المستمر على هذه الفكرة الأخيرة قد جعل البعض

يستنتجون أنه مجرد رجل تشرب المبادئ الغربية غير الدينية وأنه لم يكن عالما مسلما بالمعنى التقليدى الشائع فى عصره وإنما داعية سياسى اتخذ من الإسلام أداة لتحقيق ما كان يسعى إلى تحقيقه من إصلاحات سياسية واجتماعية .

الأفغانى والسياسة فى العقيدة (المقال الثانى للدكتور عبد المنعم إسماعيل) :

رأينا أمس كيف استنتج البعض أن الأفغانى تشرب الفكر الغربى غير الدينى ، وأنه لم يكن مسلما بالمعنى التقليدى لعصره ، وإنما داعية سياسى اتخذ من الإسلام أداة لتحقيق ما كان فى مسيس الحاجة إلى تحقيقه .

واليوم .. نقف ، أكثر ، عند أصحاب هذا الاستنتاج وما يتفرع من ذلك الجدل بالنسبة لشخصية الأفغانى بين العقيدة والسياسة .

ويستند أصحاب هذا الاستنتاج إلى ماهو معروف من أن جمال الدين كان شديد التحمس للفكر العلمى وأنه خاطر بمكانته الدينية فى موقفين الأول فى عام ١٨٧٠ حين دعى إلى إلقاء محاضرة فى حفل افتتاح إحدى الجامعات فى إسطنبول ومع أنه كان يعلم أن علماء الدين كانوا بسبيل تنظيم حملة ضد الجامعة الجديدة ومديرها فإنه أصر على أن يدعو « الملة الإسلامية » لدراسة جميع فروع العلم . وأن تحذو حذو الشعوب الغربية المتمدنة وفى العام نفسه ألقى محاضرة أخرى عن أهمية الفلسفة مع علمه بتحفظات علماء السنة على هذا الموضوع من فروع البحث .

الموقف الآخر يتمثل فيما استخلصه البعض من الرسائل التى كان يتبادلها إبان وجوده فى فرنسا مع المفكر الفرنسى أرنست رينان صاحب الادعاء المشهور بأن الجنس السامى عموما يفتقر إلى الخيال الإبداعى والمعروف أن جمال الدين وقع فى الفخ الذى أعد له فاضطر إلى التسليم بأن جميع الأديان تعوق التقدم العلمى بما تفرضه من مسلمات ، وكان جمال الدين يعتقد أنه يقدم الدليل على أن الإسلام مثل كل الديانات السماوية الأخرى وأن العرب من حيث هم جنس ليسوا وحدهم الملومين وأن من العدل أن يوجه اللوم إلى غيرهم بدل أن يوجه إليهم بشكل خاص .

وربما يكون من الضرورى أن نذكر بما أوردناه أيضا من أن اضطرار جمال الدين إلى أن يحارب فى أكثر من جهة أجبره فى أحيان كثيرة على أن يعدل خططه وأن يستخدم السلاح الأكثر فعالية من غيره فى كل معركة يخوضها وهذا ما جعل البعض يتصورون خطأ أنه متناقض مع نفسه من ذلك مثلا مقالاته التى نشرها فى الهند إبان إقامته بها والتى أكد فيها ضرورة وحدة الهند فى مواجهة النفوذ البريطانى وفى هذا تخلى مؤقتا عن القضية الأساسية المتعلقة بالوحدة الإسلامية الشاملة وراح يؤكد أهمية وحدة اللغة حتى لقد عدها أقوى فى مجال الوحدة الوطنية من وحدة الدين .

وأن هذا لا يعنى بالضرورة أن جمال الدين تخلى عن دعواه الأصلية المتمثلة فى إيمانه بأن القوة الدينامية للإسلام هى وحدها القادرة على تغير الواقع المتردى للعالم الإسلامى ولقد استغل أعداؤه أسلوبه الخاص فى الدفاع عن القضية الإسلامية ومنابع القوة فيها فأشاعوا أنه لم يكن مهتما بالإسلام قدر اهتمامه بالتغير الاجتماعى أو أن الأمور الدنيوية شغلته أكثر من الأمور الدينية ولسنا فى حاجة إلى تبيان هذه الدعوى بطبيعة الحال .

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن هذا الأسلوب المتهافت من أساليب المحاجة كان أحد الأسباب التى أدت بجمال الدين إلى أن يحرص فى أخريات حياته على الالتزام بدور العالم الدينى التقليدى وفى هذه الفترة ظهر كتابه الذى خصصه لتفنيد دعاوى الماديين وهو كتاب كان جمال الدين قد كتبه بالفارسية وظهرت طبعته الأولى فى الهند عام ١٨٨١ ثم أعاد جمع أجزائه التى تتناول العقلانيين الغربيين من ديمقريطس حتى داروين ، وعندما نقل هذا الكتاب إلى العربية حقق انتشارا واسعا فى العالم العربى وبذلك بطلت كل الدعاوى التى استهدفت النيل مما كان لجمال الدين من كعب راسخة فى مجال العلوم الدينية .

ونلاحظ أن الكثيرين ممن اهتموا بالكتابة عن السيد جمال الدين الأفغانى لا يزالون يثيرون جدالا لا مبرر له أصلا حول مسألتين الأولى هل هو شيعى أم سنى ؟ والأخرى هل هو إيرانى أم أفغانى ؟ ونبادر فنقول إن القضية التى نذر لها جمال الدين نفسه ، وهى الوحدة الإسلامية الجامعة من شأنها أن تستبعد

مجرد التفكير فى هاتين المسألتين بل لا نبالغ إذا قلنا إن جمال الدين نفسه كان أحرص الناس على تنقية الإسلام من الانحرافات الشيعية الكثيرة ، وإنه كان يؤمن بأن هناك إسلاما واحدا وقلة إسلامية واحدة دستورها القرآن والسنة ، كما كان يؤمن بأن دار الإسلام كلها من مشرقها إلى مغربها ومن شمالها إلى جنوبها مهددة من قبل الغرب ، وإن التهديد لا يقتصر على مذهب دون الآخر أو على هذا الجزء من العالم الإسلامى دون بقية الأجزاء .

وبعد فإن الباحث يجد نفسه مضطرًا فى النهاية إلى الإدلاء ببعض الاستنتاجات التى يعتقد أنه يمكن الاطمئنان إليها أكثر من غيرها ومن الاستنتاجات التى يطمئن الباحث إلى سلامتها : ١ – أن جمال الدين الأفغانى نموذج متميز من نماذج متعددة فى مجموعها قوة رد الفعل الإسلامى تجاه امتداد النفوذ الغربى إلى دول إسلامية كثيرة فى محاولة لتخريب ثقافتها وسلب مواردها الاقتصادية ، والنموذج الذى يمثله جمال الدين هو العمل على استنفار المسلمين ودعوتهم إلى التحصن بقلعة الإسلام القديمة فى الشرق الأوسط والأخذ بعوامل القوة جميعها بما فيها العلوم الغربية . ٢ – أن جمال الدين الأفغانى داعية نشط إلى إدماج الفكر العلمى فى الفكر الدينى وهو لهذا يستخدم أساليب الدعاة التقليديين ومعجمهم اللغوى سعيًا لتضييق الهوة وإيجاد مجتمع إسلامى عصرى يقوى على التصدى للتحديات الغربية بكل أنواعها .

والملاحظ أن جمال الدين لم ينطلق فى دعوته الإسلامية من منطلق نظرى بحت فقد ساعدته إقامته فى الهند أثناء عصيان ١٨٥٧م على إدراك النوايا الحقيقة لبريطانيا لقد كان لمسلمى الهند دور ظاهر فى هذا العصيان ونتيجة لهذا تعرضوا لصنوف من البطش والإقصاء عن مواقع السلطة والتمييز العنصرى وغير ذلك من الدسائس التى عرفنا جانبا منها عندما وقعت مصر تحت الاحتلال البريطانى .

لقد رفض الأفغانى أى نوع من المصالحة مع الاستعمار وأعوانه فبينما اكتفى بعض القادة المسلمين فى الهند بمحاولة إقناع البريطانيين بأن شكوكهم فى الإسلام تقوم على غير أساس كان رد الفعل لدى جمال الدين مخالفا تماما فقد سعى إلى توسيع دائرة المقاومة فى الهند نفسها حيث عمل على تجاوز الخلافات الدينية وفى خارج الهند من خلال رحلاته إلى الدول الإسلامية الأخرى التى استهدفت إيجاد رد فعل إسلامى جماعى ضد بريطانيا بالدرجة الأولى لاعتقاده بأنها عامل التهديد الأشد خطورة فى زمانه وفى هذا يقول باحث غربى وهو إدورد مورتيمر EDWARD MORTIMER .

لقد اختار جمال الدين أن يركز على البعد الإسلامى دون البعد القومى وهذا يجعل من غير المحتمل أن تكون القومية الأوربية هى المؤثر الأول على فكره .. وهذا يقترح علينا أن يكون الإسلام نفسه هو الذى مد الأفغانى بالإطار الفكرى الذى شكل رد الفعل لديه ضد التسلل الأجنبى وعلى الرغم من كل ما يقال عن معتقدات الأفغانى فإنه كان مسلما سلفيا أى أنه كان نتاجا للثقافة الإسلامية وبطلا من أبطالها ويمتاز هذا الصنف من الرجال عادة بذكاء فريد وسعة الأفق .

إن الأفغانى كان سابقا لعصره بيد أن النموذج الذى يمثله يرينا أن الثقافة الإسلامية قادرة على مقاومة الغزو الأجنبى بطريقتها الخاصة ولئن كان من غير الممكن تجاهل الآثار المترتبة على الصدام بالغرب فإن الثقافة الإسلامية لا يمكن ببساطة أن تستسلم للتأثير الغربى .

إن التاريخ الإسلامى استطاع أن يتطور دائما إنه لا يتوقف أبدا .

التفسير الشخصى للتاريخ

الدكتور يونان لبيب رزق

أستاذ التاريخ الحديث - جامعة عين شمس

الدراسة التى وضعها الأستاذ الكبير لويس عوض عن جمال الدين الأفغانى تحت عنوان (الإيرانى الغامض فى مصر) فأقامت الدنيا و لم تقعدها بعد . تتطلب وقفة خاصة من المشتغلين بالكتابة التاريخية .

وأهم ما فى هذه الوقفة متصل بالفروق الجوهرية ، والمنهجية فى نفس الوقت ، بين « التناول العلمى » ، و « التناول الفنى » لحادثة أو لشخصية تاريخية فبينما يغلب على نوعية الأولى التعامل بالأساس مع مجموع الحقائق التاريخية واستنباط النتائج العامة ، ويراعى فى كل ذلك روح العصر وطبيعة الأدوات المستخدمة فى التوصل لهذه الحقائق ، فإن النوعية الثانية من التناول تقدم صورة فنية قد تولد فى مخيلة صاحبها أولا .. والذى يبحث بعد ذلك عن الحقائق التى تدعم هذه الصورة وتضع رتوشها حتى تبدو وكأنها الواقع التاريخى !!

وتقع دراسة الأستاذ الدكتور لويس عوض عن الأفغانى ، بل سائر دراساته الأخرى التى تناول فيها قضايا هامة فى التاريخ المصرى .. فى التصنيف الثانى .. أى إنها صورة يرسمها فنان بغض النظر عما فيها من حقيقة ، أكثر منها التزاما من مؤرخ لا يجد محيصا عن التمسك بكل الحقيقة .

والفنان داخل الدكتور لويس عوض هو الذى قاده إلى سلسلة من التجاهلات لحقائق والتمسك بحقائق أخرى مما فجر فى النهاية هذه المناقشات المحتدمة حول دراسته .

فالفنان عند الدكتور عوض هو الذى دفعه إلى تغليب (التفسير الشخصى) لمجموع الأحداث التاريخية التى صنعت مسيرة (جمال الأفغانى)

فهو يهتم كثيرا (بالماضى المريب) للرجل ، وهو يعنى بطفولته ويراه طفلا غير عادى يتصور نفسه ملك الدنيا أو ربما خليفة المسلمين وهو يعتمد فى هذا على خيالات طفل يقول : (إن أمه تنتظر منه أن يحقق وعده لها أن يجعلها حاكمة على خراسان) .

والتفسير الشخصى أقرب إلى روح الفنان منه إلى موضوعية المؤرخ بحكم ما يحوط بهذا التفسير من تفاصيل صغيرة ، بعضها مثير ، ومن طرح الألغاز والأسرار على نحو مبهر حقا ولكنه فى نفس الوقت يفتقد الحقيقة !!

ويؤثر هذا التفسير فى دراسة (الإيرانى الغامض) إلى حد يخرج معه القارىء بانطباع مؤداه أن (عالم الجاسوسية يصنع التاريخ) وهو انطباع خاطىء على وجه اليقين .

والفنان عند الدكتور عوض هو الذى يمنحه كل هذه الجرأة فى إصدار الأحكام ، فلا تكاد فقرة من فقرات الدراسة تخلو من إصدار حكم أو أكثر مما منحها طابعها اللاذع ، وإن كان فى نفس الوقت ، من وجهة النظر العلمية ، قد أفقدها دقتها الواجبة فمثلا يقطع بأن الأفغانى كان (أول من أدخل فكرة الاغتيال السياسى فى قاموس السياسة المصرية) ، وتناسى سليمان الحلبى قبل ذلك بثلاثة أرباع القرن ، ومثلا يتحدث عن ركوب الأفغانى للموجة فى قضية (تأسيس الحزب الوطنى الحر) والحقيقة أنه لم يكن هناك حزب بالمعنى الدقيق للأحزاب بقدر ما كان هناك تيار يمثل مجموع المواطنين ، وأمور أخرى على هذه الشاكلة .

والفنان عند الدكتور عوض هو الذى دفعه إلى تأويل تصرفات أو أقوال المعاصرين أو الأفغانى نفسه ، على نحو يلائم رؤياه الفنية فهو مثلا يعيب على جمال الدين تغيير مواقفه ، ودراسة حياة أى سياسى ناهيك عن أن يكون ثوريا ، تتسم بتغير المواقف تبعا للمقتضى الظرفى والفارق كبير بين التغيير والتغلب !!

باختصار فإن المنهج التاريخى كان يقتضى إبراز العنصر الأساسى المؤثر فى حركة عالم الأفغانى ممثلا فى (الهجمة الإمبريالية) التى تعرض لها المشرق والعالم الإسلامى فى تلك الحقبة بالذات ، حقبة الثلث الأخير من القرن التاسع

عشر ، وهى هجمة حكمت تصرفات حكام وساسة وثوريى الحقبة ، وبالتالى فإن إبرازها كان يمكن أن يفسر كثيرا من تصرفات الأفغانى ..

والمنهج التاريخى كان يتطلب التأكيد على ذلك الصراع الذى شهده عصر الأفغانى بين (عالم قديم) بكل مؤسساته أثبت عجزا بالغا فى مواجهة تفاقم الأطماع الأوروبية ، وبين قوى جديدة ساعية إلى تحطيم تلك المؤسسات العاجزة وبناء عالم جديد متوائم مع روح العصر وكان الأفغانى ممثلا أمينا لتلك القوى خاصة فى عدائه الشديد للمؤسسات القديمة وسعيه الدائب فى القضاء عليها .

والمنهج التاريخى كان يحتم (تمثل العصر) فلا تصدر أحكام على قضايا قديمة على ضوء المتغيرات الحديثة . فتصيد عبارة فى خطبة الأفغانى فى استانبول والخروج منها بأن الخطبة (تفيض بالملق للسلطان العثمانى ورجال دولته) كان يمكن أن يتداعى تماما لو تم الاطلاع على وثائق ذلك العصر التى كان يحوى بعضها سطورا من ألفاظ التفخيم والتبجيل للسلطان العثمانى أكثر من تلك المخصصة لفحوى الوثيقة .. والحديث فى موقع آخر عن علاقة بين أجهزة الأمن المصرية والمخابرات الإنجليزية والفرنسية يتطلب القفز نحو قرن من الزمان وهكذا ..

ومن خلال ذلك يتضح أن قضية دراسة (جمال الدين الأفغانى) هى قبل أى شىء قضية خلاف فى المنهج بين التناول الفنى للتاريخ الذى يعتمد فى الكثير على الخيال وفى القليل على الحقائق العلمية والتناول العلمى الذى يلتزم فى بنائه بالأساس بمجموع الحقائق التاريخية المتاحة .

الأفغانى والاحتلال الإنجليزى

الدكتور أحمد حسين الصاوى

القارئ المتأنى لما كتب الدكتور عوض – وهو كثير غزير – لا يلبث أن يدرك بوضوح أن له موقفا ثابتا محددا من كل ما يتصل بالإسلام أو العروبة ، وأنه لا يمل من التعبير عن موقفه هذا بالتصريح والتلميح ، وبالعبارات والسطور وما بين العبارات والسطور .

والحق أن بعض ما يكتبه الدكتور عوض فى هذا الصدد جدير بكل تقدير . لما يلفت النظر إليه من قضايا وموضوعات تستحق العرض والمناقشة غير أن الكثير مما يكتبه يبدو فى ظاهره منطقيا منهجيا جدليا .. بينما هو فى حقيقته شديد التهافت بعيد الشطط .

إن إصرار الدكتور عوض على ذلك الموقف الشخصى المتحيز يدفعه فى كثير من الأحيان إلى افتعال التدليل والمبالغة فى التخريج من أضعف المصادر وأوهى الشواهد ، لكى يصل إلى ما يريد إثباته من مقولات واستنتاجات .

ولقد فعل الدكتور هذا فى أبرز مادون من كتب ومقالات وما ألقى من محاضرات ، فعله فى كتابه « تاريخ الفكر المصرى الحديث » جزءان ، وفى كثير من مقالاته بصحيفة « الأهرام » وفى محاضراته بالولايات المتحدة وفى كتابه « مقدمة فى فقه اللغة العربية » الذى منع من التداول ثم أخيرا فى سلسلة مقالاته عن جمال الدين الأفغانى .

والحق أن الدكتور لويس عوض كاتب جرىء شديد الإصرار على موقفه فبالرغم من أن آراءه المتطرفة المتعسفة لا تلقى من المثقفين غير الرفض والتفنيد ، فإنه مستمر فى ترديدها ماض فى تكرار التعبير عنها بمختلف الصور وبشتى التنويعات لا يكل ولا يقنط مهما واجه من رفض أو اعتراض ، ومهما انحدر إليه من مزالق وترهات .

غير أنى أعتقد أن ما اتسم به « البحث الجرىء » . الذى كتبه الدكتور عوض مؤخرا عن الأفغانى من شطط وجنوح قد جاوز كل حد معقول .

إن من لغو القول ومن العبث بالحقائق الذى لا قيمة له ولا جدوى من ورائه محاولة إثبات أن جمال الدين إيرانى لا أفغانى ، وإنه شيعى لا سنى ، وإنه ولد بمدينة كذا ... إلخ .

ولكن من التجنى حقا أن يحاول كاتب – أيا ما كانت مكانته – أن ينال من قدر الداعية المصلح الثائر جمال الدين الأفغانى ، أو أن يحاول المساس بعظمته أو التشكيك فى نقاء فكره وسلامة عقيدته .

ولاشك أنه من العسير ، بل من المستحيل أن يتحدث المرء فى عجالة كهذه عن الأفغانى ، ولكن تكفى الإشارة الموجزة إلى أن الأفغانى كان من أعظم شخصيات العالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر ، نادى بتحرير الشعوب الإسلامية ، والشرقية بوجه عام، من ربقة الاستعمار وكان لدعوته أعمق الأثر فى إيقاظ هذه الشعوب وفيما أقام به من حركات وطنية .

وكان الأفغانى كذلك صاحب مدرسة كبرى فى تجديد الفكر الإسلامى وتنقيته مما علق به من أباطيل الوهم ، وفى تأكيد حقيقة الإسلام من أنه دين العقيدة القائمة على أساس الاقتناع العقلى ، ودين العزة والقوة ، ودين الكمال الإنسانى والتقدم الحضارى .

لقد أقام الأفغانى بمصر بضع سنوات كان خلالها من أبرز العوامل التى أدت إلى بلوره رأى عام مصرى كان له أبعد الأثر فى حياة البلاد وكان من أهم وسائل الأفغانى لنشر دعوته تشجيع تلاميذه على إنشاء الصحف ومن ثم ظهرت أولى الصحف المصرية الشعبية « غير الحكومية » على أيدى هؤلاء التلاميذ من أمثال عبد الله النديم وأديب إسحق وسليم النقاش وإبراهيم اللقانى ، ويكفى الباحث أن يطالع ما كتبه أولئك الشباب فى صحف مثل « مصر » و « التجارة » و « التنكيت والتبكيت » بل ما كتبه الأفغانى نفسه فى بعض هذه الصحف بتوقيعه المستعار « مظهر بن وضاح » ليعرف أى رجل كان الأفغانى وأية دعوة كانت دعوته .

وأصدر الأفغانى فى باريس مع تلميذه محمد عبده صحيفة « العروة الوثقى » عام ١٨٨٤م ، أى بعد نفى الرجلين من مصر واحتلال الإنجليز للبلاد . ولكن لم يصدر منها سوى ثمانية عشر عددا ، ثم توقفت عن الصدور بسبب الحرب الضارية التى شنتها عليها الحكومة البريطانية فى كل مكان ، وإنى لأتساءل ألم يقرأ الدكتور لويس عوض ما كتبه الأفغانى ومحمد عبده فى هذه الصحيفة ، وهو « منشور فى أكثر من كتاب » ؟ ألم يقرأ ما كتبه الباحثون الغربيون .. قبل العرب .. عن مضمون مادة الصحيفة وأثره ودلالاته على فكر الأفغانى ومدرسته ، وعن موقف الأفغانى من الاستعمار البريطانى بالذات ؟ إن الأفغانى لو لم يكتب عن الإنجليز سوى ما صدر بهذه الصحيفة المثالية المناضلة لكفى بذلك دليلا على موقفه المعادى الصلب من الاستعمار البريطانى دون أية شبهة أو شك ، فكيف يسوغ القول بعد هذا بأن الأفغانى كان عميلا للإنجليز ؟؟

ألا فلنتق الله فى روادنا . وفى القمم التى أضاءت بنورها حياتنا وقادت نضالنا .. وعلمتنا كيف نكافح فى سبيل حريتنا ، ووقفت فى وجه كل مستعمر وغاصب .. وردت بقوة واقتدار على كل محاولة لتشوية ديننا وتراثنا .

كان الأفغانى مسلما

الدكتورة صافيناز كاظم

لا شيء أقوى من الدلالة عن الإنسان إلا قوله وعمله وإذ ما اتحد القول مع العمل وأصبحا متطابقين فى المعنى والموقف ، اتضحت الشخصية وضوحا كاملا وإن أكثر ما يأخذه الناس على الشخصية الغامضة أو المنافقة أو الجبانة ، أن أقوالها تتناقض مع أفعالها فهناك شخصية كذوب تأمر بالبر وتأتى بعكسه ، وهناك شخصية تتوعد وتهدد ثم تهدأ وتسكن ولا تنفذ من وعيدها حرفا . ولقد عج التاريخ البشرى بزعماء وخطباء ومفكرين وكتاب يقيمون الدنيا ويقعدونها على المنابر وعلى الورق ويشهد حالهم اليومى انفصالهم الكلى عن كلماتهم وأفكارهم ومعتقداتهم ولذلك كان الذى تتوافق أقواله مع أعماله شخصا لافتا للنظر يجبر أعداءه قبل أصدقائه على احترامه .

ولقد كرمنا الله – نحن المسلمين – بأن أعطانا فى تاريخنا الإسلامى فى الماضى البعيد والماضى القريب والحاضر شخصيات شريفة فذة تقف أمامنا ، قدوة ، شامخة يتمثل فيها كبرياؤنا القومى كما يجب أن يكون ، وكانت أهم صفات هذه القدوة التوافق الصارم بين القول والفعل أسوة برسولنا المفدى الذى أدان بالمبدأ القرآنى الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، والذين قال فيهم حديثه الشريف محذرا الأمة – أى أمة الإسلام –: « أخوف ما أخاف على أمتى من منافق عليم اللسان يقول ما تحبون ويعمل ما تنكرون » وبهذا التوجيه القرآنى والنبوى عرفنا – نحن المسلمين – النموذج القدوة فى « أبى بكر الصديق » و « عمر بن الخطاب » و « على بن أبى طالب » الذين كانوا يبكون الليل استغفارا خشية أن يكونوا بأفعالهم قد خانوا الكلمة أو أهملوها .

على نسق هؤلاء الخلفاء الراشدين والأئمة العظام ، حملة الأمانة بعد نبينا المفدى ، عرفت نهضتنا الإسلامية الحديثة – التى تولدت مع نهاية القرن التاسع

عشر ومطلع القرن العشرين لتتصدى للهجمة العلمانية التغريبية الشرسة التى أرادت أن تسرق الأمة الإسلامية من نفسها – عرفت رجالا علماء دين وقادة عسكريين وزعماء وطنيين فرضوا أسماءهم بأقوالهم وأفعالهم الصادقة رغم حصار الأعداء الذين تعمدوا إخفاء وتشويه هذه الأسماء لكننا – جيلا بعد جيل – تلقيناهم وحفرناهم فى أذهاننا : جمال الدين الأفغانى ، محمد عبده ، أحمد عرابى ، محمد فريد ، مصطفى كامل ، حسن البنا ، سيد قطب .. إلى آخر قائمة من ساروا على طريق دين الله من أمثالهم ، كانت هذه الأسماء سندا ودعما نتقوى بها لحظات كانت الأرض تميد بنا وأحلامنا تتهاوى فى قسوة والطغاة يمنون علينا أن جعلونا عبيدا خرسا كالبجع المسعور .

من بين هؤلاء أتناول زعيمنا الجليل السيد جمال الدين الأفغانى الذى كانوا يتقذرون عليه لأنه كان على كثرة أسفاره لم يحمل حقيبة بل كان يقول : « ألبس جبتى حتى تبلى فأشترى غيرها .. » والذى رفض الزواج حتى لا يظلم امرأته بفدائيته وزهده وحركته الدؤوب فى استنهاض الشعوب الإسلامية من سباتها وهوانها ، والذى كان ينفر من الإدلاء ببيانات شخصية عن تاريخ ومحل ميلاده لأنه كان يراها هوامش لا تقدم ولا تؤخر فى حقيقته الأولى والأخيرة التى تعنيه وهى « هويته الإسلامية » وكان يرفض بقوة التفكك الإسلامى لحساب العودة إلى العصبية القومية أو الجنسية أو العرقية ، وقد كان يرى أن أى تمزق أو تعارض فى ضمير المسلم بين عقيدته الإسلامية وانتمائه القومى يجب أن يحسم فورا للعقيدة الإسلامية .. وهكذا وقف يدعو الأفغانيين والإيرانيين إلى الوحدة وترك الخلافات المزعومة بينهم مؤكدا أن الأفغانيين والإيرانيين ، هاتان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة ، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسى القديم ، وقد زادهما ارتباطا اجتماعهما فى الديانة الحقة الإسلامية ، واللسان الفارسى هو لسان الطائفتين .. مذكور فى مقاله « دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان » الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ، د. محمد عمارة صفحة ٢١٦ – ٢١٩ .

وكان السيد جمال الدين لا يرى ما تراه بعض الجيوب العنصرية التى تعيش

فى الأوطان الإسلامية ، من أن هناك ما يسمى بالعقيدة القومية ، فكلمة عقيدة « لا تطلق إلا على الأديان والمعتقدات الفكرية وحيث يرى السيد جمال الدين « العقيدة » فى « قوة الدين الذى يقوم مقام الجنسية فى جمع الكلمة ، وتوحيد الوجهة وطلب الغلب بتلك القوة لمن خالفهم فيها .. » مذكور فى مقاله عصبية الجنس وعصبية الدين المرجع السابق ، صفحة ٣١٢ .

شخصية واضحة ناصعة مثل شخصية السيد جمال الدين الأفغانى لا سبيل إلى معرفتها إلا من وقائع تصرفاتها وتحركاتها الثابتة بنتائجها والتى كانت ترجمة حرفية لكتاباته المسجلة فى مجلة « العروة الوثقى » التى كان يصدرها فى باريس بعد انتكاسة الثورة العرابية سنة ١٨٨٢م ، وأقواله التى حققها العلماء والباحثون المتخصصون فى ذلك . وأهمها خاطراته التى أملاها على صديقه محمد باشا المخزومى من سنة ١٨٩٢م حتى وفاته ، رحمه الله ، فى ١٨٩٧/٣/٩م والتى كان يقول أثناءها لصديقه هذا : « إذا سلمت فى كتابة خاطراتى من خطر الطاغية ، وطواغيته فستصادف من أهل الجمود عنتا وتخرصا ، وقلبا للحقائق ، فلا تبال بهم . فما خلا الكون منهم يوما ليخلو زمنك . ولا نجا منهم مخلص لتنجو أنت .. » — مذكور فى الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى صفحة ١٧ .

نعم : ما خلا الكون منهم يوما ليخلو زماننا ، ولذلك فأنا لم أهتز غضبا من سلسلة المقالات التى كتبها د. لويس عوض عن زعيمنا الإسلامى جمال الدين الأفغانى ، رضى الله عنه ، ونشرتها مجلة التضامن التى تصدر خارج مصر ، تلك المقالات التى أثارت العديد من التعليقات واستفزت الكثير إلى ردود تراوحت ما بين التعقيب السريع والتفنيد الأكاديمى وتفضلت جريدة الأهرام بنشر جانب كبير ثرى من تلك الردود بأقلام مختلفة لأساتذة أفاضل ، لكن الطريف أننى وجدت نقطة خطأ مشتركة هى نقطة انطلاق كل من د. لويس عوض وخصومه فى الرأى فلقد بذل د. لويس عوض جهدا لإثبات أن السيد جمال الدين الأفغانى ليس أفغانيا سنيا بل إيرانيا شيعيا ، واعتبر هذه نقطة حارقة للنيل من الزعيم الإسلامى ، وخلط بهذه المناسبة بين المذهب الشيعى الإسلامى وبين البهائية التى يزعم معتنقوها بأنها دين جديد نسخ

الإسلام ، وحل محله ، والعياذ بالله - كما جاء ذلك فى كتابهم المسمى « الكواكب البدرية » فصل « مؤتمر بدشت » صفحة ٢١٦ - ٢٢٣ ، حيث تكون البهائية بذلك خارجة منفصلة عن الإسلام ومن ثم فلا علاقة لها البتة بأى من مذاهبه أيا ما تكون .

لقد وقعت بعض الردود التى ساءها الهجوم والتشويه المتعمد الذى أراده د. لويس عوض بالسيد جمال الدين ، وقعت فريسة للفخ الذى نصبه المنطلق الخاطئ ، الذى بدأ منه د. لويس ، فقد أفردت تلك الردود جانبا أساسيا من جهدها لدحض الدعوى بإيرانية الأفغانى وكأن « الإيرانية » أو « الأفغانية » - وهما جنس واحد على كل حال - كانت هى الهوية التى تحرك بها الزعيم جمال الدين ولم يشر أحد بقوة إلى لب حقيقة أن الرجل قد تحرك بالإسلام وجاهد فى سبيل الإسلام ودخل تاريخ الوطن الإسلامى كله ، من بوابة الإسلام . لقد كانت العالمية الإسلامية أو الأممية الإسلامية هى أطروحة السيد جمال الدين التى جمع حولها العقول وألف بها القلوب وشد إليها جهاد المسلمين عند مطلع القرن ، ومازال ورثة هذا الفكر إلى الآن يمثلون تيارا شعبيا غالبا فى مصر وليس صحيحا أنهم مجرد جيوب بين المصريين المعاصرين لاتزال تعانى من هذا التمزق بين العقيدة القومية والعقيدة الدينية كما يزعم د. لويس عوض فى نهاية مقاله « مصر تواجه ماضيها » الذى نشر بالمصور عدد ٩/ ٩/ ١٩٨٣م .

أيها السادة لم يكن جمال الدين إيرانيا ولا أفغانيا لكنه كان « مسلما » منحازا للسان العربى يدعو المسلمين كافة إلى « وحدة اللسان » بأخذ اللغة العربية المقدسة لتكون اللغة الأم لجميع المسلمين .

المفارقة الأخيرة أن جمال الدين الأفغانى كان عربيا ! لأنه كان واحدا من نسل رسولنا المفدى محمد صلوات الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين .

الفصل الثانى

مداولات فكرية – مساهمات علمية – مناقشات تاريخية

صحيفة الشرق الأوسط السعودية

١٨ مارس ١٩٨٩ – ٣١ مايو ١٩٨٩م

هذا اليوم فى التاريخ ٩ آذار (مارس) ١٨٩٧م
يوم وفاة جمال الدين الأفغانى

الأستاذ نجاة فتحى صفوة

فى مثل هذا اليوم قبل ٩٢ عاما ، أى فى ٩ آذار (مارس) سنة ١٨٩٧ ، توفى فى استانبول المفكر الإسلامى والمصلح السياسى والاجتماعى وفيلسوف اليقظة الشرقية جمال الدين الأفغانى .

ولد محمد بن صفدر الحسينى سنة ١٢٥٤هـ . (١٨٣٨م) ، واختلفت الروايات فى مكان ولادته ، فمنها من يقول إنها كانت فى مدينة أسعد آباد القريبة من كابل ، ومنها ما يذهب إلى أنها فى قرية أسد آباد من قرى همدان بإيران ، وحين بلغ الثانية عشرة من عمره صحب والده السيد صفدر إلى النجف وتركه فيها للدراسة فى مدارسها الدينية ، وتشير القرائن إلى أن الأفغانى قضى فى النجف بضع عشرة سنة ، باستثناء فترة سافر فيها إلى الهند ، وحج سنة ١٢٧٣هـ (١٨٥٧م) ثم عاد إلى أفغانستان فأقام فى كابل ، ودخل فى خدمة « محمد أعظم خان » أمير الأفغان ، فلما أطيح بحكمه غادر الأفغان بحجة الذهاب إلى الحج ، وذهب إلى الهند وأقام فيها ، وأخذ يبذر فيها بذور الوطنية ، فأخرجته السلطات البريطانية ، فسافر إلى الآستانة مارا بمصر .

وفى الآستانة نال حظوة الصدر الأعظم عالى باشا ، وعين عضوا فى مجلس المعارف الأعلى ، ولكنه نفى سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) ، فقصد مصر واستقر فيها مدة ثمانية أعوام كانت من أخصب سنى حياته ، نفخ فيها خلالها روح النهضة الإصلاحية فى الدين والسياسة ، وتحلق حوله فيها طائفة من المريدين حملت بعد ذلك مشعل الإصلاح والتنوير والثورة فى مصر بينهم الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ومحمود سامى البارودى والمويلحيان وسليم نقاش وأديب إسحق وآخرون .

وفى سنة ١٨٧٧ أصدر الخديوى توفيق أمرا بطرد جمال الدين من مصر لما رأى من تعاظم نفوذه ، فرحل إلى حيدر آباد وأقام فيها ثلاث سنوات ألف خلالها كتابه « الرد على الدهريين » ومنها سافر إلى باريس وأنشأ مجلة « العروة الوثقى » بالتعاون مع تلميذه وصديقه محمد عبده ، ولما توقفت عن الصدور انتقل إلى لندن ومنها قصد إيران ، واتصل بالشاه ناصر الدين ، ثم قرر الذهاب إلى روسية وأقام فى « سنت بطرسبرغ » أربع سنوات ، ودعاه الشاه ناصر الدين فسافر إلى فارس ، ولم تمض عليه فى طهران مدة قصيرة حتى بدأ النفور بينه وبين الشاه ، فلما تفاقم الأمر أمر الشاه بطرده ، وفى أوائل سنة١٨٩١ م سيق الأفغانى عن طريق كرمنشاه إلى الحدود العراقية فلقى عنتا شديدا ، وجىء به إلى بغداد حيث بقى ثلاثة شهور ، ثم سافر إلى البصرة ، ومنها إلى لندن ، فوصلها فى خريف سنة ١٨٩١م وفيها شن حملة شديدة على الشاه ناصر الدين .

وفى أواخر عام ١٨٩٢م دعاه السلطان عبد الحميد الثانى إلى الآستانة فذهب إليها ، ورجاه السلطان أن يكف عن التعرض للشاه فأطاعه ، وفى ١٠ أيار (مايو) سنة ١٨٩٦م قتل الشاه ناصر الدين وقد أطلق عليه الرصاص رجل يدعى الميرزا محمد رضا الكرمانى وهو يصرخ « خذها من يد جمال الدين » وادعت الحكومة الإيرانية أن الأفغانى هو الذى حرضه على اغتيال الشاه ، وطلبت إلى الحكومة العثمانية تسليمه ، فرفضت الأخيرة بحجة أنه أفغانى وليس فارسيا وبقى الأفغانى فى الآستانة محاطا بالرقابة الشديدة والوشايات .

وفى الآستانة ظهرت على الأفغانى أعراض مرض خطير فى فكه ، قيل إنه السرطان ، فلم يشف منه وتوفى يوم الثلاثاء ٩ آذار (مارس) سنة ١٨٩٧م (١٣١٥هـ) . فدفن فيها ، وفى سنة ١٩٤٤م نقل رفاته إلى الأفغان عن طريق بغداد حيث أقيم لذكراه احتفال كبير .

وعلى الرغم من أهمية أثر الأفغانى فى الإصلاح وإيقاظ المسلمين والشرقيين ، فإنه لا يزال من الرجال الذين يكتنف الغموض جوانب كثيرة من سيرتهم ، ولا تزال تفاصيل نشأته وأسفاره وأعماله تحتوى على بعض النواحى الخفية ، وكان تأليفه حزبا سياسيا باسم الحزب الوطنى الحر وأسفاره ومغامراته فى الهند

وفارس ولندن وباريس وسنت بطرسبرغ ، وإقامته فى هذه المدن سنوات طويلة ، ومورد معيشته خلالها ، أمور تحتاج إلى بحث كثير . وكذلك أصله ، وهل هو فارسى أم أفغانى ؟ لم يتوصل فيه البحث إلى نتيجة قاطعة ، وقد كان فى مصر وتركية يلقب نفسه ، الأفغانى ، بينما كان فى إيرن يتخذ لقب الحسينى ، ويظهر من مؤلفاته وأوراقه أنه كان يتخذ ألقابا أخرى مثل « الأسطنبولى » و « الكابلى » و « الرومى » و « الطوسى » و « الأسعد آبادى » كما كان يغير زيه ولباس رأسه كلما انتقل من بلد إلى آخر .

وقد كتب عنه الكثير ، ولكن مما يزيد فى غموض سيرة الأفغانى أن معظم الذين كتبوا عنه اتخذوا الأسلوب الخطابى المبالغ فى المديح ، ولم يلتزموا الموضوعية دائما ، ومهما يكن من أمره فلاشك فى أنه يعد بين زعماء الإصلاح فى الشرق ومن أبرز الذين رفعوا لواء الإسلام فى الخافقين .

الرجل الولوع بعظائم الأمور العزوف
عن صغائرها جمال الدين الأفغانى

الأستاذ محمد الهاشمى الحامدى

بعد محمد بن عبد الوهاب ، وسيد قطب تنتقل الشرق الأوسط لتنشر ملفها الجديد عن أبرز زعماء الإصلاح فى القرن الماضى – إن المشاركين فى هذا الحوار سيتبادلون وجهات النظر فى سيرة رجل وصفه الإمام محمد عبده بأنه رجل بصير فى الدين عارف بأحوال الأمم واسع الاطلاع جم التعارف جرىء القلب واللسان . سلامة القلب سائدة فى صفاته وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع . إلى أن يدنو منه أحد يمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب . فبينما هو حليم أواب إذا هو أسد وثاب ، وهو كريم يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر . عظيم الأمانة سهل لمن لاينه . صعب على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسى إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور عزوف عن صغائرها ، شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى إلا بنوع من الإشارة إليها .

لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة فى حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها . وله لسن فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيهما أحد إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهدا على ذلك أنه ما خاصمه أحد إلا خصمه ولا جادله عالم إلا ألزمه ، وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعدما أقر له الشرقيون ، وبالجملة فإنى لو قلت إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة وهو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

تلك شهادة رجل لا يستهان بقوله . ومع ذلك فإن الأفغانى ليس محل إجماع لدى معاصريه ولدى لاحقيه ، ولم يسلم من النقد والانتقاد يوجهه كثير من العلمانيين ولا يتورع عنه بعض الإسلاميين كما أن تجربة الأفغانى فى الإصلاح ما تزال بعيدة عن أن تكون تجربة اختبار حقيقية لدى كثير من العاملين فى الحقل الإسلامى ، كأنما هى تراث لا يعنيهم فى شىء . وكأنما تاريخ ما قبل العشرينات جدب وقفار لا يستهوى الناظرين .

من أجل ذلك بسطنا تجربة الأفغانى للحوار .. نريد أن نواصل سنة التناظر التى بدأتها الشرق الأوسط أخيرا ونرسخها ونطمع أن يسلط حوار النخبة أضواء جديدة على نجاحات الأفغانى وإخفاقاته وعلى المنهج الذى ضمن تلك النجاحات ولم يمنع حصول الإخفاقات .

نحن فى حاجة أكيدة إلى المنهج ، فبعد مائة عام من وفاة الأفغانى لاتزال الأمة تتخبط تائهة بين المسالك ، وقبل ثلاثة أيام سخر الزميل عبد الرحمن حمد الراشد فى زاويته الأسبوعية « أبيض وأسود » بـ« الشرق الأوسط » من تعليق جمودنا بل وتدهور أوضاعنا على الاستعمار ، مللنا أسطوانة الاستعمار وتعبنا من تعليق كل مشاكلنا عليه ، قليل منا يجرؤ على الاعتراف بهذا ولكنها مسألة لم تعد تحتمل الإطالة ، فلنتصفح أرقام المديونيات العربية أرقام تتزايد وتذكرنا بمبررات الاستعمار القديم الذى اتخذ من عدم قدرتنا على السداد ذريعة للدخول من أوسع البوابات العربية بحجة الرغبة فى موازنة شئون البلاد المالية ومن نسى التاريخ فعليه أن يعاود قراءته .

أجل ، هذا الملف محاولة لإعادة قراءة التاريخ ليس فقط لإثارة الحمية وحفز الهمم ، ولكن لالتماس ما قد يساعدنا على مواجهة واقعنا الراهن ، فربما نكتشف مزيدا من الحجج على أن إعراض الأمة عن عرض الأفغانى ما يزال يعوقها عن التقدم ، الإعراض عن نداءات الاتحاد . وتحرير العقل المرتكز على القرآن ، ومحاربة الجبرية والجمود والإلحاد ، والبدء بإصلاح الإرادة السياسية وتوحيدها باعتبارها مصدرا لأوجه الإصلاح الأخرى .

غير أن هذا وحده لا يكفى ، إذ ثمة سؤال آخر بالغ الأهمية ، لماذا لم ينجح

مشروع جمال الدين رغم معقوليته القصوى ولماذا لم تتصل روحه العقلانية المتفتحة فى كثير مما لحقه من مشاريع الحركات الإصلاحية الإسلامية ؟ ينبغى أن نعرف السبب حتى لا نكرر الهتاف فى القفار ومناداة الأموات وحتى نتسرع فى مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين ، فمن المؤلم أن المرء ما يكاد يجد مؤشرا واحدا على أننا نهتم بتقلبات الزمن وتنوع ابتلاءاته الحادثة الطارئة .

ما يزال الأمل يسكن قلوبنا ، وينبغى أن يستوطنها دائما لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولكن من الواجب ألا نكف عن التفكير والحوار فى مشروع التجديد والنهضة الذى بدأه ابن عبد الوهاب وكرس له الأفغانى حياته بالإضافة إلى رجال آخرين سنتعرض لتجاربهم فى ملفات قادمة .

إن قصة الأفغانى مفعمة بالأمل من هذه الزاوية إن آثار أقدامه وغبار ثوراته وصدى أفكاره فى بلاد الإسلام الواسعة لا يزال يشهد لشرف الإنسان عندما يخلص الروح والقلب لفكرة التوحيد .. كما أن أحزانه الممتدة فى ذلك الزمن من كابول إلى طهران إلى الهند والقاهرة وباريس واسطنبول تشهد دائما للوحدة ولمشروع العالمية الإسلامية الثانية الذى يبشر به محمد أبو القاسم حاج حمد من شمال السودان .

هذا ملف جديد لـ « الشرق الأوسط » يقوم على التناظر والسجال ويراد له أن يكون وقفة احترام وإحياء لذكرى شخصية إسلامية بعد مرور زهاء قرن على وفاته .

* * *

نقول للمسلمين أن لا يقنطوا
جمال الدين الأفغانى

عجبا كيف تتبدل أحكام الجبلة وكيف يمحى أثر الفطرة ؟ وكيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة ؟ وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل ؟ والأمل وحب الكرامة طبيعيان فى الإنسان . بعد إمعان النظر نجد السبب فى ذلك ظن الإنسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وأن قوته هى سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر ، فإذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول لمطلبه رجع إلى قدرته فوجدها فانية ، وقوته فرآها واهنة ، فيعترف بوهنه ، ويسكن إلى عجزه فييأس ويقنط ، ويذل ويسفل اعتقادا منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التى تعاصت على قدرته .

ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل إلى العمل لاستحالة قهر المانع فيقطع الأمل فيقع فى الشقاء الأبدى ، أما لو أيقن أن لهذا الكون مدبرا عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى . وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء ، لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتغتال آماله غائلة القنوط ، فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته لا يفوته النظر إلى قوة الله التى هى أعلى من كل قوة ، فيركن إليها فى أعماله ولا يجد اليأس إلى نفسه طريقا . فكلما تعاظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثا فى مدافعتها معتمدا على أن قدرة الله أعظم منها .

وكلما أغلق فى وجهه باب فتحت له من الركون إلى الله أبواب فلا يمل ولا يكل ، ولا تدركه السآمة ، لاعتقاده أن فى قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ، ويلقى قيادهم إلى الأذلاء ، وأن يدك الجبال ، ويشق البحار ، ويمكن

الضعفاء من نواصى الأقوياء ، وكم كانت لقدرة الله من هذه الآثار فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعى لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة فى الأولى والآخرة . وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط وييأس . ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التى لا ريبة فيها بما قال وهو أصدق القائلين ﴿ إِنَّهُ لَا يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ . وبما حكى من قول نبيه إبراهيم ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلا على الكفر . ومن أين يطرق اليأس قلبا عقد على الإيمان بالله وقدرته الكاملة .

لهذا نقول إن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة ربهم فى إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم إيمانهم أن يرضخوا للذل ، ويرضوا للضيم ، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم وهم إلى الآن محفوظون مما ابتلى به كثير من الأمم ، فإن لهم ملوكا عظاما ، ولا يزال فى أيديهم ملك عظيم على بسيط الأرض ، وأن من الحق أن نقول : إن أبواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها وأن روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى أن يستنشقوها ، والفرص دائما تمد أيديها إليهم تطلب إنهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم ، وليس عليهم فى استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم . وذلك أيسر ما يكون عليهم ، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم فأى موجب لليأس وأى داع للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناطق بأن اليأس من أوصاف الضالين ، وهل توجد واسطة بين الرشد والغى ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ هل يكون للقانطين فيهم من عذر ؟ أيرضون بالعبودية للأجانب بعد تلك السيادة العليا . ماذا يبتغون من الحياة إن كانت فى ذل وإهانة وفقر وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ أيطمئنون وهم بين أجنبى حاكم ، وبغيض شامت ، ومقبح غبى ، ومشنع دنى ، ومعير خسيس يرمونهم بضعف العقل ونقص الاستعداد ، ويحكمون بأن

محالا عليهم أن يصيروا أمة فى عداد الأمم . ألم ينسلخ الإنسان عن كل خاصة إنسانية ؟ كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات ؟ أينسون أنهم كانوا الأعلون فى الأرض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محيت التواريخ ولا عفت الآثار ، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الأرض .

إن كان للعامة عذر فى الغفلة عما أوجب الله عليهم فأى عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون فى علومه . لم لا يسعون فى توحيد متفرق المسلمين . لم لا يبذلون الجهد فى جمع شملهم ، لم لا يفرغون الوسع لإصلاح ما فسد من ذات بينهم ، ولم لا يأتون على ما فى الطاقة لتقوية آمال المسلمين ، وتذكيرهم بوعود الله التى لا تخلف لمن صدق فى طاعته واليقين به وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم ؟

إن قوما شرح الله صدورهم للإيمان قاموا بهذا الأمر فى مواقع مختلفة من الأرض يجمع التواصل بينها عقدة واحدة ، إلا أن أملنا فى بقية المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بتعضيدهم ، ليتمكن الجميع من نصر الله ﴿ **إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ .

الاستماع للطاعنين فى الأفغانى هزيمة إسلامية شائنة

الشيخ محمد الغزالى

يعتبر السيد جمال الدين الأفغانى واحدا من أكثر الشخصيات البارزة فى التاريخ الإسلامى إثارة للجدل والخلاف ففى الوقت الذى يتفق الكثيرون على حيوية دوره الذى قام به فى مواجهة التحديات التى تعرض لها العالم الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الماضى وفى وضع الجذور الحقيقية للإحياء الإسلامى ، تعرض الأفغانى لبعض الانتقادات بشأن جوانب معينة يتعلق بعضها بحركته وبعضها الآخر بأفكاره .

ومن جملة ما استطلعت « الشرق الأوسط » رأيهم فى هذا الزعيم المصلح الشيخ محمد الغزالى .

يقول الشيخ الغزالى :

إن الأفغانى ظهر عندما كانت الأمة الإسلامية تركة رجل مريض يوشك أن يلفظ روحه ويقتسم ميراثه ، ولم تكن لها فى المحافل الدولية مهابة ولا رسالة .

ولم تكن للثقافة الإسلامية موضوعات ذات بال ، أو قضايا نفسية واجتماعية وسياسية مهمة ..

ويتساءل فضيلة الشيخ الغزالى : ماذا يصنع رجل حكيم حاد البصر والبصيرة إزاء هذا الاختلال العقلى ؟ وهذا الموت المادى والأدبى ؟ ويجيب بسرعة :

لقد استجمع الأفغانى كل ما يملك من مواهب واشتبك فى صراع وحشى مع الحكام الذين أذلوا الشعوب، ومع الشعوب التى ذلت للحكام وشرع يعرض حركة عقل ، وإباء نفس ، ويبرز خصائص الحضارة الإسلامية الأولى بما حوت من فكر نضير وجراءة على الحياة ، وقدرة على التغيير .

ويضيف : كانت الشورى قد ماتت مبنى ومعنى ، وكان الاجتهاد قد توقف وأمسى ذكريات بائدة ، وكانت الطاقة الروحية قد نفدت بين العامة والخاصة وسقط المسلمون من أعين البشر جميعا .

وكان على جمال الدين الأفغانى ومن التف حوله من الرجال أن يستأصلوا علل التخلف ، ويردوا الأمة إلى الصراط المستقيم ، وبديهى أن تكون الجامعة الإسلامية أساسهم فلا تعصب لجنس ، وأن يكون العقل الإسلامى رائدهم أو باعثهم فلا تعصب لمذهب أو رأى . وقد أحس الأفغانى بما يشيع فى أجواء المسلمين المنهزمين من خرافات وبما يصحب اليقظة الأوربية من باطل وهوى وظلم ، فأخذ يعرض الإسلام على نحو يقمع المغرورين ويستنهض المقهورين .

ويؤكد فضيلة الشيخ محمد الغزالى على أنه يتفق تماما مع الدكتور عبد القادر محمود أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة فى العناصر التى تشكل منهج جمال الدين الأفغانى فى الإصلاح وهى :

– إن الإسلام دين التوحيد الحق ، الرافض لكل صور التعدد الماحى لشتى الوثنيات وتبعية المرء لغير الله .

وهو دين الكمال العقلى ، دين أولى الألباب ، والأفكار الناضجة والمزايا البشرية السوية ، فلا مكان فيه لدعاوى جنسية وتفرقات عنصرية على نحو ما زعم « رينان » الفيلسوف الفرنسى الذى ناقشه الأفغانى وأوقفه عند حده .

والإيمان فى الإسلام ينهض على النظر فى الكون . وعلى أداء العقل لوظيفته المنطقية ، والإسلام يأبى تعطيل العقل مرادفا للحيوانية .

ومنذ بدأ الإسلام ، والمسلم عزيز الجانب قوى بربه سيد لما حوله يفعل الخير ويدعو إليه ، ويحترم الحق ويحكم به ، ويستمده من الوحى الأعلى ، ويقيم سلطان الدولة على دعائمه ، ومن ثم فهو يزدرى الأهواء والتقنينات الأجنبية ، ويجعل شريعة الله أساس الحكم فى أرض الله .

والأطوار التى جدت على المجتمع الإنسانى توجب على المسلمين ألا ينحصروا فى تقليد فقيه واحد من فقهاء الأمصار . بل يجب العودة إلى الينبوع

الذى يستقى منه الكل ، أى الكتاب والسنة ، وأن ينفتح باب الاجتهاد للوفاء بالمصالح الدينية والمدنية التى جدت .

غالى جمال الدين الأفغانى فى الخصائص الأدبية التى كرم الله بها الإنسان ، ونوه بعظمة العقل وإمكاناته وقدرته على الكشف والحكم ، وأزاح العوائق التى تعترض نشاطه ، واحتقر الجمود الذى يلوذ به بعض المتدينين ، والفلسفات الانسحابية التى تشد المسلمين إلى الوراء .

ويرى الشيخ الغزالى أن منهج جمال الدين الأفغانى فى الإصلاح قام على مبدأين هما : إن الفساد يهبط من أعلى إلى أسفل ، وإن الإصلاح يصعد من أسفل إلى أعلى ، وأنه – الأفغانى – حاول أن يعمل بالمبدأين معا ، فحاول إسداء النصح إلى الحكام . وتعريفهم بأنهم أجراء الشعوب وملزمون بالشورى ، كما حاول استحياء الأمة الهامدة وتبديد الخمول العلمى والخلقى الذى ران عليها .

أبواق خادعة :

ولا ينفى الداعية الكبير قول البعض إن الأفغانى كان منتسبا لأحد المحافل الماسونية . ولكنه يسأل فى أى كتاب إسلامى شرحت آثام الماسونية وحذر المسلمون منها قبل عصر الأفغانى ؟

ويضيف : أنه – الأفغانى – خدع بكلمات الإخاء والحرية والمساواة كما خدعت أمتنا اليوم فى المؤسسات العالمية الكثيرة ، والمهم أنه منذ ظهر إلى أن مات عليلا أو قتيلا لم يؤثر عنه إلا العمل على استنهاض المسلمين وإحياء جامعتهم وحضارتهم ورسالتهم ، وذلك حسبه من الشرف ..

ويقول الشيخ الغزالى إنه من الطبيعى أن تنطلق الأبواق لتطعن فى شرف الرجل وعلمه ، وقد تكون هذه الأبواق خادعة ، أو مخدوعة ، غير أن الاستماع إليها هزيمة إسلامية شائنة ، ونصر مؤزر للصليبية الغازية وللسلطات العفنة التى عاشت وتعيش فى كنفها .

فهذا هو الدكتور لويس عوض وهو رجل واسع الاطلاع على الثقافة الغربية شديد الولاء لأغراضها ، يصب جام غضبه على الثائر الإسلامى الحر ويصفه بكل موبقة .

وأعتقد – يقول الغزالى – أن كرهه للأفغانى نابع من حبه لدينه واحترامه لدور أوروبا فى احتلال الشرق الإسلامى ، وتغييرها الواجب لعقله وضميره ، وقد نفس عن كوامنه بالأسلوب الذى هاجم به جمال الدين ومع أنى لا أتوقع أن يقول الدكتور لويس كلمة طيبة فى الأفغانى أو فى محمود شاكر إلا أنى فوجئت بهذا الضغن الشديد على زعيم من زعماء الإصلاح الإسلامى .

وينصح الشيخ الغزالى المسلمين المعاصرين بأن يستبينوا أمرين كانا من أهم ما دعا إليه جمال الدين وتلميذه العظيم محمد عبده .

أولهما : أن دراسة العلوم الحديثة واجب إسلامى أول ، وأن أى عقل نظيف يدرك أن هذه الدراسة امتداد محتوم لحديث القرآن الكريم عن الكون ، وأن نتائج الجهود العقلية الذكية دعم للإيمان الصحيح ودمغ للإلحاد .

أما الأمر الثانى فهو : جس معرفتنا لأنفسها ، أو بتعبير دقيق التفريق بين دين الله وبين عملنا به وله فى الماضى والحاضر .

أما التاريخ الإسلامى ، فى الماضى والحاضر ، فليس مصدرا للتشريع ولا مؤشرا على الحلال والحرام .

مكانة الأفغانى عند الغزالى فى كتابه « علل وأدوية » :

يقول العلامة الداعية المفكر الإسلامى الشيخ محمد الغزالى فى السيد جمال الدين الأفغانى ما يأتى : « وأذكر فى سطور قلائل رأيى فى جمال الدين الأفغانى ، لوددت أن يكون علماء الدين على صفته فى عزة النفس ، وشموخ الأنف ، والتوكل على الله ، عندما ذهب إلى الآستانة طلب منه السلطان عبد الحميد أن يدع مهاجمة شاه إيران وأنصت جمال الدين دون أن يرد ، فلما طال إلحاح السلطان عليه قال منهيا الحديث : قد عفوت عنه » .

« وشده السلطان ، وذعرت الحاشية ، قد عفوت عنه ؟! العهد بعلماء الدين أن يكونوا مدفوعين بالباب ينتظرون الجد أو يشكرون الندى ، فما بال هذا الرجل يناصى الملوك ، ويحاكم أخطاءهم » .

قال المؤرخون : « ما كان جمال الدين يرى نفسه دون الخليفة » .

« وتذكرت وأنا أقرأ الحكاية بيتى الشريف الرضى وهو يعاتب الخليفة العباسى فى بغداد قائلا :

مهلا أمير المؤمنين فإننا فى دوحة العلياء لا نتفرق
إلا الخلافة ميزتك فإننى أنا عاطل منها وأنت مطوق

« هل هذا السمو خلق عميل للماسونية كما يقال ؟ إنه خلق متوكل وثيق الصلة بربه ، راسخ القدم فى دينه ، وما سمعت قبله ولا فى عصره من كشف أحقاد الصليبية العالمية ، وألب الجماهير ضدها ، وشن الغارات شعواء على المستبدين والظلمة ونفخ من أنفته فى الشعوب الراكدة المستعبدة يحضها على العمل لدينها ودنياها ، إن الرجل وحده كان صاحب هذا الصوت ويظهر أن تلك كانت جريمته » .

« قالوا : كان منتسبا لأحد المحافل الماسونية ، ولا أنفى هذا ، وإنما أسأل : فى أى كتاب إسلامى شرحت آثام الماسونية ، وحذر المسلمون منها قبل عصر الأفغانى ؟!

« إنه خدع بكلمات الإخاء والحرية والمساواة كما خدعت أمتنا اليوم فى المؤسسات العالمية الكثيرة ، والمهم أنه منذ ظهر إلى أن مات عليلا أو قتيلا لم يؤثر عنه إلا العمل على استنهاض المسلمين ، وإحياء جامعتهم وحضارتهم ورسالتهم . وذاك حسبه من الشرف » .

« أذكر أن « بابا روما » الأسبق مات عقب مرض ألم به ، فألف طبيبه الخاص رسالة لا أدرى ما فيها عن حياته الخاصة ، فصودرت الرسالة ، وفصل الطبيب من النقابة ، وانتهت حياته الاجتماعية » .

« وقد ألفت عشرات الكتب عن « نابليون » تنوه بأمجاده ، وتتواصى بالسكوت عن غدره وشذوذه وخسته » .

« القوم إن رأوا من عظمائهم خيرا أذاعوه ، وإن رأوا شرا دفنوه . أما نحن فمبدعون فى تضخيم الآفات إن وجدت ، واختلاقها إن لم يكن لها وجود ، والنتيجة أنه لن يكون لنا تاريخ » .

« وقد نظرت إلى علماء الدين الذين تناولوا الأفغانى بالسوء فرأيتهم يحيون فى إطار نظم تتبع الاستعمار الشرقى أو الغربى ، وأنهم فى مواجهته ومواجهة سماسرته خرجوا بالصمت عن لا ونعم » .

« إن الهيابين لا يجوز أن يشتموا الشجعان » .

علل وأدوية ص ١٠١ محمد الغزالى

جمال الدين الأفغانى ما له وما عليه

الأستاذ محمد حسين زيدان

تسألوننى عن جمال الدين الأفغانى فى أكثر من سؤال وسأحصر الإجابة على ما لهذا السيد العظيم وما عليه من الذين ما كانوا لأنفسهم ، وإنما كانوا تبعا لسلطان تجمد حتى تجلط وهو سلطان الجمود والطريقية ، فالسيد جمال الدين الأفغانى ينطبق عليه تعريف الكاتب المبين مصطفى لطفى المنفلوطى إذ عرف العظيم بقوله « إذا رأيت رجلا رفعه أناس إلى رتبة الملك وخفضه أناس إلى منزلة الشيطان فاعلم أنه عظيم » . فجمال الدين نسأل عن الذين رفعوه من هم ؟ ومن الذين تنكروا عليه من هم ؟ لنعرف قيمة هذا العظيم والقيم التى اعتنقوها عنه . فالذين ارتفعوا به ورفعوه ليس أولهم الأستاذ الإمام محمد عبده وليس أوسطهم السيد رشيد رضا وليس آخرهم سعد باشا زغلول .

ارتفعوا به حين تزعم الحرب على الاستعمار كما علمهم ، والتنكر للجمود والطريقية ، لأنه كان يرحمه الله أنهض رجالا فى الهند وأمثالهم فى الأفغان وإيران وضاقت عليه تلك الأرضون فلجأ إلى مصر فكان مشعل النهضة فى مصر ، فكيف أستطيع ترك هؤلاء العظماء الذين رفعوه لأكون مع الناكرين عليه ، فالناكرون هؤلاء أتباع سلطان تخاذل فخذل أمته ، فيوسف النبهانى نظم قصيدته الرائعة الكبرى والصغرى يهجو الوهابية وجمال الدين ومحمد عبده ، لأنه كان ينبح على حساب أبى الهدى الصيادى شيخ مشايخ العراق لقبه بذلك السلطان عبد الحميد .

فأبو الهدى الصيادى كان العدو رقم واحد لجمال الدين لأن نجاح دعوة جمال الدين تسقط مقامه ، إن جمال الدين الأفغانى حارب الاستعمار وأيد دعوة السلف ، فإذا هم يتهمونه أول الأمر بالوهابية وحين اعتلت عقيدة السلف فى هذه المملكة وفى المغرب العربى وفى سوريا وفى مصر خذلوا فجاءوا

يتهمونه بالماسونية ، فقد يكون منضما إليها لا عبدا لها ، وإنما ليعرف مفاسدها ، فكثير من العلية فى مصر كانوا الرؤساء للمحفل الماسونى ، فما عرفنا منهم أنهم أفسدوا شعبهم به .

جمال الدين الأفغانى أخاف الخديوى توفيق لأن نهضة الأزهر واستنهاض المشاعر يخافه السلطان الضعيف ، فإذا الخديوى توفيق الذى جلب الاستعمار الإنجليزى إلى مصر يأمر جمال الدين ليرحل عن مصر بازدواجية السلوك بين قسوة الترحيل وادعاء العاطفة للعون ، وعندما بعث ذهبا عونا لجمال الدين ، قال الرجل العظيم وهو يرفض هذا العون الرخيص : « إن الأسد لا يعدم فريسته أينما ذهب » كأنما هو قد اقتدى بسلطان العلماء العز بن عبد السلام يوم رفض ذهب السلطان إسماعيل فقال : « لو مددت يدى لكففت رجلى » لأن السلطان زاره وهو مريض وقد مد رجله فما طواها لا يحفل بسلطان تخاذل فى حرب التتار .

إن جمال الدين الأفغانى أقرأه وكأننى تلميذ لمحمد عبده ، أحتفل به لأنى من تلامذة أشياخنا السلفيين . ولجمال الدين ومحمد عبده مجلة « العروة الوثقى » فليقرأها من يريد المعرفة ، وهناك اثنان من فلاسفة الغرب « هربس سنفرسف » البريطانى و « رينان » الفرنسى وحين اجتمع جمال الدين بسنفرسف جرى حوار بينهما فقال سنفرسف ما هو العدل يا جمال الدين ؟ فأجابه : يوجد العدل حين تتعادل القوى وهو يعنى بذلك أنه لا عدل ينشد من دول الاستعمار القوية بل سيكون العدل حين يقوى الذين استُعمروا .

وقال رينان : لقد تحدثت مع جمال الدين فوجدتنى وكأننى أتحدث مع الفارابى وابن سيناء .

ورحل جمال الدين إلى إسطنبول وهناك قتل وما يوم حليمة بسر .

الأفغانى أول من نادى بفكرة جامعة الشعوب الإسلامية

الدكتور إبراهيم العدوى

أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة

يعتقد الدكتور إبراهيم أحمد العدوى أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة أن جمال الدين الأفغانى كان من المصلحين الكبار الذين ظهروا فى الشرق الإسلامى ، وقد ظهر فى مرحلة كان الاستعمار جاثما فيها على صدور الشعوب الإسلامية ، وبالتالى كان لابد من تضامن هذه الشعوب حتى تزيح هذا الحمل عنها .

وبالتالى فقد ظهر الأفغانى فى سياق تاريخى يحتم عليه أن يهتم بالإصلاح السياسى ، لذلك كان هو أول من نادى بفكرة جامعة الشعوب الإسلامية .

ويضيف الدكتور العدوى أن الأفغانى كان أول من استخدم أجهزة الإعلام فى توضيح فكرة الجامعة ونشرها بين الجماهير فأنشأ جريدة « العروة الوثقى » التى لعبت دورا مهما فى التنديد بالاستعمار وأعوانه ، ومن هنا حاربها الاستعمار بكل الطرق والوسائل ، ولم تستطع الجريدة إكمال رسالتها وتوقفت بعد صدور ثمانية عشر عددا منها .

ويؤكد على أن الأفغانى هو أول من وضع نظام التثقيف السياسى فى العالم الإسلامى ، وقد استخدم اللغة العربية فى خلق وعى سياسى عام لدى الشعوب الإسلامية .

ويلفت الدكتور العدوى النظر إلى بعض أقوال الأفغانى التى كانت محركة لمشاعر الجماهير لمقاومة الاستعمار ومنها قوله للفلاح المصرى : عجبت لك أيها الفلاح تضرب الأرض بفأسك ولا تشق بها صدور أعدائك ، وقوله لمسلمى الهند : لو كنتم ذبابا يطن ما استطاع الاستعمار أن يبقى بينكم ساعة واحدة .

ويشير إلى اهتمام السلطان عبد الحميد بحركة الأفغانى الإصلاحية وقد استدعاه إلى إستانبول لأن السلطان والأفغانى كانا من أشد المؤيدين لإنشاء جامعة الشعوب الإسلامية .

ويتساءل الدكتور إبراهيم العدوى : على أى أساس يوجه بعض الكتاب اتهاما للأفغانى بالماسونية ؟ هل درسوا الفكر الماسونى جيدا ورأوا ما يقول ؟ وهل وجدوا تطابقا بين الأفكار الماسونية وأفكار جمال الدين الأفغانى ؟

ويرد عليهم بأنه ليس هناك دليل تاريخى قاطع على هذا الاتهام . وبالتالى فليست له أية قيمة تاريخية ، فإذا كانوا يبنون إتهامهم على أن الأفغانى كان يميل إلى الجمعيات التى تدعو إلى حرية الفكر فهو أساس فاسد لأنه لا أحد يختلف على ضرورة أن يهتم كل مصلح بتشجيع هذه الحرية .

الإحياء الإسلامى

الدكتور أبو اليزيد العجمى

ويتحدث الدكتور أبو اليزيد العجمى عن الدعوة الإصلاحية لجمال الدين الأفغانى ، فيقول : إن الرسالة التى أداها فى عصره كان لها أثر بالغ وبارز على تلاميذه وعلى رأسهم الإمام محمد عبده ، ولاشك أننا سنجد أنفسنا أمام صيحة مهمة من صيحات الحق ودعوة من دعوات البعث والإحياء لواقع الأمة العربية والإسلامية ، خاصة أن العالم الإسلامى آن ذاك كان فى ظروف الاستعمار الذى هيمن على مقاليد الأمور فيه وكذلك إحساس المسلمين بفقد الهوية وافتقاد الذاتية ، وعندما يأتى رجل كالأفغانى يحرك مشاعر المسلمين ويدعو إلى إصلاح العالم الإسلامى فحسبه أنه هو البداية . وأنه كون مدرسة من العلماء والمصلحين الذين أثروا بصورة واضحة فى الحركة الفكرية فى عالمنا الإسلامى .. وحسبه أنه ضحى من أجل هذه الفكرة التى اعتنقها والتى كانت الأمة الإسلامية بحاجة إليها .

ولا يستطيع أحد أن يعد رواد الحركة والبعث الإسلاميين دون أن يعد جمال الدين الأفغانى ، ولا يستطيع أحد أن يعد المصلحين فى عالمنا الإسلامى دون أن يحسب فيهم جمال الدين الأفغانى وتلاميذه بغض النظر عما إذا كنت تعتنق الفكرة أو لا تعتنقها الآن ، لكن يجب أن ننظر إلى أعلامنا ومصلحينا من خلال الدور الذى أدوه والرسالة التى حملوها والعصر الذى عاشوا فيه وظروفه التى أحاطت به .

وكذلك أن البعض نظر إلى الأفغانى وفقا لعدد من المعايير المعينة التى حددها ومن يخالف هذه المعايير يعتبر خروجا ومحل نقد .. والمدرسة العقلانية الحديثة فى التفسير اتهمت الأفغانى بالماسونية ، وهؤلاء من أمثال الأفغانى مصلحون اجتماعيون ومنطلقون من فهم التراث العربى والإسلامى ، فلا يعقل أبدا أن ينضوى تحت لواء جماعة أو مؤسسة فيها ما يخالف الإسلام .. ربما يكون

قد اجتهد أن هذه الجمعية قد تخدم فكرته أو تحمل معانى تتفق مع المعانى العامة التى كان يدعو لها الأفغانى والصورة التى أدركها كانت بعيدة عن مساوئ الماسونية التى اكتشفها العلماء فيما بعد .

وقضية الانتماء فى حد ذاته لجماعة أو لمؤسسة لا تعنى شيئا بقدر ما تحمله هذه الجماعة أو المؤسسة من الأفكار التى تعرضها للقبول أو النقد ..

ويضيف : إن الأفغانى كان مجتهدا ومجددا له أثره على الصحافة وأثره على حركة التحرر العالمى وأثره على يقظة العقل العربى وتلاميذه الذين أصبحت لهم رؤية فكرية متميزة ولابد أن نقدر فيه كل هذا حتى ولو اختلفنا معه أو اتفقنا .

ويقول : إننا عندما ننظر إلى الأفغانى ودعوته الإسلامية فيجب علينا ألا ننظر إليه بمنطق المرحلة الراهنة .. وإنما يجب أن ننظر بمنطق الأمس والوقت الذى وجد فيه حيث كان العالم الإسلامى مستعمرا والتبشير كان فى أشده والذاتية العربية نائمة ، وكاد العقل العربى أن يتوقف نتيجة توقف الاجتهاد والسيطرة الاستعمارية واجترار الأفكار وعندما يأتى مصلح كهذا يدعو إلى التجديد والبعث فيجب أن نضعه وفق معايير صحيحة للنقد .

ويضيف : إنه ربما لم تكن بعض أفكار الأفغانى متوافقة مائة بالمائة مع المشروع الإسلامى ولكن الإطار العام كان إسلاميا ، وكان البعث الذى ينشده إسلاميا .

هل كان الأفغانى أستاذا للإمام محمد عبده ؟

الدكتور أحمد شلبى

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة

ما أخذ على الأفغانى :

وينفرد الدكتور أحمد شلبى أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة بتوجيه انتقادات حادة للأفغانى ، فيقول :

إن الأفغانى كان ثائرا بدون شك ولكنه فى تقديرى الشخصى لم يكن أستاذا للإمام محمد عبده الذى كان يتجه لتربية الإنسان أولا لأن ذلك هو الذى يقود إلى النجاح السياسى .

أما الأفغانى فكان يرى أن السياسة إذا اعتدلت هى التى تصلح الأمور وبسبب ذلك اصطدم بشخصيات كثيرة جدا فى بلاده ، وفى مصر على السواء .. وكان ينبغى أن تتخذ دعوته طريق الحكمة والموعظة الحسنة كما علمنا القرآن الكريم ، وأن يقيم علاقات طيبة يتخذها وسيلة لتحقيق الإصلاحات وهو الأمر الذى غفل عنه وأهمله تماما .

ويتهم الدكتور أحمد شلبى الأفغانى بأنه عندما وجد الترف ووضع فى « قفص من ذهب » فى إستانبول هدأت ثورته ، وبأنه كان محبا للانتقاد .. فقد انتقد الشاه وحكومته وهو مما يؤخذ عليه حيث استخدمت الدول الأجنبية كلامه كحجة للتدخل فى شئون بعض الدول .

ومن أفكاره غير الموفقة أيضا – كما يقول الدكتور شلبى – فكرة لإقامة اتحاد بين الأديان ونقده للمذاهب المسلم بها حتى أنه نقد مذهب الإمام أبى حنيفة .

ويضيف : إنه قابل محاضرة الفيلسوف الفرنسى « رينان » بفتور شديد

وهى المحاضرة التى اتهم فيها الإسلام بأنه لا يشجع على العلم وبأن العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها .

إلا أن الدكتور أحمد شلبى يشير إلى جوانب مشرقة فى شخصية جمال الدين الأفغانى لا يستطيع أحد أن ينكرها ، فيقول : إن أبرز شىء فى حياته كان القلق والثورة التى لازمته أينما حل ، وأنه لعب دورا كبيرا فى تحريك الهمم بمصر والعالم الإسلامى ، وإثارة مشاعر الشعوب الإسلامية ضد الظلم والاستبداد الذى ينبع من الداخل أو يرد من الخارج .

وينفى عنه تهمة الإلحاد ، ويقول إن جهوده الكثيرة فى مجال الإصلاح تكفى لدفع هذه التهمة عنه . أما اتهامه بالماسونية فلا يستطيع أحد أن يلومه عليها لأن أخطار هذه النحلة لم تكن قد ظهرت بعد وقت ظهور جمال الدين الأفغانى .. كما أن بث سمومها يتفاوت من بلد إلى بلد ومن زمن إلى زمن .

ويحذر الدكتور شلبى من خطورة الماسونية فى العصر الحالى حيث تقف إسرائيل بكل قوة وراء مؤسساتها الصهيونية والتى تتمثل فى أندية « الليونز » ، و « الروتارى » .

جمال الدين الأفغانى فى نظر التاريخ

الدكتور عبد الباسط محمد حسن

عميد كلية الدراسات الإنسانية – جامعة الأزهر

اجتمع معظم المؤرخين والباحثين فى تاريخ العالم الإسلامى على أن نهضة الشرق الإسلامى مدينة إلى حد كبير إلى جهود السيد جمال الدين الأفغانى ، فقد استطاع أن يؤثر فيه من النواحى السياسية والدينية والاجتماعية والأدبية أكبر تأثير ، وكان عاملا مهما فى كثير من الثورات التى قامت خلال القرن التاسع عشر .

استطاع جمال الدين أن يؤثر فى سير الحركات الإصلاحية التى تجاوبت بها أرجاء العالم الإسلامى ، فدعا إلى الجامعة الإسلامية لتحقيق الوحدة بين البلاد الإسلامية المختلفة ، ودعا المسلمين إلى نبذ الخلافات فيما بينهم وكشف لهم عن أدوائهم ونقائصهم ، ودعاهم إلى السمو بأنفسهم والاعتزاز بدينهم ، والحرص على مدنيتهم بعد تطهيرها من الشوائب والأخلاط لكيلا يتخطفهم العدو الذى يتربص بهم الدوائر ، ولذا يقول عنه جورج أنطونيوس : « إن الحركة التى هزت العالم الإسلامى فى أواخر القرن التاسع عشر واستهدفت بعث الإسلام وتحقيق الوحدة الإسلامية كانت مدينة بالدرجة الأولى إلى تفكيره » .

وإلى جانب دعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية دعا إلى مقاومة التدخل الأجنبى والحكم الاستبدادى وطالب بإشراك الشعب فى الحكم . ولذا أثر فى قيام الثورة العرابية وكثيرا من الثورات التى قامت فى إيران وأهمها ثورة الشعب ضد امتياز احتكار الطُّبَّاق الذى منحه الشاه ناصر الدين لشركة ريجى الإنجليزية .

كما اعترف سعد زغلول بقيمة الدور الذى قام به جمال الدين فقال : « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم ، لا أقول ذلك ولا أدعيه ،

بل لا أتصوره وإنما نهضتكم قديمة من عهد محمد على وعرابى وللسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير فيها ، وهذا حق يجب ألا نكتمه لأنه لا يكتم الحق إلا الضعيف » .

ولقد كان للسيد جمال الدين أثر علمى لا يقل عن أثره السياسى فقال عنه الرافعى : « إنه كان أشبه بمدرسة متنقلة » وقال عنه الشيخ رشيد رضا : « إنه غرس فى تلاميذه روح التفكير المطلق وحب الحقائق التى تتمشى مع العقل السليم والرأس الحصيف ، وكانت دروسه تتميز بسعة الأفق والتحرر من قيود التقليد » .

وقد استطاع جمال الدين أن يؤثر فى رقى الصحافة وخاصة فى مصر ، وشجع تلامذته على إنشاء الجرائد والمجلات والإكثار من القراءة فى كتب الأدب ليستقيم أسلوبهم وتقرب عباراتهم إلى الفصاحة والبيان ، ويتمكنوا من كتابة ما يعن لهم من الأفكار لصالح الأمة وخير الوطن ، ولذا يقول الشيخ محمد عبده : « وأصبحت ترى فى القطر المصرى كتبة لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به » .

أما من الناحية الدينية فقد طالب بالرجوع إلى جوهر الدين وتفسيره تفسيرا يتلاءم مع روح العصر ، والاعتماد على منطق العقل والبعد عن التقليد دون أدنى إهمال لسلطان القرآن والحديث ، ورد على كثير من المفتريات التى وجهت إلى الدين ، ولذا قال عنه رينان : « تعرفت بالشيخ جمال الدين .. وهو خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلناها وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس .. وقد خيل إلى من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا أتحدث إليه أنى أرى أحد معارفى من القدماء وجها لوجه .. وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد » .

ما يؤخذ على السيد جمال الدين الأفغانى

سرعة الغضب :

اتفق معظم المعاصرين للسيد جمال الدين على أنه كان سريع الغضب حتى أن الشيخ محمد عبده قال عنه : « إنه حديد المزاج ، وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة » .

وقد روى عنه المخزومى قصة تؤيد هذا الرأى ، فقد طلب من السلطان عبد الحميد الثانى لأحد المصريين الموجودين فى الآستانة رتبة وزيادة راتب ، فوعده السلطان بتحقيق رغبته ، إلا أن السلطان تلكأ فى تنفيذ وعده ، فدخل عليه جمال الدين بوجه عبوس قائلا :

« إننى أتيت لأستميح جلالتك أن تقيلنى من بيعتى لك لأنى رجعت عنها لقد بايعتك بالخلافة ، والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد وقد رجوتك بالأمر الفلانى ، ووعدت بأن تقضيه لى ، ولم تفعل » .

فأطرق السلطان عبد الحميد برهة ثم قال :

« سبحان الله يا حضرة السيد إن أمرا طفيفا مثل هذا يحملك على نقض بيعتى !! أما كان يحسن بفضلك أن تلتمس لى عذرا بكثرة مشاغلى وتذكرنى قبل نقض البيعة ؟ سامحك الله ، وأحسن جزاءك » . ثم أصدر إرادته حالا بما طلب جمال الدين .

فقال جمال الدين : الحق يقال إننى شعرت بتسرعى ، وعرفت خطئى ، كما أننى عرفت للرجل كبير فضله ، وسعة صدره .

تشجيعه سياسة الاغتيال :

يؤخذ أيضا على السيد جمال الدين الأفغانى أنه كان يشجع سياسة الاغتيال ، فقال مستر بلنت : إن العلماء كثيرا ما كانوا يتباحثون سرا على كيفية عزل إسماعيل ، والوسائل التى تمكن من ذلك أو حتى من التخلص منه باغتياله ، فاقترح السيد جمال الدين على الإمام محمد عبده قتل الخديو إسماعيل ، كما قال لمستر براون : لا أمل فى الإصلاح فى إيران قبل قطع ستة أو سبعة رؤوس ، وذكر بالاسم شاه إيران وكبير وزرائه ، وكلاهما قتل بعد ذلك .

ومما قاله قاتل الشاه ناصر الدين فى محاكمته : « إننى أقسم بالله العلى القوى الذى خلق السيد جمال الدين الأفغانى وخلقنى وخلق العالم أجمع ، أنه لم يكن أحد يعلم بنياتى الحقيقية سواى والسيد جمال الدين » .

كان جمال الدين يشجع سياسة الاغتيال السياسى ، إلا أن هذه السياسة أثبتت فشلها فى مختلف الأوقات ، فالرأى السديد والفكرة الصائبة يمكنهما أن

ينتشرا بطريق غير طريق الاغتيال . ويمكننا أن نرجع تشجيع جمال الدين لهذه السياسة إلى سرعة غضبه ، وميله إلى الحدة التى قال عنها الشيخ محمد عبده : « إنها كثيرا ما هدمت ما رفعته الفطنة » .

التجاؤه إلى الدول الأجنبية :

يؤخذ على السيد جمال الدين أيضا أنه استعان ببعض الدول الأوربية والسفراء الأجانب فى تحقيق رغباته . فكيف يحق للسيد جمال الدين وقد قضى حياته داعيا إلى مقاومة التدخل الأجنبى أن يستعين بالأجانب ضد بنى وطنه ؟ وكيف يحق له أن يلتجئ إلى قنصل فرنسا الجنرال طالبا منه أن يعمل على عزل الخديو إسماعيل ؟ وكيف يحق له بعد اختلافه مع الشاه ناصر الدين أن يذهب إلى إنجلترا مطالبا الإنجليز بعدم التعاون مع الشاه ؟ وكيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية إسلامية فى إنجلترا ، وهى الدولة التى لها مصالح كثيرة فى الشرق والتى سبق له أن هاجمها فى خطبه ومقالاته بالجرائد المصرية والإيرانية وجريدة العروة الوثقى ، والتى يمكن أن تتخذ من أقواله ذريعة للتدخل فى شئون إيران ؟

لقد أخطأ جمال الدين فى التجائه إلى هذه الدولة ، كما أخطأ فى تشجيعه لسياسة الاغتيال السياسى .

زعم بعض العلماء الرسميين من أمثال حسن أفندى فهمى فى تركيا والشيخ عليش فى مصر أن السيد جمال الدين خارج على تعاليم الدين ، واتخذوا من دروسه سبيلا للطعن عليه محتجين عليه بقراءته لبعض الكتب الفلسفية ، آخذين بقول جماعة من المتأخرين بتحريم النظر فيها .

وقد نسى هؤلاء أن الدين القوى – كما يقول الشيخ محمد عبده – لا ينفر من العقل . ولا يحقر من شأنه ، ولا يحارب أهله . كذلك أخذوا عليه أن بعض تلاميذه لم يكونوا متدينين ، وقد دافع عنه الشيخ رشيد رضا بقوله : « إن هؤلاء التلاميذ الذين يومئ إليهم خصوم جمال الدين لم يكونوا متدينين قبل اتصالهم بأستاذهم ، كما أنه لا يسأل عن تدين تلاميذه أو عدم تدينهم » .

أما من ناحية عقيدة السيد جمال الدين ، فقد كان مؤمنا لا تشوب عقيدته شائبة ، فهو يؤمن بأن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهى الحق ، و لم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه ، فلا ريب يكون سببا فى السعادة التامة ، والنعيم الكامل .

وهو يتحدث عن مزايا الدين الإسلامى فى رسالة « الرد على الدهريين » فيقول : « إنه فى مقدمة الأديان من حيث حاجة البشرية إليه ، لأن له مزايا ليست متوافرة فى دين آخر » .

وبعد أن يعدد مزايا الدين الإسلامى ، يقول : « فإن قال قائل : إن كانت الديانة الإسلامية على ما بينت ، فما بال المسلمين على ما نرى من الحال السيئة والشأن المحزن ؟

فجوابه : إن المسلمين كانوا كما كانوا ، وبلغوا بدينهم ما بلغوا ، والعالم يشهد ، وأكتفى الآن من القول بهذا النص الشريف ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ .

كما دافع عن الإسلام دفاعا عظيما ضد منتقديه ، فليس من المعقول والحال كذلك أن يكون جمال الدين – وهو صاحب دعوة تجديدية فى الدين – خارجا عن الدين .. كل ما فى الأمر أن هناك أمورا ينكرها الجاحدون المتزمتون الذين درجوا على وضع عقائدهم الدينية فى خصومة دائمة مع الحقائق العلمية ، واتهام كل مفكر حر ، ومجدد مجتهد بالزندقة والإلحاد ، فاتهموا جمال الدين بالخروج على الدين .. وهى تهمة باطلة من أساسها ، لا يستسيغها العقل الواعى ، ولا يقرها المنطق السليم .

(من كتابه « جمال الدين الأفغانى وأثره فى العالم الإسلامى الحديث »)

من آثار الأفغانى فى السياسة والعلم والأدب والدين

هذه مساهمة أخرى للدكتور عبد الباسط محمد حسن عميد كلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر ، وقد نقلتها صحيفة الشرق الأوسط الغراء من كتابه القيم «جمال الدين الأفغانى وأثره فى العالم الإسلامى الحديث» وهذه المساهمة العلمية تتناول الجوانب السياسية والعلمية والأدبية والدينية فى جهاد الأفغانى ونضاله الطويل ، حيث يقول :

أولا - أثره السياسى :

لما شعر الإنجليز بخطر جريدة العروة الوثقى عملوا على وقفها وذلك بوضع العقبات فى سبيلها فانعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة وأصدر قراره إلى نظارة الداخلية قاضيا عليها بأن تشدد فى منع الجريدة من دخول الأقطار المصرية كما أعلنت نظارة الداخلية بأن كل من توجد عنده الجريدة يغرم مبلغا من خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين ولذلك قال « جمال الدين » متهكما :

« وهى غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز » .

وقد كان لمعارضة جمال الدين للاحتلال أثره فى نهضة مصر السياسية إذ بدأت الصحف تتجه هذا الاتجاه ، وسارت المؤيد فى محاربة الإنجليز من غير هوادة أو مهادنة ، وأفسحت صفحاتها لذوى الأقلام الملتهبة من أمثال سعد زغلول وإبراهيم اللقانى وإبراهيم المويلحى وغيرهم .

ويلاحظ أن معظم المصريين كانوا يدينون بالولاء لتركيا إذ كان جمال الدين يرى أن تركيا صاحبة الحق الشرعى فى مصر، وكان يدعو فى جريدة العروة الوثقى إلى تكوين جامعة إسلامية تحت لواء دولة قوية، فاتجه المصريون إلى تركيا باعتبارها زعيمة العالم الإسلامى وظل لهذه الدعوة أثرها فى المجتمع المصرى فكان الأدباء والشعراء (أمثال شوقى وحافظ) يمجدون الخلافة العثمانية- كما ذكرت من قبل- وظلت فكرة القومية مختلطة بعاطفة الولاء لتركيا، وكانت خطب مصطفى كامل وكتاباته تشير إلى هذه الناحية فمن قوله:

« وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة وأن يعززوها بالأموال والأرواح ففى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية المقدسة » .

وكان محمد فريد متفقا مع مصطفى كامل ، فى أن مصلحة مصر فى ذلك الوقت تدعو إلى مؤازرتها لتركيا .

وإذا راعينا أن الحزب الوطنى الذى أنشأه مصطفى كامل كان إحياء للحزب الوطنى الحر الذى أنشأه جمال الدين قبل الثورة العرابية لأدركنا مدى الأثر الذى أحدثه جمال الدين فى الحياة السياسية لمصر ، ويقول سعد زغلول :

« لست خالق هذه النهضة كما يقول بعض خطبائكم .. لا أقول ذلك ولا أدعيه بل لا أتصوره ، إنما نهضتكم قديمة من عهد محمد على وعرابى وللسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير فيها ، وهذا حق يجب أن لا نكتمه لأنه لا يكتم الحق إلا الضعيف » .

بهذا نرى أن جمال الدين نجح فى مقاومة الحكم المطلق وإثارة الوعى القومى فى مصر قبل الاحتلال وبعده ، وكان لدعوته وتعاليمه أثر كبير فى الحياة السياسية للبلاد ، بل يمكن القول بأن أثره فى مصر كان أقوى وأعظم منه فى أى بلد من البلدان الإسلامية الأخرى .

ثانيا – أثره العلمى والأدبى :

استطاع جمال الدين أن يفتح أذهان المصريين إلى البحث والتفكير وبين لهم طريق الاستنتاج والاستنباط ، وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة فى مصر خطوات واسعة ، وتقدمت الصحافة تقدما ملموسا ، وتحررت من مختلف القيود ، فلم تعد تعيش بأموال الحكام وتتغذى بأفكارهم ولا تكاد تتحدث إلا بألسنتهم . فقبل مجىء السيد جمال الدين كان الأفق العلمى ضيقا ، وكان العلماء يلتزمون جانب الحذر والتردد فى إصدار الأحكام ، فأخذ جمال الدين يغرس فى تلاميذه روح التفكير المطلق ، وحب الحقائق التى تتمشى مع العقل السليم والرأى الحصيف ، وكانت دروسه تتميز بسعة الأفق والتحرر من قيود التقليد ، فهو يجمع بين تدقيق الشرقيين وبسط الغربيين ويجمع إلى الأصول فروعها ، وإلى المقدمات نتائجها .

ويروى الشيخ محمد عبده أنه بعد حضوره فى الأزهر سنين مل الدروس المعتادة ، وصارت نفسه تطلب شيئا جديدا ، وتميل إلى العلوم العقلية ، وكان

الشيخ حسن الطويل ممتازا فى الأزهر ، بعلم المنطق فحضره عليه ، ولكنه لم يكن يشفى ما فى نفسه ، وقرأ الشيخ حسن الطويل شيئا من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بالمعنى وكانت دروسه أغلبها احتمالات ، فلما جاء جمال الدين وجد عنده أمنيته فلم يكن جمال الدين يتردد فى الحكم تردد الشيخ حسن الطويل وإنما كان يصدر أحكامه عن ثقة وينظر إلى الأشياء نظرة عميقة ، وقد لخص لنا الشيخ محمد عبده درسين من دروس السيد جمال الدين أحدهما عن التربية والآخر عن فلسفة الصناعة نستدل منهما على غزارة علمه وسعة أفقه .. وكانت طريقته فى التدريس أن يشرح الموضوع ويعلق عليه من جميع نواحيه ويبين رأيه فيه ، ثم يقرأ النص بعد ذلك فإذا هو واضح كل الوضوح ، وبهذه الطريقة استطاع أن يعود الطلبة حرية البحث ، ويوجد شخصيات تبحث وتنقد وتحكم ، ولا تقف عند حد النص كأنه تنزيل من الله .

أما من الناحية الأدبية فقد تأثرت به المدرسة الصحفية الثانية وخرجت عن النطاق الضيق الذى عرف به رجال المدرسة الصحفية الأولى/وسنرى إلى أى حد أثر جمال الدين فى نهضة الصحافة المصرية .

مرت الصحافة المصرية فى أطوار عدة ، وأدوار متعددة ، حتى أصبح لها أثرها فى توجيه الرأى العام ، وتهيئة الأفكار وتثقيف العقول ، وكان أثرها يختلف قوة وضعفا حسب الأحوال السياسية والاجتماعية للبلاد ، وأهم هذه الأدوار :

الدور الأول : ظهرت المدرسة الصحفية الأولى فى عهد محمد على وهى المدرسة التى كان من أشهر تلاميذها رفاعة الطهطاوى وعبد الله أبو السعود ، ومحمد أنسى وغيرهم .

وكانت الصحافة رسمية فى أول أمرها تعيش بأموال الحكام وتصدر بوحى منهم ، ثم ظهرت الصحافة الشعبية ، وكانت فى ذلك الوقت صورة دقيقة من الصحافة الرسمية .

ويغلب على هذه المدرسة الطريقة العلمية ، فجاءت أكثر الصحف مشحونة

بالفصول العلمية والأدبية – مؤلفة كانت أم مترجمة – وكان الكتاب يميلون إلى استعمال المحسنات البديعية متأثرين بقيود الماضى البعيد حين كان النثر العربى يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع التى فتن بها أدباء العربية منذ القرن الرابع الهجرى .

وأفضل ما فى تاريخ هذه الصحافة المصرية الرسمية أنها نشأت مصرية خالصة ليس لغير المصريين فضل فى إنشائها أو تقدمها أو ارتقائها بل كان لها هى الفضل على البلاد الشرقية بما علمت من رجالها أصول الإنشاء والتحرير .

ويمثل رجال هذه المدرسة من الصحافة دور الطفولة فلم يكن لهم أثر مباشر فى توجيه الرأى العام أو خلقه بل عاونوا على تهيئة الأفكار ، وتنوير الأذهان .

الدور الثانى : ظهرت المدرسة الصحفية الثانية فى عهد إسماعيل وتوفيق ، وكان إسماعيل يريد صحافة موالية للحكومة تكون فى خدمته وتخضع لرغبته لتستحق عطفه عليها واحتفاءه بها ، وكان يسمح لها بأن تخوض فى مختلف الموضوعات ما عدا موضوع الطعن عليه ولذلك لم تتمتع الصحافة بحرية النقد .

وظلت على ذلك حتى جاء جمال الدين إلى مصر فطلب من تلاميذه أن يشتركوا فى الكتابة ، وشجعهم على القراءة فى كتب الأدب ليستقيم أسلوبهم وتقرب عباراتهم إلى الفصاحة والبيان ، ويتمكنوا من كتابة ما يعن لهم من الأفكار لصالح الأمة وخير الوطن .

وكان القادرون على الكتابة والإجادة فى مختلف الموضوعات نفر قليل من أبناء مصر منهم عبد الله فكرى وخيرى باشا ومحمد باشا سيد أحمد ، على ضعف فيه ومصطفى باشا وهبى على اختصاص فيه فعمل جمال الدين على أن يكون تلاميذه من بين هؤلاء المجيدين فشجع أديب إسحق ، على أن ينشىء جريدة مصر ، وكان جمال الدين يرسم له خطة السير فيها ، ويكتب بنفسه بعض مقالاتها باسمه أو باسم مستعار هو مظهر بن وضاح ، ثم أوعز إليه بالانتقال إلى الإسكندرية والاشتراك مع سليم نقاش فى إصدار صحيفة التجارة وطلب من الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى أن يشتركا فى التحرير .

كما أصدر سليم العنحورى جريدة « مرآة الشرق » وتنحى عنها فى سنة ١٨٧٩م وتولاها إبراهيم اللقانى بإيعاز من السيد جمال الدين كما أصدر يعقوب ابن صنوع صحيفتين هما « مرآة الأحوال » صدرت فى لندن سنة ١٨٧٦م و « أبو نظارة » صدرت فى القاهرة سنة ١٨٧٧م وكانت أيضا بإيحاء من السيد جمال الدين .

ولما انتقل جمال الدين إلى باريس اشترك مع الشيخ محمد عبده فى إصدار جريدة العروة الوثقى فكانت مثالا يحتذى لرجال المدرسة الصحفية الثانية ، وأغلبهم من تلامذة جمال الدين ، وبعد أن كانت المقالات قاصرة على النواحى العلمية والأدبية اتسع نطاقها على أيدى رجال هذه المدرسة وتناولت الموضوعات السياسية والاجتماعية والدينية ، وتخلصت من السجع والجناس وغيرها من ألوان المحسنات البديعية .

وأخذت تنتقد الولاة والحكام بصراحة وجلاء متخطية جميع الصعاب الرسمية من إنذار وتعطيل مؤقت وإلغاء ، وليس أدل على ذلك من أن جريدة التجارة عطلت فى أوائل عام ١٨٧٩م لمدة خمسة عشر يوما فاستقبلت أمر التعطيل بإصرار على المعارضة بقولها :

« فإن التجارة تحسب حب الوطن دينا ، والمدافعة عنه جهادا فإن عاشت فهى سعيدة ، وإن ماتت فهى شهيدة ، ولقد آتاها الله النعمتين ، وأتاح لها الحسنيين فعاشت به وماتت عليه ، وستبعث بعد أسبوعين رافلة فى ثوب الشهادة مزينة بحلى السعادة على رغم أنوف حاسديها الذين أولوا كلامنا إلى ما لم نقصد ، وحاولوا إطفاء نور الحق ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون » .

وتتميز هذه المدرسة بغلبة الروح الأدبية عليها ، « ولذا يمكن القول بأن الأدب أفاد من الصحافة سعة فى الموضوع وغزارة فى الأفكار وتنويعا فى المادة » .

وهكذا استطاع جمال الدين أن يؤثر فى نهضة مصر الأدبية فزاد عدد الأدباء ، وقويت أساليب الكتابة وتطورت الصحافة المصرية تطورا ملحوظا ، ولذا يقول الشيخ « عبده » :

« وأصبحت ترى فى القطر المصرى كتبة لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم ، وأغلبهم أحداث فى السن ، شيوخ فى الصناعة ، وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به » .

ثالثا – أثره الدينى :

سبق أن ذكرنا أن جمال الدين كان يدعو إلى التجديد فى الدين وكانت دعوته قائمة على الاعتماد على منطق العقل ، والبعد عن التقليد دون أدنى إهمال لسلطان القرآن الكريم والحديث « وكان يرى أن المسلمين ما صاروا أمة ذات مدنية إلا بحسن فهمهم لدينهم وحسن عملهم به ، وما ضعفوا أو استكانوا بعد ذلك إلا لسوء فهمهم لدينهم وانحرافهم عن صراطه وابتداعهم فيه » .

وهو يطالب بالرجوع إلى جوهر الدين ، وتفسيره تفسيرا يتلاءم مع روح العصر ، وقد مكنه علمه التام بالقرآن الكريم والسنة من إقامة الحجة على أنهما لو أحسن تأويلهما معا لكان الإسلام كفئا لإحداث تطور راق عظيم .

ولذلك أخذ جمال الدين يشرح للمصريين قواعد الإسلام الصحيحة وأبان لهم أن المسلم لا يكون مسلما صحيح الإسلام إلا إذا اعتقد عن دليل وبرهان ، وكان إذا ذكرت أمامه كلمة التوحيد قال : « إن الناس لو فهموا معناها لما استعانوا إلا بالله ، ولما طلبوا المدد إلا من الله » .. وكان يقول :

« ما أكثر الجرائد السياسية والعلمية والأدبية فى هذه البلاد مع أن أهاليها فى حاجة إلى أبسط من ذلك كله ... إلى جريدة تقول لهم اغسلوا أرجلكم .. اغسلوا أيديكم » .

وقد نشأ له من جراء صراحته هذه ، وتجديده فى الدين مريدون كثيرون ، وأصبح لدعوته أثر كبير فى المجتمع المصرى وكان طبيعيا أن يلقى جمال الدين مقاومة من بعض العلماء ورجال الدين إما لجمودهم وعدم فهمهم لروح العصر ، وإما لحقدهم وعدم رضائهم عن ظهوره بينهم .

(من كتابه « جمال الدين الأفغانى وأثره فى العالم الإسلامى الحديث »)

تحليل تراث الأفغانى
الأفغانى كان مفكرا مستنيرا خبيرا بالسياسة الدولية، والماسونية فى شأنه ليست تهمة

الدكتور محمد عمارة

لكى نحدد الموقع الفكرى والسياسى ، والإنجاز الحضارى لجمال الدين الأفغانى لابد فى البداية من تحديد الملابسات والتحديات التى كانت قائمة فى ديار الإسلام ، وفى الوضع العالمى فى الفترة التى عاش فيها والتى شهدت جهاده ، هذه الملابسات تتميز بعدد من المشكلات والقضايا .. كان هناك أولا التخلف الموروث من حقبة الحكم المملوكى والعثمانى ، والذى يتمثل فى توقف وتراجع الإبداع والتجديد فى الحضارة العربية الإسلامية ، وكان هناك الضعف والتفسخ اللذين استشريا فى نظام السلطنة العثمانية عندما عجزت لفقرها فى الإبداع الحضارى عن أن تسد الثغرات التى بدأ الغرب ينفذ منها إلى الولايات المتحدة العثمانية .

وعندما تصاعدت حركة القومية التركية - الحركة الطورانية - خلقت تناقضا حادا بين الترك وبين العرب وعندما اتجهت فى التحديث نحو الغرب تريد تجديدا وتحديثا على النمط الغربى بدلا من أن تجدد وتحيى سمات وقسمات الحضارة العربية الإسلامية ، ثم كان هناك التصاعد فى المد والتحدى الغربى ذلك الذى قام بمهمة حراسة ضعف الدولة العثمانية تمهيدا لاحتوائها ، واقتطاع أجزائها بلدا وراء الآخر . تلك كانت أبرز الملابسات والتحديات التى خيمت على العالم الإسلامى فى الفترة التاريخية التى ظهر فيها جمال الدين الأفغانى ، باختصار كان التخلف الموروث من الحقبة المملوكية قد تزايد وتدعم بالضعف العثمانى وكان التحدى الغربى قد تزايد بعد النهضة الغربية والثورة الصناعية والمد الاستعمارى الحديث .

لم يكن حالما ولا مثاليا :

أما المهمة التى حددها جمال الدين الأفغانى لنفسه ولحركته ودعوته فكانت هى مواجهة هذه التحديات ، ولم يكن الرجل حالما أو مفكرا مثاليا يطمح فى الحيلولة بين هذه المخاطر والتحديات وبين أن تبلغ مداها ، فلقد كان يؤمن بأن المرض إذا استشرى فإن الشفاء منه ليس بالأمر الهين ولا بالقريب الحدوث ، بل لقد شبه سقوط العالم الإسلامى بأنه مثل السقوط من الجبل العالى يستحيل على المصلح أن يمنعه فى منتصف المسافة وكان السقوط فى نظره هو السقوط عن نهج الإسلام كعقيدة وشريعة وحضارة ، ومن ثم فقد حدد فى واقعيته أن مهمته هو والتيار الفكرى والسياسى الذى قاده وحركه هى تقصير مدة السقوط وتقليل خسائر هذا السقوط والتعجيل بالشفاء من آثاره أى أنه مع هذه الواقعية قد حدد مهمته فى تلمس سبل الإحياء والنهضة لعالم الإسلام وكان الأفغانى يدرك أن أيديولوجية هذه الأمة هى عقيدة الإسلام وأن الإسلام هو المحرك الأول والأقدر لهذه الأمة ، فهو المحدد لحدود وطنها بل هو جنسيتها قبل كل الألوان والأجناس ، بل إن التدين بالإسلام فى نظره كان أشبه ما يكون بالطبع الذى تطبع عليه النفس الإنسانية .

الأصالة الإسلامية :

ومن ثم فلقد كان على الجبهة الفكرية أول ما لفت أنظار تلاميذه ومريديه إلى المنابع النقية والجوهرية لتراث عصر الازدهار والخلق والإبداع فى الحضارة الإسلامية ، منبها وداعيا إلى ضرورة النقد والتجاوز لتراث الركاكة والتخلف والجمود الذى فصل بين مسلمى عصره وبين تراث عصر الازدهار والإبداع ، كذلك لفت الأنظار إلى تميز الحضارة العربية الإسلامية عن الحضارة الغربية ، فلم يدع إلى التبعية للنموذج الغربى فى الحضارة كما منع تيار التغريب ولم يقف عند الاكتفاء بالموروث الفكرى كما صنع أهل التقليد والجمود وإنما دعا إلى إحياء السمات والقسمات الحضارية التى تتميز بها الحضارة الإسلامية مع فتح نوافذ العقل والفكر على ما هو مشترك إنسانى عام فى إبداع الحضارات الأخرى وهو صاحب الرأى الذى يقول : إن العلوم هى بنت الدليل وحقائقها وقوانينها

هى ثمرة للبراهين . فالعلوم التى لا تتغير موضوعاتها ومادتها ومن ثم قوانينها وحقائقها هى مشترك إنسانى عام وتعلمها وامتلاكها هو مصدر قوة لشخصيتنا الحضارية المتميزة .

أما تقليد الآخرين فيما نتميز نحن فيه عنهم فهو مسخ لشخصيتنا الحضارية وإضعاف لاستقلالنا بل ومنافذ يفتحها المقلدون لجيوش الغزو والاحتلال ، كذلك لفت الأفغانى الأنظار إلى نهضة اليابان ليضرب لأهل الشرق أى لأمة الإسلام المثل على أن النهضة والتقدم ليست حكرا للغرب، فكما كانت لهم نهضة فى الماضى فلليابانيين وهم شرقيون مثلهم نهضة معاصرة امتلكت العلوم التى هى مشترك إنسانى عام مع احتفاظها بخصوصيتها الحضارية .

كذلك لفت الأفغانى أنظار المسلمين ، وهم يواجهون الشقاق القومى بين الأتراك والعرب إلى الارتباط الطبيعى بل والمقدس بين العروبة والإسلام لأن العربية هى لسان الإسلام ولأن كل الدول الأعجمية قد تسابقت إلى التعريب لأنه شرط فى فقه الإسلام وفهم القرآن الكريم والسنة وشرط فى التخلق بالأخلاق العربية التى صاغها وطبعها الإسلام .

الوعى بالتناقضات الدولية :

كذلك كان الأفغانى على الجبهة السياسية كما تثبت ذلك كتاباته وخاصة أعداد مجلة العروة الوثقى وكان خبيرا بالسياسة الدولية واعيا بتناقضاتها ماهرا فى السباحة بين تيارات هذه السياسة الدولية كان يدرك حدود وخيوط العلاقات والتناقضات بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا والقيصرية الروسية ، وله اجتهادات ملحوظة فى محاولة الاستفادة من تناقضات السياسة الدولية لحساب قضية تحرير ووحدة العالم الإسلامى ، وعلى الجبهة السياسية أيضا لم يكن حالما بوحدة أمة الإسلام فى دولة واحدة فى ذلك التاريخ وإنما كان داعية لما يمكن أن نسميه تضامن عصبة دول إسلامية ، ولقد حاول ذلك تحت شعار الجامعة الإسلامية ورغم رأيه السلبى فى الدولة العثمانية وفى السلطان عبد الحميد إلا أنه كسياسى حاول الاستفادة من إمكانيات السلطنة العثمانية بترميم ثغراتها وتجديد الخيوط الرثة فى بنائها لكنه فى النهاية نفض يديه منها يائسا وعند ذلك

ركز على إحياء وتجديد إقليم من أقاليم الوطن العربى وكانت مصر فى ذهنه هى النموذج الذى أراد أن يصنع فى إطارها عندما أقام بها فى سبعينيات القرن التاسع عشر كانت النموذج الذى حاول إحياءه ليجتذب بقية أقطار الوطن العربى وليؤثر فى مجمل العالم الإسلامى .

إذن نستطيع أن نقول : إن الأفغانى ألقى بذور التجديد الفكرى لكن المشكلات والتحديات السياسية قد جعلته يركز أغلب جهوده فى العمل السياسى ، لقد صنع كوكبة من الرجال والقادة والعلماء وأقام العديد من التنظيمات مثل الحزب الوطنى الحر وجمعية العروة الوثقى فى مصر والهند وغيرهما من الأقطار وخاصة تلك التى كانت تعانى من النفوذ أو الاحتلال الاستعمارى الغربى .

أما عن المؤاخذات أو بمعنى آخر الاتهامات التى وجهت إليه سواء فى عصره أو فى ما تلا ذلك العصر فهى :

أولا : تهمة الماسونية ، وهذه التهمة حقيقة وليست اتهاما لكن خطأ البعض من الذين يتخذونها سبيلا للهجوم على الأفغانى ودعوته وحركته إنما يأتى من الغفلة عن ملابسات علاقة الأفغانى بالماسونية إن من الخطأ الشديد قياس الأحداث التاريخية بمعايير عصرنا الراهن فالماسونية فى الفترة التى كانت للأفغانى علاقة بمحافلها ورجالاتها أى فترة سبعينيات القرن التاسع عشر ، كانت حركة حسنة السمعة ولم تكن سلبياتها ولا جرائمها قد انكشفت بعد . كانت قد تأسست فى الغرب فى العصور الوسطى كحركة مناهضة للبابوية ومعادية لاستبداد الكنيسة الغربية وكانت ترفع شعارات الثورة الفرنسية ، الحرية والإخاء والمساواة ، وكانت تستنكر التعصب الدينى والقومى وكانت تسمى المنتسبين إليها بالبنائين الأحرار ثم إن أكبر سلبيات الماسونية وجرائمها هى الطابع اليهودى الذى جعل منها أداة تمهد لاغتصاب فلسطين ، لم تكن قد تكشفت بعد لأن أطماع اليهود الصهيونية قد ظهرت سافرة منذ عهد هرتزل والمؤتمر الذى عقده سنة ١٨٩٧م وهو العام الذى مات فيه جمال الدين الأفغانى ، إذن فلم تكن أطماع الحركة الصهيونية قد تكشفت فى سبعينيات القرن التاسع عشر لأن الحركة الصهيونية الحديثة نفسها لم تتكون إلا مع مشارف القرن العشرين .

كان الأفغانى من خصوم التعصب المذهبى

تعرض الدكتور محمد عمارة فى الجزء الأول من مساهمته المنشورة يوم أمس السبت ١٨ مارس ١٩٨٩م فى « الشرق الأوسط » إلى أبرز أفكار جمال الدين الأفغانى فى الإصلاح .

وفى هذا الجزء الثانى يرد صاحب المقال على اتهام الأفغانى بالماسونية ويثبت أنه كان حقيقة من أهل السنة الأفغان ولم يكن إيرانيا شيعيا ، موضحا أن تعرضه إلى هذه النقطة لا يقوم على أن الانتساب إلى إيران أو التشيع تهمة ، ولكن التهمة تصح من زاوية أن يكذب الإنسان على الجمهور فيدعى نسبته إلى قوم هو ليس منهم وإلى فكرة هو لا يعتقدها .

ويزيد من خطأ اتهام الأفغانى بسبب علاقته بالماسونية أن الذين يتهمونه وينتقصون من قدره لهذا السبب يغفلون تصور موقفه وعلاقته بهذه الحركة ، لقد انتسب إلى المحفل الماسونى وهذه حقيقة تسجلها الوثائق ويتحدث هو نفسه عنها بلا مواربة لكن الوثائق والحقائق تقول لنا أيضا إنه دعا المحفل الماسونى ليتصدى للاستبداد الداخلى وللنفوذ الأجنبى ، فلما رفض القائمون على هذا المحفل وكانت لهم علاقات بتنظيم المحافل الماسونية فى إنجلترا ، ثار الأفغانى ثورة كبيرة وخطب خطبة عصماء فى أعضاء المحفل وكان ذلك بحضور ولى عهد إنجلترا الذى كان يزور المحفل المصرى فى ذلك التاريخ ، هاجم الأفغانى هذا الموقف المتخاذل لأعضاء المحفل الماسونى ، وأعلن أن فى هذا الموقف تخاذلا عن الشعارات المعلنة من قبل الحركة الماسونية ، ثم استقال لكنه حاول الاستفادة من هذه الحركة كإطار تنظيمى فأنشأ محفلا شرقيا كانت له علاقة بالمحفل الفرنسى كى يستفيد من التناقض القائم بين فرنسا وإنجلترا باعتبار أن إنجلترا كانت صاحبة المطامع الأكبر والنفوذ الأخطر فى القضية المصرية يومئذ وفى هذا المحفل الشرقى نظم عدة شعب للإدارة والمالية والجهادية والزراعية .. إلخ ، وفى هذه الشعب تم تثقيف وتدريب عدد من القيادات التى لعبت دورا بعد ذلك فى الثورة العرابية تلك هى قصة العلاقة بين الأفغانى والماسونية ويجب

أن ينظر إليها فى إطار سمعة الماسونية يومئذ وفى إطار استخدام الأفغانى لها كأداة تنظيمية حاول أن يوظفها فى سبيل حركته ودعوته فلما وضحت له جوانب من حقيقتها هاجمها ونفض يده منها .

سنى لا شيعى :

أما التهمة الثانية فهى أنه شيعى إيرانى رغم أنه سنى أفغانى ، وهذه التهمة يجب أن نتنبه ونحن نناقشها إلى أن الانتساب إلى إيران ليس تهمة ، والتمذهب بالتشيع ليس تهمة ، لكن التهمة هى الكذب فإذا كان الإنسان شيعيا إيرانيا ثم زعم أنه أفغانى سنى فتهمته هى الكذب على أنصاره وجمهوره ومريديه .. والحقيقة فى هذه القضية أن الأفغانى قد نشأ فى بلاد الأفغان ولكنه فى مرحلة طلبه للعلم ساح فى إيران بل وفى العراق وتتلمذ على بعض علماء الشيعة .. وبعد ذلك عاد إلى بلاده واشترك فى العمل السياسى بل ووصل إلى منصب الوزير الأول فى حقبة صراع الأفغان ضد الاستعمار الإنجليزى وقبل أن يضطر إلى الخروج من بلده والسياحة فى العالم الإسلامى ولقد كتب الأفغانى رسالة فى تاريخ الأفغان تقطع بأنه أفغانى وكتب أقرب الناس إليه وأعرف الناس به وهو الإمام محمد عبده فقطع بأنه أفغانى وكتب كل من عرفه واقترب منه فقطع بأنه أفغانى ، لكن كيف ومن أين جاءت وبدأت تهمة أنه إيرانى يدعى أنه أفغانى ؟

لقد حدث ذلك بعد اختلافه مع الشاه الإيرانى ناصر الدين وبعد أن طرده الشاه من بلاد فارس على نحو شديد القسوة وبالغ الإهانة ثم حادثة اغتيال هذا الشاه بيد أحد تلاميذ جمال الدين وكان الأفغانى يومئذ يعيش فى عاصمة الدولة العثمانية فى الآستانة ، فأراد الشاه الذى خلف ناصر الدين أن يحتال على الدول العثمانية لتسلمه جمال الدين كى يحاكمه بتهمة التحريض على اغتيال الشاه السابق فكان أن استكتب عمدة (مختار) إحدى القرى الإيرانية وشيوخها ورقة قالوا فيها إن جمال الدين هو مواطن إيرانى نشأ فى قريتهم (مازندران) وأرسل الشاه هذه الورقة إلى السلطان عبد الحميد طالبا تسليمه جمال الدين باعتباره مواطنا إيرانيا ، تلك هى بداية الزعم بإيرانيته وتلك هى ملابسات هذا الزعم .

لقد كانت حيلة إيرانية أراد بها الشاه القبض على جمال الدين لإعدامه وبالطبع فإننا يجب أن نعامل هذا الزعم على ضوء هده الملابسات وغريب أن يتحول إلى حقيقة يرجحها البعض .

أما تهمة التشيع فيكفى فى نفيها عن جمال الدين أن نراجع كتاباته وهى الوثيقة الشاهدة على مذهبه وفكره .. لقد كان الرجل كما أعلم فوق المذاهب فهو يأخذ الإسلام من منابعه بل وينتقد التعصب المذهبى وأكثر من ذلك فإن الكتب التى شرحها والأئمة الذين ألقى الأضواء على فكرهم تشهد بسنيته بل لقد انتقد نقدا صريحا نظرية الإمامة الشيعية ولا أعتقد أن هناك شيعيا يمكن أن ينتقد القضية الجوهرية التى ميزت وتميز الشيعة عن السنه وهى نظرية الإمامة .

تلك هى أهم الملامح للرسالة والدعوة والحركة التى مثلها جمال الدين الأفغانى فى فكرنا ونهضتنا الحديثة لقد كان باختصار شديد الرائد الذى ارتاد ميدان الخيار الحضارى الإسلامى المتميز فى مواجهة تيار التغريب ، وكان الرائد الذى حدد أن السبيل إلى تجديد دنيا المسلمين هو تجديد فكريتهم الدينية فى مواجهة تيار التقليد والجمود .

جمال الدين الأفغانى رجل قضى حياته سائحا يبشر بالحرية

الدكتور سيد رزق الطويل

عميد كلية الدراسات العربية والإسلامية –
جامعة الأزهر

بدأت « الشرق الأوسط » منذ السبت ١٨ مارس ١٩٨٩م نشر آراء عدد من الكتاب والعلماء فى تجربة الزعيم المصلح جمال الدين الأفغانى وتراثه الفكرى ومن أبرز من شارك فى الحلقة الأولى الشيخ محمد الغزالى والدكتور محمد عمارة – وتواصل « الشرق الأوسط » اليوم الأحد ١٩ مارس ١٩٨٩م نشر بقية المساهمات مبتدئة بالدكتور سيد رزق الطويل عميد كلية الدراسات العربية والإسلامية فى جامعة الأزهر .

جمال الدين الأفغانى شخصية متميزة ، ذات توجهات إصلاحية وأفكار ثائرة ، ولذا كان له تأثيراته الواضحة على امتداد القرن التاسع عشر الذى عاش فيه (١٢٥٤ – ١٣١٤هـ . ١٨٣٩ – ١٨٩٧م) وأبرز أفكاره هى التالية :

١ – إصلاح العقول والنفوس وربط ذلك بالدين :

كان محور تفكير جمال الدين يدور حول تحرير العقل ، وبناء النفس الإنسانية بناء راشدا قويما ، ويعتمد فى ذلك على التوجيهات الإسلامية فى هذا الصدد ، وعلى رأسها القانون القرآنى ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ ، فإذا صلح العقل الإنسانى واستقامت النفس البشرية تيسرت كل أسباب الإصلاح وفتحت أبوابه فى كل المجالات وصدق الله إذ يقول : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾ . ولأجل هذا نجد من الآراء التى أعلنها الأفغانى :

إن الإسلام يمتاز عن سائر الأديان بما يأتى :

أ – صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوثة الأوهام والانغماس فى الدجل والخرافات التى تزرى بالعقل الإنسانى .

ب – فتح الإسلام أبواب الشرف والسمو لكل إنسان متى سلك الأسباب الصحيحة له ، فليس الشرف مقصورا على حسب أو نسب أو جنس ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ .

ج – يتفرد الإسلام عن سائر الديانات بما يقوم به من تقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون .

د – أوجب تعليم سائر الأمة .

هـ – ضرورة وجود المؤدب الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهذه النقطة هى التى قامت عليها خيرية هذه الأمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ .

٢ – إصلاح الحكومة :

يرى جمال الدين أن إصلاح الحكومة يتم عن طريق إصلاح الشعب أى أن الإصلاح يتم بالبناء التربوى السليم من القاعدة ، وفى ذلك يقول : (إن القوة الحقيقية لأى أمة لا يكون لها قيمة حقيقية إلا إذا نبعت من نفس الأمة ، وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله حاكم ، فهو مجلس موهوم موقوف على إرادة من أحدثه) .

٣ – منهجه :

كان منهجه التفكيرى يحمل صفة المعلم ، وكان تعليمه ذا اتجاهين :

أولهما ، العبارة الثائرة المؤثرة التى تنبه الغافل وتوقظ النائم ، وباعثه على ذلك الواقع الذى كانت تعيشه الأمة المسلمة وكان من كلماته للهنود : « لو كنتم ذبابا لصم طنينكم آذان الإنجليز ولو كنتم سلاحف لزحفتم إلى الجزر البريطانية وابتلعتموها وعدتم إلى بلادكم أحرارا » .

ولذلك نراه ، حرك الثورة ضد الاستعمار فى كل مكان نزل فيه .

والآخر ، عن طريق القدوة ومعايشة تلامذته الذين أحبوه وأقبلوا عليه ، ورأوا بأعينهم أنماط حياته ، ووجدوا أنفسهم أمام شخصية فذة أخذت على عاتقها الدعوة إلى تحرير العالم الإسلامى .

٤ – باب الاجتهاد مفتوح لعلماء المسلمين :

ذلك لأنهم مطالبون بمواجهة قضايا العصر المتجددة ، والمتغيرة والنصوص الإسلامية خصبة معطاءة ، ويستطيع المجتهد فى إطار النص أن يثبت عظمة هذا الدين وقدرته الفائقة على مواجهة قضايا الحياة ذلك لأنه تشريع العليم ، الحكيم ، الخبير ، ومن هنا أنحى باللائمة على العلماء الجامدين الذين ذكروا للناس أن باب الاجتهاد مغلق وأن المسلم مطالب بتقليد واحد من الأئمة الأوائل ، وبذلك حكموا على الدين – ظالمين – بالجمود والتخلف وأسلموا أعداءهم حجة عليهم ليستبدلوا بالدين القوانين الوضعية ، ودين الله فى سموه برىء كل البراءة من ذلك .

٥ – قضية تحرير الشعوب الإسلامية :

قضى هذا الرجل حياته سائحا فى بلاد المسلمين ، يبشر بالحرية ويدعو إليها . ويلفت الأنظار إلى أن هذه الحرية عطاء إسلامى ينبع من : لا إله إلا الله ، ويذكر بعداء الغرب ، وأحقاده ، وأن الإسلام يفرض عليهم مقاومة هؤلاء ، يقول جولدزيهر : إن جمال الدين كان يرمى إلى تحرير الممالك الإسلامية من السيطرة الأوروبية ، وإنقاذها من الاستغلال الأجنبى .

ويقول لوثروت استودارد الأمريكى : إن خلاصة تعاليم جمال الدين تنحصر فى أن الغرب مناهض للشرق ، والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى الصدور ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك .

٦ – العروة الوثقى ومدرسة الزعماء :

فى هذا الجو العاصف الذى يملأ أرجاء العالم الإسلامى من تسلط الاستعمار ، وجمود العلماء ، ومن هنا تعاون جمال الدين مع صديقه الشيخ

محمد عبده على إصدار جريدة العروة الوثقى فى باريس ، وصدر منها ثمانية عشر عددا من مارس إلى أكتوبر ١٨٨٤م ، وكانت تأتى خفية إلى بلاد الشرق فيها مقالات بالغة العمق ، غاية فى الحماسة والإثارة حتى أنها أزعجت قوى الاستعمار فمنعت دخولها وتوقفت .

بقيت نقطتان فى حياة هذا الزعيم المصلح :

أولاها : إتهامه بالإلحاد ، وتلك فرية بثها ضده الاستعمار ليصرف الناس عنه ، وشجعها علماء السوء الذين أزعجهم دعوته الإصلاحية التى رفضت جمودهم وتقليدهم وصدق القائل : إن قول الحق لم يدع لى صديقا .

وإلا فمن غير المعقول أن يتهم بالإلحاد رجل ألف كتابا فى « الرد على الدهريين » .

والأخرى : موقفه من الماسونية ، انضم جمال الدين للمحفل الماسونى الأسكتلندى الذى يضم علية القوم وكانت وجهته أن يوصل أفكاره بهذه الطبقة لأنهم أقدر على التغيير من غيرهم ، كما أغراه الشعارات البراقة التى يعلنها أصحاب هذه المحافل .

ولما دخل فيهم واختلط بهم ثارت ثائرته وهاجمهم لأنه كان يتصور الماسونية حرية وإخاء ودفاعا عن الإنسان ، ودكا لصروح الظلم ويقول : إذا لم تكن هذه المحافل لهذا الغرض فلا حملت يد الأحرار مطرقة ، ولا قامت لبنائها زاوية قائمة .

ثم استقال وأنشأ محفلا آخر تابعا للشرق الفرنسى وحوله إلى خلية للدفاع عن الحرية .

وكأنه بما كان عليه من تمكن وقوة شخصية حاول أن يسخر الماسونية أو شعاراتها لخدمة القيم التى حملها وهيهات .

لقد نجح فى بث أفكاره ، لكن لم تنل من انحرافات الفكر الماسونى ولأجل هذا لابد أن نتريث تماما قبل أن نحكم على أعلامنا الكبار بالإنحراف عندما انضموا لبعض هذه المحافل فى ظروف معينة ، أو فى ظلال اجتهادات محددة .

رحمه الله وغفر له .

جمال الدين الأفغانى رجل فى مواجهة الحضارة

الدكتور عبد الحليم عويس

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

إن الحديث عن جمال الدين الأفغانى أو محمد عبده أو غيرهما من أعلام الإصلاح فى تاريخنا الإسلامى بعامة ، وفى العصر الحديث بخاصة ، يقتضى منا تقرير قاعدتين أساسيتين إحداهما :

– مدى النظر الموضوعى إلى الجانب البشرى الاجتهادى الخاضع للصواب والخطأ فى المصلح ، فلا عصمة لأحد بعد الأنبياء .

وثانيتهما : مجموعة الظروف والتحديات المحيطة بالمصلح ، ومدى ما يتوقع منه من قدرة على اكتشافها واستيعابها ومواجهتها ، وهو مسلح بالقدر الإسلامى الثابت ، وبالنظرة الأصيلة للكون والحياة والعلاقات الإنسانية .

ويأتى الخطأ فى التقويم لدور المصلح من الخطأ فى إحدى القاعدتين أو فى كلتيهما معا .

ويؤسفنى أن أصرح أنه – لاعتبارات تتعلق بالطبيعة المرحلية المتخلفة لكثير من ممثلى العقل السليم – ساد منهج فى تقويم صناع حضارتنا لا يمت إلى الموضوعية بصلة .

فقد أصبح طبيعيا عند بعضهم رفض تاريخ بعض المصلحين بالجملة لمجرد الاختلاف فى بعض مواقفهم أو آرائهم بل أصبح المنهج السائد عند بعضهم هو التركيز على هذه النقاط الخلافية وإبرازها عند كل حديث عن الشخصية أو تقويم لها .

وبالطبع فالتقويم لأية شخصية ، أو أية دولة ، بهذا المنظور من شأنه أن يؤدى إلى تشويه كل مراحل تاريخنا وكل صناعة العظماء .

وقد تعرضت شخصية جمال الدين الأفغانى لهذا المنهج مثلما تعرضت شخصيات كثيرة فى القديم والحديث .. ولقد آن الأوان لرفض هذا المنهج وتقرير حقيقة « البشرية » فى كل الذين جاءوا بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وبالتالى أخذ صوابهم والتجاوز عن أخطائهم ما دامت غير متعارضة مع أصول الإسلام ، وما دامت نابعة من اجتهاد بشرى .

إن جمال الدين الأفغانى – وعلى خطاه محمد عبده ومحمد فريد وجدى والطنطاوى جوهرى وغيرهم – كانوا الطليعة التى قدر عليها أن تواجه الزحف الحضارى الأوروبى الشرس . وكانوا يتلمسون السبل الصحيحة التى تواجه هذا الزحف من جانب ، والتى توقظ المسلمين من سباتهم من جانب آخر ، وأحب أن أقول : إن هؤلاء كانوا – مع كل عظمتهم – أقل من أن يستوعبوا فى سنين قليلة صور التآمر الاستعمارى التى تلبس أثوابا مختلفة ومزركشة وخادعة لازلنا حتى يومنا هذا عاجزين عن استيعاب دورها فى المخططات العالمية .

– ففى عدد من البلاد العربية الآن تعمل أندية الروتارى والليونز ، بصورة رسمية وعلنية ، وتحرسها الحكومات الإسلامية ، ويخطب فيها أحيانا بعض علماء الإسلام الذين لا نستطيع أن نشك فى مصداقية بعضهم لكنه الجهل بأبعاد التآمر العالمى ، أو الرغبة فى اقتحام هذا المجهول ومحاولة معرفته لمقاومته ، أو محاولة تبصير بعض المنتسبين إليه عن جهل .

– وفى يقينى أن السيد جمال الدين الأفغانى عندما تعامل مع الماسونية (لفترة محدودة) وعندما تعامل مع شتى التيارات الإصلاحية المطروحة ، والتى انكشف أمرها فيما بعد ، كان ينطلق من أنه أقوى منها وأنه يجب عليه احتواؤها . وليس الهروب منها فضلا عن ضرورة التعرف عليها عن قرب لاسيما وشعاراتها كانت تخدع كثيرا من السذج وكان من الواجب انتشال بعضهم منها .

لقد كان السيد جمال الدين الأفغانى – كما وصفه تلميذه محمد عبده – حنيفا مسلما يرد على الطبيعيين والماديين فى رسالته المعروفة (الرد على الدهريين)

وكان حنفى المذهب يميل إلى شيء من التصوف ، وكان يجوب العالم الإسلامى ليوقظه فى ضوء تعرفه على أمراضه ، كما جاب أوروبا وعامل أهلها ليتعرف على نقاط ضعفهم ولعل هذا المنهج المتحرك - وليس الساكن - قد فرض على الشيخ أن يفسح صدره بعض الشيء ، وأن يتعامل مع كل القوى ليربط بينها وبين الحقائق الإسلامية ... فقد تعامل مع القوميين ، وتعامل مع الوطنيين فى كل بلد ، وتعامل مع الليبراليين الذين يرون فى التجربة الأوربية وأهلها الخير كل الخير ويتعامون عن نقائصهم ويغفلون الفروق الحضارية بيننا وبينهم .. وهذا المنهج الذى يرضى عنه كثير من الدعاة ، وقد طبقه بدرجة ما الشهيد حسن البنا رحمه الله ، إذ أقام جسورا مع كثير من التيارات .. هذا المنهج رفضه بعض الدعاة خوفا على أنفسهم من الشبه ، ومبلغ علمى أن هؤلاء هم أكثر الناس نقدا لشخصيات جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وغيرهما !!

لقد كان جمال الدين الأفغانى يسعى إلى أن يجد دولة إسلامية واحدة تستطيع بالفعل أن تقف فى صف الدول الأوروبية الكبرى ، ومثل هذا الأمل لازال يعيش فى أعماقنا ، وكل فجر يظهر يلهث المسلمون وراءه وشعارهم : « من خدعنا بالله انخدعنا له » وإنى لأعرف - وأعترف ، بأننى وعشرات الملايين من المسلمين انخدعنا فى عدد من الشخصيات وعدد من الثورات رفعت راية الإسلام بحماس شديد وعقدت المؤتمرات واستجلبت علماء تقنين الشريعة .

ثم إذ بحقيقتهم تنكشف ، وإذ بنا نعرف أنهم يخادعون الله وما يخدعون إلا أنفسهم ، ونعرف أيضا أننا كنا سذجا وأننا متخلفون فى إدراك أبجديات لعبة الاستنزاف الدولى لطاقات العالم الإسلامى ، وإننا لم نبلغ سن الرشد فى فقه أصول اللعبة السياسية الدولية .

وإذا كان هذا حالنا مع تقدم الوعى وظهور عدد من انقلابات (الفجر الكاذب) وظهور حقيقة الحركات القومية والوطنية والطائفية المعادية للإسلام ، وظهور عشرات الدراسات التى تكشف أبعاد اللعبة الدولية وأساليب الصراع على حكم العالم الإسلامى ، وإجهاض نهضته إذا كان هذا حالنا ، فكيف لا نلتمس الأعذار لرجل لم يكن قد توافر له كل ذلك كالسيد جمال الدين الأفغانى . عفا الله عنه ؟

إن الأساسيات التى انطلق منها جمال الدين الأفغانى أساسيات صحيحة ، فهو قد حث على الاستقلال السياسى ، وعلى النهوض العلمى وعلى بعث الذات المسلمة الحرة الأبية .

وغاية ما نأخذه عليه أنه لم يفطن لما فطن إليه تلميذه محمد عبده من أن النهضة العلمية هى الأساس للنهضة السياسية ، وأن بعث الذات المسلمة الحرة الإيجابية المؤمنة الواعية هو الأساس الأول للنهضتين السياسية والعلمية (يلاحظ تفكير محمد عبده فى إقامة مدارس للمتفوقين والقياديين وهو تفكير عظيم ، فالتربية للقياديين هى الأساس ، وبالتربية نجحت اليابان بينما فشل الغرب فى استثمار استقلالهم السياسى) .

والحق أن المنطلق السياسى الثورى لجمال الدين ما زال يقول به كثيرون لكنه أثبت فشله ، فالأمة التى لا تكون فى مستوى قيادة نفسها قد يسير بها بعض أبنائها إلى حتفها ويفعلون بها أكثر مما فعل الاستعمار ، بل يحققون لها من الخسائر والنكبات ما لم يكن يحلم الاستعمار بتحقيقه !

وهذه نقطة خلافنا الأساسى مع جمال الدين الأفغانى المصلح الذى ترك بصماته قوية فى النهضة الإسلامية الحديثة ، وكانت أفكاره تقف وراء حركات بناءة كثيرة فى الهند والشمال الإفريقى وقد اجتهد فأصاب وأخطأ ، فله الأجر فى الحالين فإنا نحسبه كان مخلصا ساعيا لوحدة هذه الأمة وخيرها ونهضتها فرحمه الله وعفا عنه .

الأفغانى هو الذى أيقظ الحس الوطنى والشعور بالحرية والدعوة إلى امتلاك الإرادة

الكاتب الإسلامى الأستاذ أنور الجندى

يتواصل الحوار اليوم فى حلقته الثالثة عن تجربة الزعيم المصلح جمال الدين الأفغانى – وبعد نشر مساهمات الشيخ محمد الغزالى والدكاترة محمد عمارة وعبد الحليم عويس ومحمد حسين زيدان وعبد الباسط محمد حسن ، تنشر « الشرق الأوسط » اليوم الاثنين ٢٠ مارس ١٩٨٩م رأى الكاتب الإسلامى الأستاذ أنور الجندى والشيخ سيد سابق .

هناك ثلاثة محاور يمكن أن يدرس جمال الدين الأفغانى من خلالها .

محور الثورة أم التربية :

المحور الأول : جمال الدين ومحمد عبده (الثورة أم التربية) .

فمن خلال التجربة التى قام بها جمال الدين ومحمد عبده فى سبيل ابتعاث اليقظة الإسلامية (ومن خلال لقائهما فى مصر ثم فى باريس وإصدار العروة الوثقى) ثم انفصالهما بعد ذلك تبين أن جمال الدين الأفغانى كان يحمل لواء الثورة من أجل تحقيق أهداف اليقظة وأن الشيخ محمد عبده كان يرى أن التربية هى الوسيلة الصالحة لذلك ، ولعل هذه كانت نقطة خلاف بينهما ولكن يبقى أن جمال الدين هو الذى أيقظ الحس الوطنى والشعور بالحرية والدعوة إلى امتلاك الإرادة ، وكانت حملته على الاستعمار هى كبرى أهدافه ، فقد كان يرى أن الإصلاح الحقيقى فى العالم الإسلامى يبدأ أولا بالتخلص من النفوذ الأجنبى الذى كان فى ذلك الوقت يحث الخطى للسيطرة على البلاد العربية والذى كان قد سيطر فعلا على الهند وما حولها وكان الأفغانى يطمع فى أن يتخذ من مصر منطلقا لدعوته إلى الوحدة الإسلامية بمفهوم أن يكون القرآن الكريم هو إمام المسلمين وهو قد وضع أساس الحركة الإسلامية المعاصرة فقد

كان تركيزه شديدا على القرآن الكريم واعتباره العروة الوثقى التى تربط بين المسلمين والقدرة على جمع كلمتهم ، ولكن التجربة الطويلة التى خاضها قد أكدت أن منطلقه السريع العاصف لم يكن هو الأسلوب الأمثل ، وأن أسلوب الشيخ محمد عبده هو الأكثر صلاحية لولا أنه سخر به وقال للشيخ : إنما أنت مثبط .

محور الأصالة والتبعية :

المحور الثانى : جمال الدين وسيد أحمد خان (الأصالة والتبعية) ومن هذا المنطلق نجد أن جمال الدين الأفغانى كان أكثر أصالة إذ إنه التمس منهج القرآن الكريم ، وهاجم أسلوب التغريب الذى أخذ به سيد أحمد خان حين حمل لواء فكرة (الدهرية) أو نظرية دارون وما حولها من مفاهيم من إنكار الغيب ومفهوم الخلق الإسلامى ، وهى النظرية التى فتحت الطريق أمام المسلمين إلى الفلسفة المادية والعلمانية وكان هذا المفهوم قد أدخله الإنجليز على المسلمين فى الهند وأخذ يستشرى لولا أن تصدى له جمال الدين الأفغانى بكتابه (الرد على الدهريين) الذى ترجمه الشيخ محمد عبده من بعد إلى اللغة العربية والذى يعد الركيزة الأولى لمقاومة سموم الفكر الغربى .

وهذا المحور يؤكد أصالة فكر جمال الدين والتماسه مفهوم القرآن الكريم وله فى ذلك مقالة مستفيضة تؤكد سلامة وجهته من هذه الناحية .

ذلك أن جمال الدين ومحمد عبده كانا فى الحقيقة من نتاج دعوة التوحيد التى قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب والشوكانى وغيرهما من الذين حملوا هذا اللواء ، غير أن دعوة التوحيد انتقلت من مرحلة إلى مرحلة وكانت هذه المرحلة التى عاشها جمال الدين أخطر المراحل لأنها كانت تحمل إرهاصات السيطرة الاستعمارية على البلاد العربية .

ومن هنا فقد كان موقف جمال الدين من دعوة الدهريين ، هو أول صيحة لمواجهة ما أطلق عليه التغريب فى هذه المرحلة الباكرة .

فكرة الجامعة الإسلامية :

المحور الثالث : جمال الدين الأفغانى والسلطان عبد الحميد ويكشف هذا المحور الثالث عن فكرة الجامعة الإسلامية وكيف كان تصورها عند جمال الدين

باعتباره زعيما سياسيا واجه الاضطهاد فى كل مكان وصل إليه وبين السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين الذى كان يحمل لواء الدعوة إلى « يا مسلمى العالم اتحدوا » وقد ألقى جمال الدين عصا الشعار أخيرا فى إستانبول والتقى مع السلطان وكان واضحا أن هناك فرقا واسعا بين المنطلقين ، فقد كان السلطان يصدر عن أرضية واسعة للخلافة الإسلامية التى تحمل لواءها الدولة العثمانية التى تضم العرب والترك موسعا إياها لتجمع كل عناصر الأمة الإسلامية من هنود وفرس وغيرهم .. أما جمال الدين فكانت دعوته تنطلق من محاولة اختيار قطر إسلامى كمصر أو غيرها لحمل لواء الدعوة وهو ما لم يتيسر تحقيقه بعد اتصالاته الواسعة فى أفغانستان ، والهند ومصر والسودان ، وغيرها .

كذلك فقد تكشف من اللقاء بين جمال الدين الأفغانى والسلطان عبد الحميد تلك الفوارق الواسعة بين الرجلين والمنهجين والأسلوب النفسى ، وقد شهد جمال الدين لعبد الحميد بأنه كان يحمل لكل خطة يحاول النفوذ الأجنبى إنفاذها ما يغايرها ، وكيف أنه كان يقظا وقادرا على دفع مؤامرات النفوذ الأجنبى .

الماسونية :

ولقد تحدث الكثيرون عن صلة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده بالماسونية وهى لم تكن إلا جزءًا من أسلوب جمال الدين فى مواجهة الأمور ، ذلك الأسلوب الذى وضحه محمد عبده حين قال : (لقد هدمت الحدة فى جمال الدين ما بنته الفطنة) ، فقد كان يرى أن أى منفذ يمكن الولوج منه إلى تحقيق الهدف ممكنا ، فلا يتردد فى اقتحامه وكذلك فعل أول الأمر حين دخل الماسونية ولكنه حين اكتشف أنها خدعة ماكرة ، سرعان ما انصرف عنها وأنشأ محفله الخاص .

لقد كان جمال الدين صاحب أسلوب الثورة فى الإصلاح وهو أسلوب لم تتوفر له وسائله فإن إنشاء جماعات (العروة الوثقى) فى البلاد العربية وغيرها لم يحقق الهدف فى تكوين رأى عام إذ سرعان ما استطاع النفوذ الأجنبى اجتياحه ، ثم لم تلبث العروة الوثقى أن توقفت ورجع الشيخ محمد

عبده إلى المشرق ليجد الأمور قد تبدلت فكان لابد من التماس أسلوب التربية والتعامل مع النفوذ الأجنبى على طريق المسالمة واصطناع أسلوب الإصلاح .

ولكن هذه التجربة كلها بكاملها كانت عاملا أساسيا فى حركة اليقظة ، فقد أحيت المفهوم الأصيل الجامع للإسلام ، وأحيت اللغة العربية والشعر العربى والأدب وفتحت الباب أمام العودة إلى منهج الله تبارك وتعالى ومهدت للخطوات التى جاءت من بعد ، واتسع نطاقها فى الشام والعراق ومصر والمغرب العربى تحت اسم « السلفية » وهى لم تكن سلفية جامدة بل مستنيرة أعطت حركة المقاومة للاستعمار طابعا قويا وفتحت الأبواب أمام أضواء العودة إلى المنابع والتماس مفهوم الإسلام الجامع بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع فى المرحلة التى تلت ذلك وأصبح الأسلوب القرآنى هو المنطلق الحقيقى بعد أسلوب المعتزلة الجدد .

اتفق الأفغانى وعبده على الأهداف واختلفا فى الوسائل

الشيخ سيد سابق
جامعة أم القرى

يوجز الشيخ سيد سابق أستاذ بالدراسات العليا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة فكر الشيخ جمال الدين الأفغانى الإصلاحى فيما يلى :

أولا : يرى أن الإسلام دين عام للناس جميعا ، وأنه قادر تمام القدرة بما فيه من قوى روحية على ملائمة الظروف المتغيرة فى كل جيل .

ثانيا : يرى توحيد المسلمين جميعا تحت راية الخلافة الإسلامية .

ثالثا : التزام تعاليم الإسلام ولا سيما الجهاد .

رابعا : يرى أنه لابد من الكشف عن آثار الاستعمار وضرره فى التفكير ، والدين ، والاقتصاد ، والاجتماع ، وأنه لابد من محاربته بكل الوسائل المتاحة .

خامسا : يمكن بعد هذا أن يدبر المسلمون أمورهم دون الحاجة إلى غيرهم .

والوسيلة التى كان يرى أنها تحقق هذه الغايات هى الثورة السياسية فقد كان يؤمن بأنها أسرع الطرق فى تحرير الشعوب الإسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها .

أما وسائل الإصلاح التدريجى فكان يرى أنها بطيئة غاية البطء غير محققة العاقبة .

وجملة ما كان يقصد إليه الخلاص من السلطان الأجنبى والحكم الاستبدادى ، ثم وحدة الأمة وحدة يقوى التآخى بينها ، ويكفل لها الغلب والعزة والقوة .

أما الشيخ محمد عبده فكان يتفق معه فى الغايات والأهداف ولكنه يخالفه فيما يلى :
أولا : حدود الإسلام المطلوب وهو الإسلام الذى فهمه المسلمون الأوائل .
ثانيا : ويرى ألا يبدأ بالثورة بل يبدأ بالتربية على أساس الدين الصحيح ، وكان يهتم بأمرين أولهما محاربة التقليد والدعوة إلى فتح باب الاجتهاد وثانيهما تأكيد حرية الفرد واختياره فى أفعاله الإرادية .

جمال الدين الأفغانى رجل من كبار القادة المسلمين

الدكتور محمد على الصابونى

الأستاذ فى مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

جمال الدين الأفغانى رجل من القادة المسلمين والمصلحين الاجتماعيين ، وهو يعد من كبار القادة الذين حملوا راية الإسلام ، ونشروا تعاليمه فى بقاع المعمورة ، وهو رجل مجاهد بقلمه ولسانه وعمله لنصرة الإسلام والمسلمين .

وكل إنسان يمكن أن يقع منه هفوات وأخطاء ، وهذا شيء لا يمكن من جهاد الشيخ جمال الدين ، وربما غرر به كما غرر بكثير من قادة المسلمين حين قامت الحركات المشبوهة كالصهيونية وغيرها تحت شعار خدمة المجتمع ، وخدمة العالم ، وربما يكون قد تأثر ببعض هذه الحركات التى ظاهرها نفع المجتمع .

ولا يستبعد أن يكون قد غرر به من قبل الحركات الهادفة ، لأنها كانت تظهر النفع بأبناء العالم ، وهى تخفى المخالب التى تفترس بها فما ينسب إليه من أنه دخل فى الحركة الصهيونية إنما يكون من هذا القبيل ، إنه غرر بهذا تحت شعار نفع المجتمع .

وأما أن يكون تخلى عن دينه ، ودخل فى الصهيونية بعيد جدا بل هو مستحيل .

فالرجل له محاسن كثيرة ، وفيه بعض الهفوات والأخطاء التى لا يسلم منها إنسان .

كان الأفغانى منارة فى كل قطر نزل به

الدكتور رأفت غنيم الشيخ
عميد كلية الآداب فى جامعة الزقازيق

ولد السيد محمد جمال الدين بن صفتر الحسينى الأفغانى بمدينة «أسعد آباد» من أعمال « كابل » عام ١٢٥٤ هـ الموافق لعام ١٨٣٨ م من أسرة تنتسب إلى آل البيت حيث ينتهى نسبه إلى الحسين بن على رضى الله عنهما ، وهذا هو السبب فى تسميته بالسيد وقد نشأ فى بيت شريف وبيت علم ودين .

وكانت شخصية السيد محمد جمال الدين منارة له فى كل قطر إسلامى ينزل فيه ، ففى مكة المكرمة أنشأ جمعية أطلق عليها اسم جمعية أم القرى عام ١٨٥٧ م وأصدر لها مجلة تنطق باسمها عرفت باسم أم القرى وتدافع عن أهداف الجمعية المتمثلة فى وحدة المسلمين لمواجهة الأخطار المحيقة بهم .

وعندما انتقل إلى الهند وأثناء وجوده فى بلده أفغانستان أثار السيد جمال الدين المسلمين هناك ضد الحكم البريطانى وسياسته الاستبدادية والاستغلالية ، وفى إستانبول استقبل عام ١٨٧٠ م ، استقبالا وديا من قبل الحكومة العثمانية والأوساط العلمية التى استطاع أن يحدث فيها تأثيرا بعيدا بما ألقى من دروس ومحاضرات فى الجامعة المنشأة حديثا .

وعاش السيد جمال الدين ثمانى سنوات فى مصر فى ظل رعاية وترحيب من الخديوى إسماعيل الذى شجعه على المضى فى دعوته الإصلاحية ، لأن ذلك يوافق غرض إسماعيل فى التصدى للنفوذ الأجنبى الذى يحاول سلب السلطة من صاحبها الشرعى ، وعلى هذا فقد نجح السيد جمال الدين فى تشكيل حزب من أنصاره وتلاميذه عرف بالحزب الوطنى أو الحزب الأهلى أو حزب الفلاحين .

وكانت ظروف العالم الإسلامى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر التى واجهها السيد جمال الدين الأفغانى تتمثل فيما يأتى :

١ - الحكم العثمانى لكثير من الأقطار العربية والإسلامية وهو حكم مهما كانت حسناته إلا أنه كان بعيدا عن الشورى الإسلامية وروح الديموقراطية الغربية .

٢ - الجهل والفقر الذى خيم على المسلمين فانصرفوا عن الفضائل إلى الرذائل وبعدوا

عن جوهر الدين الإسلامى وحياة السلف الصالح .

٣ – البعد عن الأخذ بأسباب التقدم الحضارى إما خوفا على الدين وإما لأن الحكام العثمانيين فرضوا العزلة على المسلمين فى الوقت الذى عملت فيه البعثات التنصيرية على نشر التعليم الحديث بين المسيحيين العرب .

٤ – التعرض للغزو الاستعمارى الأوروبى الذى اهتم بإضعاف نفوس المسلمين حتى يبعدوا عن الجهاد الإسلامى والوطنى ضد المعتدين .

وجاءت دعوة جمال الدين الأفغانى الإسلامية والتى تمثلت فى فكرة الجامعة الإسلامية التى تجمع جميع الشعوب الإسلامية على الأسس الآتية :

أولا – التحرر من التخلف :

ويأتى هذا من استخدام العقل للملاءمة بين الإسلام والمسلمين من جهة ومتطلبات العصر الحديث من جهة أخرى ، والاعتماد فى ذلك على التعليم بمؤسساته التى تأخذ بأسباب العلم الحديث وتخليص الإسلام من الشوائب التى علقت به وإصلاح المساوىء الدينية والاجتماعية التى تفشت بين المسلمين .

ثانيا – التحرر من استبداد الحكام :

ويقوم على إنهاء الحكم الاستبدادى المفروض على المسلمين سواء كان من سلاطين الدولة العثمانية أو من غيرهم ، لأن هذا الحكم لا يتفق مع الشورى التى دعا إليها الإسلام ومن ثم دعا السيد جمال الدين إلى النظام الدستورى وحكم الشورى .

ثالثا – تحقيق الوحدة الإسلامية :

ويتم ذلك إذا انضوت جميع شعوب الأمة الإسلامية على اختلاف أوطانها وجنسياتها تحت حكم خليفة واحد تتجمع فى يديه السلطتين الدينية والزمنية حكما حديثا يأخذ بأسباب الحضارة الغربية التى لا تتعارض مع الدين الإسلامى الحنيف .

رابعا – مقاومة الاستعمار :

عن طريق الوحدة الإسلامية ، خاصة أنه صاحب الغزو الاستعمارى لأقطار العالم الإسلامى غزو تنصيرى هدد الفكر الإسلامى وأن الخطر الأوروبى ليس فقط موجها ضد الأوطان الإسلامية ، ولكنه فى المقام الأول خطر يقوم على أساس دينى ، بل هو حركة نصرانية موجهة ضد الإسلام .

ومن هذا يتضح أن جمال الدين كان معبرا – ومواجها – لتحديات عصره أخطأ فى بعض الأساليب أو أصاب .

تقدير المستشرقين للأفغانى

الدكتور محمد البهى

مع نشاط جمال الدين الواسع ، وحركته الدائبة فى مقاومة الاستعمار الغربى ، وجلده القوى الطويل المدى فى هذه المقاومة .. يحاول المستشرقون وزنه وتقديره فى جانبه الفكرى ، على أساس أنه لم يكن عميق التفكير ولم يكن الشخص الذى يمكنه أن يفيد الإسلام فى عرض أفكاره وتعاليمه له .

يعلق المستشرق الإنجليزى « جب » عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، فى كتابه : الاتجاهات الحديثة فى الإسلام THE MODERN TRENDS IN ISLAM على رأى محمد إقبال فى جمال الدين على النحو الآتى :

« إقبال يرى أن جمال الدين كان إنسانا له نظرة عميقة فى تاريخ الفكر الإسلامى والحياة الإسلامية .. لذلك كان يعتقد أن جمال الدين لو ركز قوته الذهنية فى خدمة الإسلام كنظام للتوجيه الإنسانى والحياة الاعتقادية للإنسان ، لوجد العالم الإسلامى اليوم على أساس أقوى بكثير » .. وعلى هذا الرأى يعقب « جب » بقوله : « إن العمل الوحيد الذى نشر لجمال الدين هو كتاب (الرد على الدهريين) وهو عمل لا يوحى مطلقا بأن جمال الدين إنسان له هذه الاستطاعة العقلية على نحو ما تنبأ إقبال » .

ولو فارقنا « جب » إلى مستشرق آخر .. مثل « برون » « BROWN » أو « آدمز » « ADAMS » لوجدنا أن جمال الدين فى كتاباتهم : شخصية تملكها الحقد على الاستعمار الغربى ، بعد أن تمكنت منه العاطفة غير المعتدلة فى أحكامه وفى مقاييسه .. أما نصيبه فى التفكير عند أمثالهما : فغير وافر فى كمه ، وغير عميق فى نوعه !!

يقدر المستشرقون جمال الدين، على هذا النحو، لأن جمال الدين واجه الاستعمار الغربى وجها لوجه ، ولم تضعف إرادته فى مقاومته ولم يدار أو يموه

بالنسبة لنقائص الغرب فى المجتمع البشرى ، وقد أشاد بالإسلام فى مواجهة المسيحية ، فكان نصيبه من دراسة المستشرقين لآثاره نصيب المفكر الإسلامى ابن تيمية ، الذى وصف فى كتاباتهم بضيق الأفق وعدم تقديره للعقل الإنسانى فيما كتبه فى « رد المنطق » ويعلم الله أن ابن تيمية أراد بكتابه هذا أن يبين أن الإسلام ليس فى حاجة إلى (منطق الإغريق) ليروج ، أو لتوازن به مبادئه فله أسلوبه الخاص ، ومنهاجه الواضح فى الدعوة إلى الله وهدايته للإنسان ، ولكن السبب الخفى فى الحقد على ابن تيمية ، هو مهاجمته للمسيحية ، فى شخص الصليبية التى حاولت انتزاع بيت المقدس من المسلمين ، كما حاولت تحطيم جمعهم والنيل من مقدساتهم .

بين جمال الدين الأفغانى وابن تيمية

شرح السيد جمال الدين رأيه فى الرجوع إلى القرآن الكريم وإلى تعاليمه الصافية ، بعد أن آلت شروحه وتخريجه المتنوع إلى مذاهب ، وآل أمر هذه المذاهب إلى تفريق الأمة إلى طوائف ، وآل أمر الطوائف إلى العصبية والتنابذ فى الخصومة ، وصار ذلك كله بالأمة إلى الضعف ، ثم إلى الانهيار .

يقول فى بعض كتاباته متعجبا من أمر الفرقة بين المسلمين ، مع وحدة المصدر فى التوجيه ، وعدم الاختلاف فى المصالح العامة :

« أى فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين ؟ كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد ﷺ .. فعلى الأفغانيين أن يرفعوا أبصارهم ويستقبلوا حظهم بفكر سديد وعقل رشيد ، ويتقدموا للاتفاق مع إخوانهم الإيرانيين ، فليس بينهم وبينهم ما يصح عليه الاختلاف فى المصالح العمومية .. فالجميع من أصل واحد ، وتجمعهم رابطة الدين الإسلامى » .

يريد إضعاف الفوارق بين المسلمين ، لتقوى سيادة المسلمين على أنفسهم وأمام غيرهم !! وإذا اهتم جمال الدين بالإسلام كله بوجه عام فى كفاحه ضد الاستعمار الغربى ، فإنه يهتم على وجه الخصوص بذلك الجانب من الإسلام الذى يدعو المسلمين إلى العزة والمحافظة على استقلالهم فى شخصيتهم بعدم انصهارهم فى غيرهم ، فضلا عن الخضوع والاستسلام للأجنبى المتحامل عليهم .

بيد أن جمال الدين لم يحاول تلك المحاولة التى حاولها فيما بعد « محمد إقبال » فى الهند والشيخ « محمد عبده » فى مصر ، من شرح المنهج الذى يحول دون الاستمرار فى ضعف الأمة الإسلامية ، والذى يخلق نشئا آخر يشعر بالأخوة الصادقة بين المسلمين جميعا ، كما يشعر بقوة الإسلام فى توجيهه نحو حياة أفضل ، ونحو مجتمع متماسك البناء ، وهذا النهج قد عرف عند إقبال بـ « إعادة تجديد مفاهيم الفكر الدينى فى الإسلام » كما عرف عند الشيخ محمد عبده بمنهج « التربية الإسلامية » أو التربية القومية .

جمال الدين الأفغانى وابن تيمية :

قام جمال الدين – إذن – بحركته فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، كرد فعل للاستعمار الغربى ، وخاصة فى مصر . وقد بدت الرغبة فى استعمار مصر واضحة منذ مشروع قناة السويس ، ثم اشتدت هذه الرغبة فى وضوحها منذ الاحتفال بافتتاحها على عهد الخديوى إسماعيل ، حتى كشف عنها القناع تماما منذ الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ م .

وفى سبيل مواجهة هذا الاستعمار ، طالب جمال الدين بمقاومته .. ولأجل هذه المقاومة عمل على إيقاظ روح التضامن الإسلامى ، عن طريق : طلب التمسك بالقرآن الكريم ، وإلغاء العصبية المذهبية وطرح التقليد الحزبى ، وإعمال الاجتهاد فى فهم القرآن الكريم ، والملاءمة بين مبادئه وظروف الحياة التى يعيش فيها المسلمون ، وطرح الخرافات والبدع التى غيرت من جوهر الإسلام ، والتى جعلته وسيلة فى الحياة ، بدلا من كونها حقيقة واضحة ، وقوة إيجابية فى السيطرة على الحياة وتوجيهها .. لقد أراد جمال الدين فى كفاحه ضد الاستعمار الغربى أن ينقل المسلمين من حال الضعف إلى حال القوة كى يستطيعوا مواجهة الاعتداء الغربى فى إعداده النظم وعدته القوية .

وحال الضعف التى كان عليها المسلمون إذ ذاك ، تتمثل فى : تفريق الكلمة – فى تعصب – بسبب كثرة المذاهب وتباينها ، والتقليد – فى تبعية لا تخضع لترو أو فهم – لآراء أرباب الفرق ، والانحراف عن الإسلام بالاعتقاد فى البدع والخرافات ، ككرامات الأولياء وقدرتهم على الشفاعة والوساطة .. هذا إلى

سلبية واضحة فى الحياة باتباع التصوف المنحرف وتحكم عقيدة الجبر والتسليم فى التوجيه !!

أما القوة: فهى فى طرح ذلك كله... والتمسك بالقرآن الكريم كأساس موحد بين المسلمين، وإيجابية فى الحياة بمباشرة الاجتهاد على الوضع الذى كان عليه السلف.

حال الضعف التى وصفها جمال الدين للمسلمين فى وقته ، هى حال الضعف التى كان عليها المسلمون فى وقت « ابن تيمية » .

ووسيلة القوة والتكتل التى حددها ابن تيمية من قبل ، هى الوسيلة التى تمسك بها جمال الدين ، وأصر على سلوكها .

وليس هناك اختلاف بين الاثنين ، سوى أن : ابن تيمية برهن كعالم إسلامى مطلع ، واستخدم الدليل الدينى والمنطقى فى تدعيم رأيه ، وكتب وراسل وألف .. أما جمال الدين فاتخذ أسلوب « الإثارة » وإيقاظ الوعى ، فتحدث وخطب واتصل بزعماء المسلمين وقادتهم اتصالا شخصيا مباشرا ، مستحثا هممهم ، ودافعا إياهم إلى مقاومة الاعتداء الغربى ، فى أية صورة من صور المقاومة ، لأنه اعتداء مذل مخرب .

ابن تيمية : كان مضطرا أن يؤلف ، وأن يحاج بالدليل النظرى والمنطقى أو النقلى ... لأن خصومه فى داخل الجماعة الإسلامية دفعوه إلى الحجاج والنزاع العلمى ، وهؤلاء الخصوم هم أرباب الفرق الإسلامية المختلفة .

أما جمال الدين : فقد حدد له خصومه – وهم المستعمرون – نوع الوسيلة التى يقاوم بها ، وهى وسيلة الإثارة ، والتكتيل الشعبى ، عن طريق إلهاب العواطف واستفزاز الهمم الإنسانية والحماسة الدينية ... إذ المستعمر كان حاكما للشعوب الإسلامية ، ومقاومته يجب أن تكون – فى الصف الأول – من الشعوب ذاتها ، وتكتيل الشعوب ، وتجميع المنثورة فيها ، يتبع إثارة العواطف ، قبل أن يتبع الإقناع بالحجة .

ومع ذلك فقد خلق جمال الدين جيلا من القادة ، خلفه بعد وفاته ، على أساس من المعرفة والتبصير الهادئ الرزين ، على أساس من فهم صحيح للإسلام وتعاليمه ، وفى توجيه العلم المجرب . فلم يكن جمال الدين قائد شعب أو شعوب ضد اعتداء أجنبى قوى منظم فحسب ، بل كان مع ذلك رائد فكرة ، ورائد فهم سليم للإسلام .

ظلموه حيا وميتا

بقلم الدكتور مصطفى عبد الواحد

مدير مركز إحياء التراث الإسلامى بجامعة أم القرى

مضى على وفاة السيد جمال الدين الأفغانى قرن من الزمان وما يزال الجدل يدور حوله ، وما يزال يتعرض لمحاكمات ظالمة تفتقر إلى شروط العدالة والموضوعية والإنصاف .

بعض الباحثين غالى فى مدحه وتصوير أثره العميق فى النهضة الإسلامية المعاصرة ، وهو دون ريب صاحب أثر وباعث نهضة ، ولكن لابد من تقدير ذلك الأثر على حقيقته دون غلو أو إسراف .

وآخرون هاجموه بقسوة بالغة ، وحاولوا إلصاق التهم والسوءات به ، إلى حد أن أخرجه بعضهم من الملة ، ونسبه إلى الإلحاد والزندقة ووصمه بالعمالة للأعداء .

نذكر من أعداء السيد جمال الدين الأفغانى الذين حاولوا تشويه صورته إلى أفظع حد : « الميرزا لطف الله خان » الذى ألف عنه كتابا بعنوان : (جمال الدين الأسد آبادى) شكك فيه فى أصله ونسبه وألقى عليه التهم جزافا دون دليل .

ومنهم على الوردى العراق الذى ألف كتابا عنوانه : (لمحات اجتماعية فى تاريخ العراق الحديث) تطرق فيه إلى جمال الدين الأفغانى بنزعة عدائية واضحة ، وأصبح كتابه هذا مرجعا لكل من يحاول التطاول على هذا الرجل ووصمه بأقبح الصفات !!

ثم جاء الدكتور محمد حسين رحمه الله وهو يؤرخ للأدب فصب جام غضبه على الأفغانى فى كتابه : « الاتجاهات الوطنية فى الأدب الحديث » و « الإسلام والحضارة الغربية » .. وقد اعتمد فى هذا الهجوم على كتاب الميرزا لطف الله خان

الذىأشرنا إليه ، ولم يستخدم المنهج العلمى فى تحقيق التهم المنسوبة إلى جمال الدين الأفغانى وكأنه رأى أن إظهار غيرته على الإسلام لا تتحقق إلا بإدانة هذا الرجل !

واعتمادا على هذه المحاكمات الظالمة جاء باحث آخر هو مصطفى فوزى غزال فألف كتابا بعنوان : (دعوة جمال الدين الأفغانى فى ميزان الإسلام) ، نال به درجة الماجستير فى الدعوة الإسلامية ، وقد ملأه بالتهم الفظيعة لجمال الدين الأفغانى ، وأكبرها أنه ملحد وزنديق خائن لأمته ممالىء للمستعمرين صديق لليهود جندى من جنود الماسون !.

فأين العدل فى قضية هذا الرجل .. وكيف تقف منه أمته هذا الموقف وهو الذى عاش سنوات عمره مزعجا قلقا من أجل قضاياها جاهدا فى دفع الخطر عنها ؟ !

إن هناك من الباحثين المنصفين من دفعتهم الغيرة على رجال الإسلام ورد الظلم عنهم إلى بحث قضية جمال الدين الأفغانى بحثا موضوعيا منصفا ، ومن هؤلاء الدكتور محسن عبد الحميد الأستاذ بجامعة بغداد الذى ألف كتابا قيما بعنوان : (جمال الدين الأفغانى المصلح المفترى عليه) ، وقد تصدى فيه بخاصة إلى مقولات الدكتور محمد حسين فى كتابيه اللذين أشرت إليهما وفيهما خلاصة الشبهات والتهم التى ألصقت بهذا الرجل .

وقد ناقش قضية انتماء الأفغانى إلى الماسونية مناقشة مفصلة انتهى منها إلى أن الأفغانى لم يكن يعلم حقائق الماسونية ولم يكن مطلعا على أهدافها واستدل على ذلك بستة أدلة .

ومع أن هذه القضية قد أشبعت بحثا من قبل حين تناولها كثير من الباحثين فى شخصية جمال الدين الأفغانى وأثره فى النهضة الإسلامية المعاصرة ، وقد تناول بعض وقائعها محمد باشا المخزومى فى كتابه (خاطرات جمال الدين الأفغانى) ، ويتضح منها أن الأفغانى كان يظن الماسونية حركة سياسية ، قد يفيد منها فى مقاومة الاستعمار ، لكنه فوجىء حين وجدهم يحظرون الكلام فى السياسة فترك المحفل الإسكتلندى بعد أن هاجمه هجوما عنيفا ورأى أن الشعارات التى

يتشدقون بها وهى الحرية والمساواة والإخاء شعارات كاذبة لا وجود لها فى سلوكهم ونشاطاتهم .

ولقد دفع الأفغانى شغفه بالسياسة ومحاولة إنهاض الأمة الإسلامية من كبوتها ، إلى تلمس الطريق لتحقيق هذا الهدف ، وكان انخداعه بالماسونية خطأً كبيرا ، لكن هذه الحركة الخبيثة لم تكن قد انكشفت خباياها فى ذلك الوقت . بدليل أنه قد انخدع بها كثير من المشهورين ، ونحن اليوم نعلم عن خفايا الماسونية وأهدافها الموغلة فى الكيد للإسلام وأهله الكثير .. ولكن هل كان جمال الدين على علم بذلك ؟؟ لقد انفصل عن المحفل الماسونى الإسكتلندى غاضبا منكرا عليهم مسالكهم الغامضة المستخذية ناعيا عليهم الاشتغال بالتوافه والشكليات .

ولا نقول: إن جمال الدين الأفغانى مبرأ من الخطأ، فلا شك أن له أخطاءه فى مجال الرأى والتقدير ، وليس هناك بشر معصوم من الخطأ إلا من عصم الله ، وهم الأنبياء والمرسلون .. ولكن شتان بين تقرير أخطاء جمال الدين فى صورتها الواقعية دون تضخيم ولا تهويل ، بعيدا عن الظنون والأوهام ، وبين استغلال هذه الأخطاء لهدم كفاحه وتشويه صورته ، ونقله إلى معسكر أعداء هذه الأمة !

إن من العجيب أن يهاجم لويس عوض جمال الدين الأفغانى فى الوقت الذى يهاجمه فيه بعض أهل الغيرة على الإسلام !

فكيف يكون الرجل مكروها من الطرفين المتناقضين ، وكيف يكون محاربا للاستعمار فى نظر البعض وعميلا له فى نظر آخرين .

وكيف يوصف بالإمامة فى الإسلام من قبل من يشيدون به .. بينما يوصف بالإفساد والتحريض عليه من مبغضيه . ؟؟

لقد ظلم جمال الدين حيا .. وما يزال يظلم بعد أن فارق الحياة !

الأفغانى والماسونية

الدكتور على شلش

عاش الأفغانى فى مصر ثمانى سنوات (١٨٧١- ١٨٧٩م) من أخطر سنى تاريخها الحديث ، لا لأنها آخر سنوات حكم الخديو إسماعيل وقمة التغلغل الأوروبى قبل الاحتلال البريطانى وحسب ، وإنما لأنها أيضا قمة مرحلة التأسيس التى مرت بها الماسونية فى مصر ، وقد شهدت السنوات الأربع الأخيرة من إقامة الرجل فى مصر نشاطا عجيبا للمحافل الماسونية التى أنشأها الأوروبيون المستوطنون فى المدن الكبرى ، ولا سيما فى القاهرة والإسكندرية ومع أن المصريين الأصلاء كانوا قلة بين أعضاء هذه المحافل فقد اجتذبت الماسونية الأفغانى مثلما اجتذبته الصحافة والخطابة والتعليم .. ووجد فيها وسيلة للاتصال بالصفوة من الحكام الذين قاموا برعايتها والمتعلمين الذين دخلوا المحافل بتأثير الأوروبيين وكانت تلك السنوات الأربع - من ناحية أخرى - فترة اختمار للحركة الوطنية وسط الظروف الصعبة التى أوصل إسماعيل البلاد إليها من الاقتصاد المتردى والديون المتزايدة إلى الاستبداد المطلق والفقر المدقع ، فضلا عن الصراع بينه وبين عمه المطالب بالعرش الأمير محمد عبد الحليم أصغر أبناء محمد على .

وكان عبد الحليم هذا ، أو الأمير حليم كما عرفه الناس ، قد وصل إلى مرتبة الأستاذ الأعظم لمحفل الشرق الأكبر المصرى سنة ١٨٦٧م، وبدأ يحرك أنصاره من الأوروبيين ضد إسماعيل حتى تنبه الأخير فطرده من مصر فى نهاية العام التالى ، وسافر عبد الحليم إلى الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية ، حيث أقام إلى آخر حياته ، ولكن شبحه ظل يطارد إسماعيل وابنه توفيق من بعده ، كما ظل أنصاره مهيمنين على الحركة الماسونية ، يدعون لولايته فى السر ، ويفضلونه على توفيق فى العلن ، ولا سيما بعد تأكيدات السلطان ولاية أبناء إسماعيل عام ١٨٧٣ م .

وعندما انضم الأفغانى إلى الماسونية عام ١٨٧٥ م كان ذلك بتأثير بعض

المهاجرين من أبناء الشام الذين التف بعضهم حوله ، وصاروا من مريديه ، وكان هو نفسه قد اقتنع بعجز إسماعيل عن حل مشكلات الوضع المتفاقم فى البلاد ، وبدأ فى استقطاب عدد من شباب المتعلمين حوله مثل محمد عبده وإبراهيم اللقانى وإبراهيم المويلحى ، فضلا عن المهاجرين مثل سليم عنحورى وأديب إسحق وسليم نقاش .

ومع أنه كان يؤيد – مع هؤلاء – فكرة عزل إسماعيل وتولية ابنه توفيق فقد كانوا جميعا يعطفون على قضية الأمير المنفى المطالب بالعرش ، وكان من أنصار الأمير وقتها يعقوب صنوع الذى ظل يؤيده فى صحفه العربية بباريس حتى وفاته ، وحسن موسى العقاد شيخ تجار القاهرة الذى نفى عقب فشل الثورة العرابية ، والشيخ عليش الذى تولى مشيخة الجامع الأزهر ومع ذلك ظل الأفغانى أقرب وأميل إلى ولى العهد الأمير توفيق ، ولا سيما بعد أن اتفق معه على إصلاح حال البلاد والحكم بالدستور والبرلمان .

وجد الأفغانى نفسه – فجأة – فى قلب الصراع الدائر ، وبعد أن قضى سنواته الأولى فى القاهرة فى تعليم الشباب بمجالسه الخاصة أو فى داره ، وتجميع حلقة من التلامذة والمريدين على اختلاف عقائدهم نزل إلى ميدان السياسة التى شغلت الجميع وقتذاك ، وشجع المحيطين به على إصدار الصحف ودخول الماسونية ، ولم يكن تشجيعه على دخول الماسونية « لأنه رأى فيها امتدادا لحركات التطرف الإسلامية القديمة التى تعاطف معها » كما قال أحد المستشرقين ، وإنما لأنه رأى فيها وسيلة للإصلاح والتغيير ، ويبدو أنه أعجب بشعار الماسونية الذى رفعته فى ذلك الوقت (الحرية والإخاء والمساواة) وهو ذاته شعار الثورة الفرنسية الذى روجته المحافل التابعة لفرنسا فى مصر .

وكان أول محفل انضم إليه الأفغانى مع ٤٠ شخصا من تلامذته ومريديه يتبع المحفل الأكبر فى إسكوتلندا .. وكان المحفل يسمى « محفل كوكب الشرق » أسسه القنصل الإنجليزى فى مصر ونائبه . ومع ذلك تبين من الأوراق التى اكتشفت حديثا للأفغانى فى إيران أنه كان على صلة ببعض المحافل الأخرى فى مصر ذات الولاء اليونانى والإيطالى وفى أواخر عام ١٨٧٧ م انتخب الأفغانى رئيسا لمحفل

كوكب الشرق وأصبح من أهم الشخصيات الماسونية فى مصر .. وصارت الصحف التى شجع تلامذته على إصدارها (مصر ، التجارة ، مرآة الشرق) تتابع أخباره ونشاطه الماسونى ، ومن هذه الأخبار ما نشرته صحيفة التجارة فى ٢١ يناير ١٨٧٩ م حين وصفت إحدى الحفلات الماسونية التى خطب فيها الأفغانى بصفته رئيسا للمحفل ، فقالت :

« انتظم على مائدتها نيف ومائة قائل بالحرية والإخاء والمساواة معظمهم من وجوه الوطن ونبهائه ، وفيهم فئة كبيرة من ذوى المقامات والعلماء من المسلمين وغير المسلمين ، فقام فيهم الرئيس المحترم خطيبا ، يبين ماهية ذلك الاجتماع ومقاصد الماسونية ، وصفق الحاضرون ونادوا بأعلى الصوت فلتحيا الحرية والمساواة والإخاء ، ثم توالت الخطب للسعى فى ما يوجب سعادة النوع الإنسانى وينقذه من ربقة الذل والعبودية ، وتحالفت القلوب على الانتصار للحق والإنسانية وألا يخافوا فيها أحدا » .

واستمرت صحافة الأفغانى - إذا صحت التسمية - فى هذه الحماسة للماسونية حتى اعتقاله ليلة السادس من رمضان عام ١٢٩٧ هـ (٢٤ أغسطس ١٨٧٩ م) وترحيله إلى الهند بعد يومين .. وكانت هذه الصحافة تقود تيارا ينادى بالحكومة الدستورية الشورية كما كانت تسميها .. ولكن الرجل أقدم قبل أيام من خلع إسماعيل فى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ م على تصرف جرىء أثار انقساما خطيرا بين الماسونيين ، وأنشب معركة حادة بين أنصار توفيق وأنصار حليم ، فقد طلب من سليم نقاش مدير جريدتى « مصر » و « التجارة » أن يصحبه إلى دار القنصلية الفرنسية فى القاهرة كمترجم بينه وبين القنصل الفرنسى حتى يبلغه رسالة مهمة ، وكانت الرسالة تتلخص فى تأييد موقف القنصل الذى سبق أن طلب من إسماعيل التنازل لابنه عن الحكم ، ورد عليه القنصل مطمئنا بأن « التنازل صار أمرا مقررا وشيك الحصول ، على حد تعبير جريدة « مصر » التى نشرت الخبر فى ٢٧ يونيو ١٨٧٩ م . أى فى اليوم التالى لخلع إسماعيل .

ومع أن الجريدة هنأت البلاد لتولية توفيق بعد أبيه فسرعان ما نشبت معركة حامية بين أنصار توفيق ، ومنهم الأفغانى وجماعته أو حزبه ، وبين أنصار حليم من

مؤسسى محفل « كوكب الشرق » فقد اتهم المؤسسون (القنصل الإنجليزى ، ومفتش اللغات الإنجليزى أيضا ، ومترجم القنصلية الشامى وطبيب سويسرى) وأنصارهم من الأوروبيين والشاميين الأفغانى وجماعته بأنهم خرجوا على المبادئ الماسونية وخالفوا قانونها الذى يمنع التدخل فى المسائل السياسية والدينية ومع أن الاتهام صحيح لأن الماسونية تزعم عدم التدخل فى السياسة والدين ، فإن سببه الحقيقى كان عدم تأييد هؤلاء المؤسسين وأنصارهم لتولية توفيق حتى ذلك الوقت ، لأنهم رجعوا عن رأيهم هذا فور إعلان السياسة الإنجليزية عن تأييدها لتوفيق بعد ذلك ، وبدأوا فى محاربة الأفغانى وجماعته ، ورد الرجل وأنصاره على التشهير بهم فى الصحف المعادية ، ولا سيما صحيفة « الوقت » التى حملت عليه حملة شعواء ثم قدم استقالته مع ٤٠ شخصا من أنصاره من المحفل الإنجليزى ، وشرع فى تأليف المحفل المصرى كما سماه ، فاتخذ أعداؤه هذا التكتل الجديد قرينة ضده ، وأوعزوا إلى الخديو أنه ألف جمعية هدامة تسعى إلى قلب نظام الحكم ، وتولية الأمير المغضوب عليه .

كان يرأس الوزارة المصرية فى ذلك الوقت محمد شريف باشا الذى كان من العاطفين على الأفغانى ، وإن كان عطفه أقل من عطف خصمه مصطفى رياض باشا الذى ترك مصر قبيل عزل إسماعيل وأقام فى إيطاليا ولكن الأحداث لم تلبث أن تحركت بسرعة على غير ما يشتهى الأفغانى فلم يمض أسبوعان على انسحابه من المحفل الإنجليزى ومحاولته تأسيس محفل جديد ، حتى وصلت « إرادة » السلطان العثمانى بتولية توفيق رسميا . وعلى الفور أقال الخديو الجديد وزارة شريف التى كانت تطالب بالدستور والحكم النيابى ، وتولى هو بنفسه رئاسة الوزارة الجديدة فى ١٨ أغسطس ١٨٧٩ م . ونشرت جريدة « التجارة » بعد أربعة أيام خبرا عن مثول بعض رؤساء الماسون بين يدى الخديو للتهنئة ومن الواضح أن هؤلاء ما جاءوا للتهنئة وحدها فقد فات ميعادها ، وإنما للتبرؤ من تصرف الأفغانى وإقحامه الماسونية فى السياسة ، واحتكاره الكلام بلسانها ، وإذا ربطنا بين هذا كله وبين اعتقال الأفغانى بعد يومين آخرين من نشر الخبر لأدركنا خطورة تصرفه الجرىء ذاك وإسهامه فى التعجيل بطرده .

وهكذا كان أول قرار لحكومة الخديو الجديدة هو إبعاد الأفغانى عن مصر ، وبعد أيام نشرت الصحف بيانا رسميا حول الإبعاد ولما رفضت جريدة « مرآة الشرق » الموالية للأفغانى نشره صدر أمر بإيقافها ، ولكن البيان ذاته – مع ركاكة لغته – يشير إلى تحركات الأفغانى الأخيرة ويبرر طرده بطريقة مضحكة .. فهو يقول: إن الحكومة «استشعرت بأن هناك جمعية سرية من الشبان ذوى البطش، مجتمعة على فساد الدين والدنيا المضر بالبرية ، رئيسها شخص يدعى بجمال الدين الأفغانى ، مطرود من بلاده ثم من الآستانة العلية لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة فى ديارنا المصرية ، المتحققة بالقبض من أهل الضبط ، والتيقظ والبصيرة والربط ، على أوراق عنده مضمونها شاهد عليه بالتوسل بتلك الجمعية إلى السعى فى جميع القبائح والمفاسد التى لا تخفى على أهل الكياسة ، خصوصا رجال الحكومة المحنكين المدربين على السياسة والرئاسة » .

هكذا أيضا راح الأفغانى ضحية وشايات « إخوانه » من الماسونيين ، ولم يتشفع له أحد . ومع ذلك طلب وهو فى باريس عام ١٨٨٤ م بعد تحريره من منفاه الالتحاق بأحد المحافل الفرنسية ولم يدرك عبث الماسونية إلا فى أواخر حياته ، حين أفضى لتلميذيه محمد المخزومى وعبد القادر المغربى – وهو فى قفصه الذهبى بالآستانة بأنه اكتشف أن الجبن ينخر عظام الماسونية ، وأن شعاراتها استدرجته لكنه وجدها مفعمة بالأنانية وحب الرياسة والأعمال التى تقودها الأهواء .

ومن هذا كله نستطيع أن نخلص إلى أن الأفغانى أقبل على الماسونية بدافع الإصلاح ، مثلما أقبل على غيرها من وسائله كالتعليم والخطابة والصحافة . ولم تكن الماسونية وقتها مكروهة ولا منبوذة فى مجتمع ينوء بالأثقال ويتطلع إلى الحرية والعدل .

قراءة عامة فى تجربة الأفغانى وآثاره

الدكتور إبراهيم حركات
أستاذ بكلية الآداب - الرباط

يتميز القرن التاسع عشر الميلادى بالنسبة للمجموعة الإسلامية بكونه عصر الانبعاث الدينى واليقظة الوطنية تجاه التغلغل الاستعمارى ولقد دشن عهد الانبعاث الدينى منذ القرن ١٢/١٨م انطلاقا من حركة محمد بن عبد الوهاب التى امتزجت هى نفسها بالروح الوطنية بسبب رغبة الحركة فى الاستقلال عن السلطة العسكرية العثمانية . وفتح جمال الدين الأفغانى عينه على الأمة الإسلامية وقد أخذ الاستعمار الأجنبى يقتص أطرافها مواصلا عمله على مرأى من هذا المصلح فى شبابه وكهولته فشمل الاحتلال الجزائر ومصر والسودان ومسلمى الهند وتونس كما بدأ ينشب أظفاره فى جهات أخرى كالمغرب بعد أن سطا بإفريقيا الغربية .

امتدت حياة جمال الدين تسعا وخمسين سنة بالتاريخ الميلادى وأقل من ٦٢ سنة بالتاريخ الهجرى (١٢٥٤ - ١٣١٦ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧) وإذا كان الأفغانى قد جمع بين دراسة العلوم الشرعية والعلوم الحديثة لا سيما الطبيعيات والفلسفة فضلا عن عدة لغات أجنبية فإن الدراسة والفلسفة لم تؤثر فى اتجاهه الإسلامى حتى مع خضوع أفكاره للأسلوب العقلانى والمنطقى فى فهم الأحداث وتبليغها واستيفائها ، وإلى ذلك ، فقد كانت لديه معارف عسكرية جيدة .

وقد بدأ الأفغانى حياته بعد الدراسة سياسيا وختمها سياسيا وبينهما ناضل فى المجال السياسى كما ناضل فى واجهات الدين والعقيدة والتربية والإصلاح ، واستعمل كل الوسائل الممكنة ، فكتب وألف وأسس وشارك فى تأسيس منظمات وجمعيات وألقى الدروس وأجرى اتصالات شرقا وغربا وخطب وتحمل النفى والاضطهاد ولم يغير شيئا من مبادئه حتى نهاية حياته .

بين أفغانستان وإيران :

سواء أكان جمال الدين إيرانيا أم أفغانيا أم يرتبط دما ولحما بالبلدين ، فقد

كان منشؤه بأفغانستان ، وبفضل ما كان لأسرته من جاه قديم فقد ارتبط جمال الدين بعلاقة جيدة مع الأمير الأفغانى دوست محمد خان ، وما لبث أن بلغ منصب رئيس الوزراء وهو دون الثلاثين وذلك لمدة قصيرة وبدأت تبرز روحه الإصلاحية انطلاقا من هذه الفترة ولكن حربا داخلية بسبب العرش ، جعلت جمال الدين يغادر أفغانستان متنقلا بين عدد من الأقطار ومهما حيثما حل بالتنديد بالاستعمار وفضح أساليبه ودعوة المسلمين إلى مراجعة ذاتية شاملة تعصف بجمودهم وتنهض بأفكارهم وتزيح عنهم ذل الهيمنة الأجنبية وفى ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٦ م استقدمه شاه إيران ناصر الدين ورحب به كما لقى تكريما عظيما من الشعب الإيرانى ، وكانت شخصية جمال الدين قد اكتملت وشهرته تجاوزت الأقطار الإسلامية وبالنظر لخبرته الواسعة فقد عينه وزيرا للحربية غير أن شعبية جمال الدين وتوجهاته الإصلاحية ضايقت السياسيين وعددا من الفقهاء ، مما اضطر جمال الدين إلى التعلل بالسفر إلى روسيا لأسباب صحية ، قبل أن يدعوه الشاه من جديد إلى الرجوع ، وهناك أعد مشروع دستور للمملكة الإيرانية ، فلقى قبولا من الشاه ، غير أن حاشيته حذرته من التخلى عن سلطاته ، وأصبح الأفغانى فى وضع حرج جعله يلجأ إلى ضريح معظم قبل أن يأمر الشاه بترحيله إلى الحدود بالقوة وقد أصابه المرض فدخل إلى العراق ، وبدأ حملة تنديد واسعة ضد الشاه وأنصاره الذين يسيؤون إليه ، وإلى البلاد ، ولقيت الحملة آذانا صاغية من شيعة الأفغانى والمتعاطفين معه حتى أن حجة الإسلام ميرزا حسن أصدر فتوى بتحريم التنباك الذى أعطى حق احتكاره لمؤسسة إنجليزية شأن حق تأسيس بنك بريطانى وغير ذلك من وسائل التغلغل الاستعمارى الذى سلكه ساسة آخرون من دول استعمارية كأسبانيا وفرنسا .. ونجح جمال الدين فى وقف التغلغل البريطانى فى إيران على يد أبنائه لكن بفضل حكمته هو ، ومساعيه وموضوعية كتاباته ، وسواء فى أفغانستان أو إيران لم يكن جمال الدين يعمل باسم القومية ولا باسم الحدود الضيقة ، وحتى فى الهند كان يلفت انتباه السكان وخواصهم إلى عدم موضوعية احتلال دولة لها تراب صغير لأمة تعد عشرات الملايين فقد كره جمال الدين الاستبداد من حيث هو سواء كان من الأفراد أم من الدول .

مصر والمسألة المصرية :

زار الأفغانى مصر لأول مرة سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٧٠ م حيث أقام فى القاهرة أقل من ستة أسابيع ، وذلك بعد أن نفته الحكومة الإنجليزية من بلادها وأجبرته على امتطاء باخرة متوجهة إلى مصر ، وأثناء إقامته القصيرة دعاه السلطان العثمانى إلى الآستانة ، غير أن بعض الأطراف التى تعصبت ضده خصوصا شيخ الإسلام حسن أفندى فهمى اضطرته مرة أخرى إلى الالتحاق بمصر فى مطلع ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م حيث قضى ثمان سنوات يمكن اعتبارها أخصب فترات حياة جمال الدين نشاطا وأبلغها تأثيرا ، واتجه جمال الدين توا إلى عنصر الشباب من الطلبة الأزهريين وذى الثقافة الحديثة ، والفئة الأخيرة كانت أكثر إقبالا عليه وتجاوبا معه فى دروسه ومناقشاته ، وفى الأزهريين من تشبثوا به وتأثروا به معجبين ومساندين كمحمد عبده وسعد زغلول ، كذلك أقبلت الجماهير على دروس الأفغانى وخطبه ومحاضراته التى تتناول قضايا الحرية والاستبداد ، وكان لهذه الدروس وما وازاها من نضال داخلى لدى الجماهير والفئات المستنيرة أثر قوى فى إثارة الروح الوطنية لدى الشعب المصرى ، نظرا للحالة السياسية والمالية التى كانت تعانيها البلاد ، ولتدخل الإنجليز فى إدارة شؤونها فضلا عن الفرنسيين أيضا .

وحيث إن دعوة جمال الدين عملت عملها فى عدد من أعضاء مجلس النواب وغيرهم من الزعماء السياسيين فقد تمالأت القوة المعادية لجمال الدين ضده ، وفيهم فقهاء متزمتون وعوام يوهمهم هؤلاء بضلال الأفغانى لأنه يثير مسائل فلسفية فى أحاديثه ، ووجدت الأطراف الاستعمارية بغيتها فى هذا التمالؤ ، فعملت لدى السلطان العثمانى على عزل إسماعيل باشا وتنصيب نجله توفيق الذى ازدادت الأوضاع فى أيامه تفاقما فإلى هذه المرحلة وإلى ما بعدها لم يصل الشعب المصرى فضلا عن الشعوب الإسلامية الأخرى إلى درجة كافية من الوعى السياسى والثقافى لممارسة نقد ذاتى حقيقى يسمح بتجاوز ضغوط مراكز القوى الداخلية فالأفغانى لم تكن له سلطة سياسية نابعة من جهاز ، ولكن كانت سلطته المعنوية تسير فى

اتجاهين أحدهما يجلب المتعاطفين والمقتنعين ، والآخر ينخر سلطة المتخاذلين والخائفين والمنافقين ، وهذا هو الذى تنتظره الجهة الاستعمارية المتربصة للإجهاز على الطرف القوى وتكثيف صفوف المستضعفين وحيث إن توفيق باشا كان يخضع لمشيئة القنصل الإنجليزى العام ، فقد استجاب لرغبته فى طرد جمال الدين من مصر فقادته إلى الهند باخرة كانت فى طريقها إلى هناك ، وتعقبت السلطة أنصار الأفغانى وسائر المعارضين وحتى من تخلفوا من أسرته ، ونفى محمد عبده إلى قريته قبل أن يتوجه إلى بيروت ، وغضب الشعب المصرى لتدخل الإنجليز والفرنسيين فى شؤونه وتحرك الجيش بقيادة عرابى سنة ١٨٨٢ م وكانت الثورة غير مسبوقة بتنظيمات محكمة ، كما أن عوامل خارجية أفشلتها ، لكن حركة الأفغانى بذرت بذرتها لتثمر على مدى أبعد ، ولكل أجل كتاب .

الماسونية وموقف جمال الدين :

لا مجال هنا للحديث عن أصول الماسونية وفى العصر الحديث ظهرت لها رموز وطقوس فعرفت بالماسونية الرمزية ، وورد فى كتاب الأستاذ محمد سلام مدكور عن جمال الدين الأفغانى أن الماسونية الرمزية بمصر ، عرفت مع حملة نابليون سنة ١٧٩٨ م فأسس نابليون محفلا سماه أزيس ، وضم إليه الأعيان والعمد وغيرهم بقصد توطيد نفوذه ، وبرجوع نابليون من مصر انتهى أمر المحفل ، ثم أنشئ محفل آخر سنة ١٨٤٥ م باسم محفل الأهرام بالإسكندرية والتحق به عدد من كبار الشخصيات بينهم الأمير عبد القادر الجزائرى وكان المحفل يرعاه الخديوى إسماعيل ثم توفيق باشا ومن شروط عضويته الإيمان بالله وطاعة الحكومة وشريعتها وكتمان الأسرار إلى جانب الشروط الأخلاقية ، وكان المحفل تابعا لمحفل الشرق بفرنسا ، وعمل جمال الدين على جلب عدد كبير من العلماء والأعيان ، فجمع ثلاثمائة عضو ، وما لبث الجمع أن توسع بساسة وأدباء وعمد إلى عقد اجتماع سرى نوقشت فيه أوضاع مصر ، وعلى أثره تقرر إنشاء الحزب الوطنى الذى وضع برنامجا طالب فيه بإصلاحات اجتماعية ودستورية واقتصادية ، كما طالب باعتبار

المراقبة الأجنبية للسيادة المصرية مؤقتة يجب أن تزول فى أقرب وقت .. وهذا الحزب هو أصل الحزب الوطنى الذى أنشأه مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ م ، وكان الذى تقدم ببرنامج الحزب المنبثق عن الحركة الماسونية هو جمال الدين مع وفد من الأعضاء الذين اتصلوا بالقنصل الفرنسى والجهات البريطانية وكان الإمام محمد عبده من أعضاء المحفل .

والماسونية لم تكن بعد قد تسرب إليها النفوذ الصهيونى وهيمنته ، كما أن دخول شخصيات لا يجادل فى تقواها وبعد نظرها وذكائها إلى محفل سرى كهذا بدون أن يصدر عنها ما يشين مبادئها الأصلية أو يمس بسيادة بلادها قد يكون له الكثير من الإيجابيات ما لم يثبت العكس .. وقد تعود المسلمون بالنظر لروحهم المحافظة وخشية من القيل والقال أن لا يتسربوا إلى أوساط الآخرين بينما يندس الآخرون بين صفوف المسلمين بكل وسيلة بل إن المحافل الإسلامية تفتح صدورها للغير دون أن يكون للمسلمين أنفسهم من الشجاعة والثقة ما يقتحمون به كل الأوساط وهذا مع استثناءات أغلبها يصبح تابعا مطيعا ، أما حال جمال الدين الأفغانى ورفقائه اللامعين فليست من هذا الصنف .

الفكر السياسى والدينى عند الأفغانى ومحمد عبده :

محمد عبده تلميذ لجمال الدين الأفغانى وغرس يده ، فقد أثر فيه ثقافيا وفكريا وسياسيا ونقله من المؤثرات الصوفية إلى فلسفة التصوف ثم إلى الفكر السياسى والتجريدى ولكن محمد عبده يعترف بأيادى جمال الدين عليه وعلى كل مصر والعالم الإسلامى ، وبالمقابل فمحمد عبده له شخصيته المتميزة التى تزن الأمور باستقلال أكثر . وحتى بوجهة نظر مغايرة فى بعض القضايا الرئيسية .

وهكذا فالأفغانى يستأثر به المجال السياسى أكثر من غيره وليس دون غيره ، ومحمد عبده يستأثر به الجانب الدينى أكثر من غيره وليس دون غيره ، وعندما يعالج الإمام الجانب الدينى فليس بطريقة الوعظ والإنذار ، بل بالرزانة والحكمة والعقل . وهذا من تأثير أستاذه على أن حرارة العاطفة تستشف لدى التلميذ أكثر منها لدى شيخه ، وكلاهما عميق الإيمان .

ومن أهم الفروق بين الرجلين أن الأفغانى ذو روح ثورية تناهض الظلم

والاستبداد وتلاحق أشخاصهما بالتشهير والتنديد وتحذير الجماهير ، أما محمد عبده فتجاذبته الروح الثورية والعزوف عن النشاط السياسى لفائدة العلم والتربية حسب الظروف ، وذلك فى الوقت الذى بدأ فيه الأفغانى ثوريا وانتهى ثوريا ، وقد عاتب الشيخ تلميذه عندما انتقل فى أخريات حياته إلى إسطنبول بعد أن لاحظ فتور حماسه وحذره من الاصطدام بالإنجليز .

وانصب اهتمام الشيخ محمد عبده على أوضاع مصر وإذكاء الروح الوطنية بها لأن ظروف البلاد كانت تقتضى من أبنائها أن يعالجوا قضاياها وهى قلب العالم العربى والإسلامى ، وموقعها البالغ الأهمية فى الربط بين القارات يسيل لعاب الأطراف الاستعمارية ، وهذا مع كون الشيخ محمد عبده وضع القضية الدينية فى عمق اهتمامه ، أما الشيخ الأفغانى فأنشأ فكرا إسلاميا سياسيا للمجموعة الإسلامية ككل واتجه توا نحو الدسائس المنافقة التى تتعامل معها بين المسلمين كما عنى بلفت أنظار المسلمين إلى امتلاك حريتهم الداخلية والخارجية معا وبسلوك السبيل الأقوم لمسايرة الركب الحضارى وهو التصنيع والعلم الحديث ، دون التضحية بالقيم والتقاليد الحسنة ، ولم يلتفت الأفغانى إلى القوميات فى حد ذاتها ، وحتى عندما فعل نادرا ، فمن أجل تعزيز الوحدة لا من أجل فصمها ، كدعوته لوحدة الأفغان مع إيران بالنظر للرباط المشترك جغرافيا وثقافيا ودينيا .

وإذا كان محمد عبده يتجه إلى النخبة بالدرجة الأولى فالأفغانى يخاطب المجموعة الإسلامية ككل ، ويضع فى اعتباره أهمية الفئات الشعبية فى مساندة أفكاره الوحدوية والسير فى طريق تنفيذها ، ومن ثم فهو يناصر بقوة التوجه الديمقراطى والشورى فى الحكم ، وذلك لا يتم إلا بإقرار دساتير فى الأقطار الإسلامية تضع الناس جميعا فى مستوى واحد أمام العدل والقانون ، ويسلك الأفغانى كل الطرق الواضحة حتى الثورية منها للعمل على تمكين الأقطار الإسلامية من ارتجاع سيادتها وتخليصها من مخالب الاحتلال .. ولذلك ساند بعزم حركة المهدى بالسودان مع أن توجهاته وأبعاد مبادئه تختلف فى كثير من أسلوب هذه الحركة والذى ربما كان ضرورة ظرفية لا يمكن أن تطبق عليها الأساليب الثورية فى المجالات السياسية والاجتماعية ، وإن كانت حركة المهدى نفسها ثورة نضالية .

الجامعة الإسلامية والعروة الوثقى

هذا هو الجزء الثانى من مساهمة الدكتور إبراهيم حركات أستاذ كلية الآداب فى الرباط عن تجربة جمال الدين الأفغانى ..

الجامعة الإسلامية :

نضجت فكرة الجامعة الإسلامية لدى جمال الدين الأفغانى وهو دون العشرين عندما انتقل لأول مرة بين عدد من الأقطار العربية وأدى فريضة الحج .

واستغل فرصة اجتماع الحجاج من كل البقاع الإسلامية فعمل على إنشاء جمعية أم القرى والتى يمثل أعضاؤها مختلف الأقطار الإسلامية وكان يرى أن الأمة الإسلامية يجب أن تنشئ وحدة روحية ونضالية ضد الاستعمار من أجل محاربة التخلف ولذلك فالفكرة لدى الأفغانى تتجه إلى وحدة الشعوب الإسلامية نفسها ، دون أن يعمل على وضع مشروع لهياكل هذه الوحدة لأن المسلمين غالبيتهم إما تحت الاحتلال أو مهددون به بما فيهم الأتراك ، غير أن فكرة الجامعة الإسلامية والتى لا تزال حتى يومنا هذا لم تختمر على نطاق الشعوب ، مع كونها قطعت أشواطا مهمة فى المستويات السياسية العليا ، لم تكن قيادتها لقومية ولا لدولة بعينها لكن السلطان العثمانى عبد الحميد تبناها لنفسه بينما ظهر الكواكبى فيما بعد ، يبعث فكرة الجامعة الإسلامية على أساس أن تقودها أيد عربية ، وكأن فى هذا الاتجاه إحياء للاتجاه الأموى القديم والذى يعطى للقومية العربية تميزا كانت الظروف التاريخية وطبيعة الثقافة الإسلامية تقتضيه أو تسمح به .

أما فى عصر الكواكبى نفسه فإن أحسن ما فى اتجاه هذا المصطلح هو المزج بين القومية العربية ودولية الأمة الإسلامية ، لكن الفكر القيادى لجنس دون غيره يبعد هذا التعايش عن المنظور الديمقراطى الذى دافع عنه الكواكبى بحماس واقتدار ، مثلما دافع عنه سلفه الأفغانى ، وهو أيضا معاصره ، أما السلطان عبد الحميد فقد كان يواجه عداء الدول الأوروبية التى لم تكن مرتاحة للسيادة العثمانية ولا تسمح بنشأة جامعة إسلامية قوية ، وهذه السياسة لا تزال قائمة .

العروة الوثقى :

ضمت جريدة العروة الوثقى والتى أصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده

١٨ عددا نشرت فى باريس كما هو معلوم وانتهت مع نهاية العام الأول من القرن الرابع عشر الهجرى ، وهى فى الواقع مجلة أسبوعية ولو أنها صدرت باسم جريدة والمحاور الرئيسية لمجموع الأعداد هى :

١ - الأوضاع الإسلامية وانحطاط المسلمين .

٢ - الوحدة الإسلامية .

٣ - أسلوب الحكم ونظرات حوله .

٤ - قضية السودان .

٥ - المسألة المصرية .

٦ - الدولة العثمانية .

٧ - السياسة الإنجليزية عموما .

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : « وقد أخذت هذه الجريدة من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ما لم يأخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه ، وهى ذات أثر فى كل ما جد من حركات الوطنية والحرية فى بلاد الشرق » .

ويمكن أن يضاف على سبيل المثال ، أن الحركة السلفية والحركة الوطنية بالمغرب كان أفرادها يتداولون العروة الوثقى فى الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين كمستند يحظى بنوع من القداسة ويرجع إليه فى مدارسة القضايا الوطنية الإسلامية .

وحسب الدكتور محمد عمارة فى كتابه عن الشيخ محمد عبده كانت كل الأفكار الأساسية فى العروة الوثقى للأفغانى ، والصياغة والترتيب لمحمد عبده الذى لم يكن فى قرارة نفسه مرتاحا لدوره هذا غير أن معظم الأفكار فيما يبدو يلتقى فيها الرجلان وهما يواجهان نفس العدو يعانيان الكثير من الهموم المشتركة وإن كان بينهما خلاف فيما يخص أسلوب التعامل مع قضية الوحدة الإسلامية .. وأسلوب الحكم فى الأقطار الإسلامية .

ومن الأمور التى أثارتها العروة الوثقى بشأن السودان ما تردد بمنطقة طشقند الروسية من أصداء عن انتصارات عرب السودان فى بعض مواجهاتهم مع الإنجليز وظهور داع جديد بطشقند يدعو إلى ثورة على الحكام هناك .. وتتبعت الجريدة أخبار المقاومة الوطنية فى السودان بكثير من التركيز والضبط .

بينما شغلت المسألة المصرية جزءا كبيرا من اهتمامها خصوصا فى المجال الإخبارى ، وهو ما يقال أيضا فى السياسة الإنجليزية لا سيما بمصر ، وكذا فى مناطق أخرى كالهند وإيرلندا ، أما اتجاه الدولة العثمانية فتبقى سياسة الجريدة متحفظة وأحيانا مدافعة عن وجهة نظر هذه الدولة وفى ذلك يتفق محمد عبده وجمال الدين الأفغانى محافظة على مبدأ الوحدة الإسلامية وعدم تقديم فرصة للأطراف المعادية حتى لا تتخذ من منطق الجريدة حجة فى هذا المجال إن كانت لغير صالح الدولة العثمانية .

ومن أهم ما يمكن أن يؤخذ على الأفغانى أنه فيما عدا مصر والسودان لم تأخذ أوضاع الشعوب الإسلامية وأقطارها بإفريقيا بنصيب يذكر من اهتمامه مع أنها كلها إما تحت الاحتلال أو تواجه التغلغل الاستعمارى اقتصاديا على الأقل ، وهذا فضلا عن تخلفها الشامل ، وقد كانت فرصة إصدار العروة الوثقى مناسبة ممكنة للفت أنظار العالم ، خصوصا المجتمع الإسلامى الواسع ، إلى أوضاع المسلمين ومعاناتهم فى القارة الإفريقية عموما ، لكن لا جدال فى أن قبس الثورة الفكرية التى أعلنها جمال الدين الأفغانى أشع بنوره حتى عبر المجاهل الإفريقية من طريق كتاباته التى تنبض حنينا إلى الحرية والوحدة .

خطاب الأفغانى وتجربة النخبة فى تونس

دكتور أحمد النيفر

جامعة الزيتونة – تونس

« التقيت هنا بالعلماء والأمراء فتعرفت عليهم وقلت لهم : ليست « العروة الوثقى » اسم جريدة فقط بل هى قبل ذلك اسم لجمعية أسسها سيد جمال الدين الأفغانى فى حيدر آباد بالهند ولها فروع سرية فى بلاد كثيرة ، فأعلمتهم بأننا نرغب فى تأسيس فرع لها بتونس فقبلوا ، وأنا أسعى لتكوين هذا الفرع من العلماء وأعتقد أنه لا مجال للخوف لما يتسم به أولئك العلماء من غيرة ودفاع وسيحافظون على سرية هذا الفرع ، ولو وقفتم بأنفسكم على مدى إكرامهم لى لسعدتم كل السعادة »[1] .

هذه فقرة من رسالة بعثها الأستاذ الإمام محمد عبده من تونس بتاريخ ٢٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٨٤ م إلى السيد جمال الدين الأفغانى فى باريس يعلمه فيها بتفاصيل مهمته التى قدم من أجلها إلى تونس ، والواضح من هذه الفقرة أن الأستاذ الإمام فوجىء مفاجأة سارة من إقبال النخبة التونسية على مشروع الجمعية المناهضة للاستعمار الأوروبى ، من الجلى – إذن – أن زعيمى الإصلاح لم يكونا يتوقعان مثل هذا الاندفاع من قبل علماء عرف نظراؤهم فى العالم الإسلامى بمهادنة الأوضاع السياسية القائمة واستسلامهم للبدع والخرافات التى كانت تطغى على الحياة الدينية الشعبية ، هذا الاكتشاف الذى تحقق إثر الزيارة الأولى لمبعوث السيد جمال الدين لم يزدد مع الأيام إلا وضوحا إذ تحول عند الأستاذ الإمام إلى قناعة راسخة عبر عنها دون مواربة حين دعم صلاته مع القيادة الفكرية التونسية واهتم بمشاغلها على صفحات « المنار » ثم لما عاد ثانية إلى تونس خريف سنة ١٩٠٣ م ، لقد اكتشف زعيما الإصلاح أن النخبة التونسية أشد قبولا للرقى من المصريين[2] ، وأن مبدأ الإصلاح حاصل فى عموم صفوف النخبة

---

(١) الدكتور على الشابى – صلة النخبة التونسية بجمال الدين الأفغانى – المجلة التاريخية المغربية عدد ٨٥ و ٨٨ يناير ١٩٧٨ م ص ٤٥ .

(٢) محمد الطاهر بن عاشور – أليس الصبح بقريب – الشركة التونسية للنشر – تونس طبعة ١٩٧٦م ص ١٨١ .

لكنه يحتاج إلى مزيد من الرعاية قصد فتح المجالات العلمية لدعمه و المساهمة فى توسيع آفاقه .

والواقع أن من يقارن ما تعرض له الخطاب الإصلاحى من عنت ومقاومة فى مصر وتركيا مثلا وما لقيه من تقبل فى القطر التونسى يمكن من القول أن الأفغانى وعبده اكتشفا فى تونس البيئة النموذجية وأنهما كانا سعيدين باكتشافهما سعادة لا تعادلها إلا سعادة النخبة التونسية بعثورها على الجواب العملى المتصل بكيفية مواجهة الأوضاع المتردية فى تونس والعالم الإسلامى .

كانت العناصر الفاعلة فى النخبة التونسية تطلع بشغف زايد إلى ما تنشره العروة الوثقى فتجد فيه ما يؤكد وجهتها الإصلاحية العريقة وما يبدد بعضا من مخاوفها ويحصنها بشىء من الطمأنينة على أن نبض الأمة لم يتوقف ، كانت النخبة فى تونس تقرأ كلمات العروة الوثقى فيعود لها الأمل مضاعفا : الأمل فى أن ما ابتدأ من يقظة منذ مطلع القرن التاسع عشر فى الربوع التونسية لم تتمكن الأيام والأهوال من إتلافه والأمل فى أنه لم يقتصر على قطر أو اثنين بل إن صداه أصبح يتردد فى ربوع البلاد العربية الإسلامية، كانت العروة الوثقى – مجلة ثم مشروعا للإصلاح والتغيير – أحسن مكافأة كان يمكن أن تقدم لهذا الجيل من النخبة التونسية الذى درس فى الجامع الأعظم – جامع الزيتونة – ثم أدرك من خلال المهام السياسية والإدارية والدينية التى تولاها أن عليه مهمات جساما جاءت العروة الوثقى لتخفف من ثقلها فإذا كان المصلحان الكبيران – الأفغانى وعبده – قد اكتشفا تونس فإن النخبة التونسية قد اكتشفت – من خلال مشروعهما – نفسها ومشروعية العمل الريادى الذى بدأه منذ ما يقارب القرن ، رجال من أمثال قابادو وابن أبى الضياف وبيرم الخامس وغيرهم .

كان كل شىء فى العروة الوثقى وفى مشروعها يغرى النخبة التونسية بالانفتاح عليها والدفاع عنها والقطع مع مرارة التخاذل الذى كرسته المصائب المتوالية على البلاد الإسلامية عموما وعاصمة الخلافة خصوصا ، كانت النخبة التونسية تقرأ ما كان يكتبه المصلحان فى العروة الوثقى فترتفع آخر الغشاوات من على الأعين ويتأكد عندها أن الحلول لن تأتى إلا من النخبة المسلمة والعاملة ذلك أن

« الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها فأيقظت أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التى أدت إلى ما هم فيه فتقاربوا فى النظر وتواصلوا فى طلب الحق وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف » ، لقد أنهى « الأفغانى وعبده » حيرة النخبة التونسية الناجمةعن دخول الجيوش الفرنسية إلى تونس ، كانت أنظار النخبة متجهة إلى عاصمة الخلافة العثمانية تتوقع منها نجدة سريعة ، لكن الباب العالى كان يتخبط فى مشاكل قاتلة حالت دون تقديم أى عون للولايات الإسلامية التى كانت خاضعة له .

جاء خطاب السيد جمال الدين لينهى الانتظار العقيم ويدفع بالعلماء والنخب فى تونس وفى غيرها لتتولى أمرها وتجمع شعثها لمواجهة الرزايا المتلاحقة عليها ، يقول « محمد السنوسى » معبرا عن هذا الاختيار الجديد الذى مثله المصلحان بالنسبة للنخبة التونسية والذى أنهى مرحلة توقع الحل من دار الخلافة : « ... الأمة العربية محتاجة إلى لسان معرب عن الداء الذى تكنه فى الجنان ، ينقذها من الانقياد إلى العميان بل إنها إليه أحوج من حاجتها إلى الماء والهواء إذ لم تجد بدونه متنفسا ولا مساغا للارتواء حتى أتاح هذا الدهر بصاحب العرض الأنقى هذا الهاتف الذى صدع للأمة باسم العروة الوثقى .. ناهيك من عروة يتمسك بها أهل الهدى ويتقون بها الردى وينيطون بها أمل الحياة فلا يذهب سعيهم سدى »[٣] .. هكذا نفهم حفاوة النخبة التونسية بمقدم الأستاذ الإمام إلى تونس وبما عرضه عليهم من الانضمام إلى التنظيم الدولى البديل الوحيد عن القيادات السياسية العاجزة والمتهالكة[٤] .

العلماء والأمراء :

كانت النخبة التونسية إذن تقف مع مشروع المصلحين الكبيرين لتكون عراقة ماضيهما الإصلاحى والتحديدى ولتكتشف أفق الحل العملى الذى يخرجها من

---

(٣) مجموعة العروة الوثقى – دار الكتاب العربى – بيروت ١٩٧٠ م ص ٤٦ .

(٤) انظر الدكتور على الشابى المذكور آنفا .

التخوف والحيرة ، وكان الأستاذ الإمام فى ذات الوقت يضع أصابعه على جذور هذه الخصوصية التونسية التى جعلته يكاشف بها تلميذه الأستاذ رشيد رضا بما وراء سبق « مسلمى تونس » لأهل الأزهر لافتا نظره لضرورة بحث وضعية علماء الزيتونة وسرريادتهم[٥] . وهذا ما يفسر عناية رجال الإصلاح وإكبارهم لما يحصل فى تونس سواء صدر عن الخط المحافظ[٦] أو عن الخط التجديدى .

والواضح أن التقاليد العلمية والأوضاع الاجتماعية فى تونس الحديثة والمعاصرة مكنت لعدد من علماء الزيتونة مباشرة الحياة العامة فتقلبوا فى المناصب السياسية العالية وتولوا المهام الإدارية واختلطوا بكبار رجال الدين وكانت حصيلة كل هذا نضجا فكريا واستعدادا واعيا لدعم كل توجه إصلاحى وعقلانى .

غير أن هذا لا يعنى فى شيء أن عموم النخبة التونسية كانت مساندة للمسار الإصلاحى ، فقد كان هناك من يعتبر كل تجديد مسا مباشرا للتقاليد بل للدين نفسه فيرفضون تطبيق أى قانون جديد باعتبار أن ذلك سوف ينتج تحولات تطيح فى نهاية المطاف بالإيمان وكان أهم ركيزة لهذا التوجه هى الطرق الصوفية التى تمكنت من تأطير حقيقة للحياة الدينية والشعبية فى الأرياف والبوادى بعيدا عن كل منهج معقلن إزاء هذا كانت هناك فصائل من النخبة المتعقلة التى تقطن المدن والتجمعات الحضرية والتى تعتبر بحكم تكوينهم الإسلامى المعقلن أن هذه التحولات أو تلك قابلة للنقاش على شرط ألا تخفى مزيدا من التوسع فى هيمنة السياسى على المدنى والواضح أن هذه الفئة كانت تردد مقولة قديمة برزت فى العالم الإسلامى عند ضعف الدولة العباسية بلورها عدد من العلماء من أشهرهم « ابن عقيل » و « ابن الجوزى » إنها مقولة تقوم على إدانة السياسة التى طغت على الشريعة لكن المخاطر الأوروبية الزاحفة على تونس طيلة القرن التاسع عشر حولت كثيرا من مواقف النخبة الحضرية كما قلصت من نفوذ الخطاب الصوفى .

لقد صاحبت التحولات السياسية الدولية تحولات هامة على مستوى الفكر الدينى والسياسى التى تحمله النخبة الحضرية فى تونس ، إنها أدركت بمستويات

---

(٥) رشيد رضا – علماء تونس ومصر – مجلة المنار الجزء الأول المجلد العاشر مارس ١٩٠٧ م ص ٧١ .

(٦) انظر على سبيل المثال رشيد رضا – المنار والأزهر – مطبعة دار المنار – مصر ١٣٥٣ هـ ص ٢١ و ٢٢ ما تحدث فيه عن الشيخ محمد البشير النيفر .

متفاوتة ، ولكن بشكل قطعى ، أن الخطر الاستعمارى ماحق وأنه لابد من مواجهته عن طريق تغيير نوعى فى الخطاب والمواقف السياسية .

يقول رشيد رضا مبينا الفروق العميقة بين نخبة تونس الزيتونية وبين علماء مصر الأزهريين : « ... هذان الوزيران (العزيز بوعتور ويوسف جعيكا) من أشهر المتخرجين من ذلك الجامع .. كان (بوعتور) نابغا فى العلوم العربية والدينية ويعد من طبقة أهل الترجيح فى الفقه ، وكذلك وزير القلم الجديد وهو الشيخ يوسف جعيكا فهو قد درس فيه ثم اشتغل بالسياسة وتقلب فى المناصب حتى صار اليوم وزير العلم والاستشارة ، فهذان الوزيران قد دخلا باب السياسة وهما شيخان زيتونيان بكل معنى الكلمة – كما يقول الغربيون – حتى ارتقيا إلى منصة الوزارة فهل يخطر فى بال أحد من مدرسى الأزهر أن يستعد لمثل ذلك حتى يكون أهلا للوزارة أو لما دونها من أعمال الحكومة ؟ كلا إن أحدا منهم لايفكر فى مثل هذا الاستعداد ولو فعله أحد لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا فى العلم والدين »[٧] .

إن الإعراض التدريجى عن مقولة ابن الجوزى وابن عقيل جعل منذ وقت مبكر رجال النخبة التونسية يقطعون مع العزلة التى غمرت علماء المسلمين فى المشرق قرونا متوالية ، لقد أدركت النخبة فى تونس خاصة والغرب الإسلامى عامة أن ظروف انعزال القيادة الفكرية الإسلامية عن القيادة السياسية قد ولت وانقضت ، لقد كانت المخاطر الأوروبية الماثلة والمحدقة خير حافز للتكامل بين الدينى والسياسى بعد أن عاش العالم الإسلامى فصلا للدين عن الدولة بشكل فعلى ، فمنذ أن توفى أبو حنيفة فى السجن وضرب مالك حتى شلت يداه ومنذ أن التجأ الشافعى إلى مصر هربا من حاكم بغداد وعانى ابن حنبل من رجال الدولة الأمرين ، منذ ذلك الوقت ولعدة قرون أرست النخب المسلمة تقاليد « لائكية » الشكل قبل ظهور اللائكية الحديثة فى الغرب الأوروبى .

هذه « اللائكية – الشكلية » ، ساهمت إلى حد كبير فى جعل القيادات

---

(٧) المرجع السابق .

السياسية مستهينة فى فعلها بالشرع لا تطلب من رجاله سوى التبعية المطلقة إكسابا لحكمها صبغة الشرعية ، وهو ما أدى فى ذات الوقت بالنخب المسلمة إلى انفصال فعلى عن الحياة السياسية وسبر أغوارها والإغراق فى المسائل الفقهية الجزئية ومن ثم التشبث بالصورة التاريخية للحكم فى فترته السالفة دون أى قدرة على إبداع صور جديدة للحكم مع ما يلزم من فكر سياسى ملائم .

فى الغرب الإسلامى ، وفى تونس خاصة ، جرت الأمور فى الفترة الحديثة المعاصرة فى وجهة مغايرة وهذا ما يفسر إقبال النخبة التونسية على مشروع السيد جمال الدين الأفغانى الذى دعا فى جانب رئيسى منه إلى إعادة اعتبار العلماء بإقحامهم فى صلب الحياة العامة وتحولهم إلى القطب المناظر للسلطة السياسية ضمن البناء المجتمعى للأمة ، وهذا ما كان يعنيه حين كان يتحدث بمرارة عن « انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة »[٨] .

هذا الاختيار التجديدى كان واقع النخبة التونسية قد مارسه فعلا طيلة القرن الماضى وهو ما مكن من إرساء عمل إصلاحى وتحرك نهضوى مبكر فى القطر التونسى ، فهو الذى مكن للشيخ أحمد ابن أبى الضياف من اعتباره أن « الاجتهاد لا ينقطع »[٩] وهو ما أتاح للشيخ بيرم الخامس (١٨٤٠ - ١٨٨٩ م) من تجذير الحركة الإصلاحية الكبرى للوزير خير الدين التونسى (١٨٢٠ - ١٨٨٩م) وهو ما أتاح للمجلس الشرعى سنة ١٨٧٩م من مطالبة الباى بمجلس للشورى لمقاومة الاستبداد «الذى لم ينزل الله به من كتاب»[١٠]، ولم تزد الحماية الفرنسية (١٨٨١ م) النخبة التونسية إلا إصرارا على تعميق وعيها ضمن حركة وطنية عقلانية متنامية . وهو ما جعلها ممتدة إلى الخمسينيات من هذا القرن فى حين نجدها تراجعت فى المشرق لتخلفها بعد وفاة الشيخ رشيد رضا أطروحات تقليدية فى فكرها الدينى متصالحة مع التصوف فى منهاجها التربوى ورافضة لكل

---

(٨) مجموعة العروة الوثقى المذكورة آنفا - مقال انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك ص ٣٣ .

(٩) الطيب العنابى - وثائق تونسية - حوليات الجامعة التونسية - عدد ٤ سنة ١٩٦٧ م ص ١٥٣ - ١٥٥ .

(١٠) محمد الصالح مزالى - أحوال تونس قبل الاحتلال - الدار التونسية للنشر ١٩٧٢ م ص ٤٩ .

تجديد على مستوى فكرها السياسى والاجتماعى . وهو ما يمثل تراجعا خطيرا بالنسبة لخطاب جمال الدين والأستاذ عبده ومجلتا العروة الوثقى والمنار شاهد على ذلك وبالتالى لخطاب التحرك النهضوى المتقدم فى الغرب الإسلامى مع ما يعنيه من تجاهل لتحديات العصر .

لقد قدم الأفغانى وعبده مشروعا إصلاحيا من جهة الخطاب وأشكال العمل التغييرى ، لكن تفاعل النخبة الإسلامية لم يكن واحدا معه ففى حين نجده يلقى كل العناية والتطوير فى الغرب الإسلامى ، وتونس أفضل مثال على ذلك ، نجد أثره كان سلبيا إلى حد كبير فى المشرق العربى وهو ما يجب أن يراعى فى محاولة فهم ما يسمى اليوم « الصحوة الإسلامية » .

في نقد الأفغاني للغرب

قراءة في « رسالة الرد على الدهزيين » :

بقلم الدكتور كمال عبد اللطيف

أستاذ بكلية الآداب – الرباط – المغرب

يحتل جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ – ١٨٩٧ م) مكانة متميزة في تاريخ الدعوات الإصلاحية التي برزت في القرن الماضي . وقد ساهم صحبة الشيخ محمد عبده في تأسيس تقليد فكري إصلاحي تطلق عليه تسميات متعددة ، منها النزعة الأصولية ، الدعوة السلفية ، تيار الجامعة الإسلامية والهوية الإسلامية .

ورغم الدور الكبير الذي لعبه الأفغاني في فجر الفكر الإسلامي المعاصر فقد ظلت تحوم حول شخصيته وخطاباته كثير من الشبهات خاصة وأنه قد جمع بين الالتزام العقائدي الإسلامي والممارسة الفاعلة في أكثر من بلد إسلامي حيث عاش في بلاد الأفغان والهند وتركيا ومصر كما عاش في بعض العواصم الأوروبية ، وكان يعرف في كل محطة من المحطات الجغرافية المذكورة أتباعا ومريدين ومجادلين ، مما يدل على قوة الشخصية التي كان يتمتع بها ، وقوة الدعوة التي حاول صياغتها ، كما حاول تجسيدها في الواقع .

نقرأ لأحد دارسي الأيديولوجية العربية المعاصرة ما يعبر عن قوة والتباس دعوة هذا المصلح .. « لم يكن الأفغاني عربيا ، وكان يحمل إلى العرب نتائج تجربة ميدان ثقافي آخر : ميدان مسلمي الهند وكان يتحدث إليهم قبل أن ينشغلوا فعلا بقضايا مستقبلهم وقبل أن يضطروا فعلا لمواجهة هذه القضايا ، وكان وهو العبقرية الحقيقية يختصر بنظرة واحدة ما سيكشفه لنا بعد ذلك تاريخ نصف قرن ، مرحلة فمرحلة ، وكان تعبيره غامضا بالنسبة للمستمعين إليه لفرط ما يتضمنه كلامه من علم مسبق ، وقد نقل تلامذته المباشرون أفكاره لكنهم لم يفهموها البتة » . (عبد الله العروي) (الأيديولوجية العربية المعاصرة ص ٦٠) .

واضح مما سبق أننا أمام فكر يتبلور فى لحظة تمزق تاريخى عنيف ، يتعلق الأمر بالتمزق الذى عرفه العالم الإسلامى فى القرن ١٩ بحكم الهجوم الإمبريالى الذى حوله إلى مجال اقتصادى غير مستقل كما فكك بنياته الاجتماعية والسياسية .

ولم يكن التمزق الذى عرفه العالم الإسلامى مجرد تمزق اقتصادى اجتماعى حتمته الهيمنة الإمبريالية ، بل إنه كان أيضا هجوما ثقافيا حيث اكتسحت الثقافة الأوروبية العالم الإسلامى بموازاة انتقال الأسلحة والسلع والمواد الخام معبرة عن كلية التفاعل التاريخى اللامتكافئ الذى عرفه العالم وتسبب فى ميلاد زواج من المفاهيم المتقاطعة من قبيل الشرق والغرب ، التأخر والتقدم ، الإسلام والنصرانية ... إلخ ، وقد حاول الأفغانى مع مجموعة من المصلحين المعاصرين له التعبير عن جدلية هذه اللحظة فى تشابكها وتعقدها التاريخى .

(نذكر من معاصريه ممن حاولوا الإمساك بروح هذه اللحظة وتجسيدها أيضا الطهطاوى ومحمد عبده وفرح أنطون وأديب إسحاق وغيرهم) .

ومن هنا الطابع المنفعل لكل ما كتب الأفغانى ، فقد حاول بلورة عناصر فى الرؤية الدفاعية التى تتطلبها وضعية مجتمع متأخر تاريخيا ، ومتأخر بفعل جبروت القوة العسكرية والاقتصادية والفكرية التى كانت تحملها أوروبا الطاغية والغازية (الوجه الإمبريالى للغرب الأوروبى) .

فالطابع السجالى الذى يطبع أهم ما كتب الأفغانى يندرج فى سياق محاولته لمواجهة ونقد الهيمنة الأوروبية بكل أبعادها ومؤثراتها فى الوجود التاريخى للعالم الإسلامى .

لقد خاطب الأفغانى فى كتاباته مسلمى العالم قاطبة ، وحاول أن يحيى فى نفوسهم الطابع الكونى لرسالة الإسلام .. كما حاول مواجهة كل الذين اعتقد أنهم يتربصون قولا وفعلا بعالم الإسلام فهاجم الاستعمار والمستعمرين ، وهاجم الدهريين والماديين ، ودعا إلى ضرورة إعطاء الاعتبار الأول من الحضارة الإنسانية للدين والقيم الأخلاقية .

نشر الأفغانى مؤلفاته فى صورة خطابات ورسائل صغيرة ولعل أهم ما كتبه فى

نظرنا هو « رسالة الرد على الدهريين » ورسالته فى الرد على رينان وهى بعنوان « الإسلام والعلم » .

لا يعنى هذا أننا لا نعترف بأهمية نصوصه الأخرى من قبل « العروة الوثقى » ورسالته « القضاء والقدر » وشذراته التى جمعت تحت عنوان « خاطرات جمال الدين الأفغانى » فهذه النصوص تمتلك طعما مخالفا لطعم النصوص الأولى ، وهى تحدد مجال الكتابة الأفغانية فى مستوياتها المتعددة ، إننا نغض الطرف عنها ونتجه صوب ما نريد أن يشكل مجالا لنقدها لكتابة الأفغانى ، أى صوب المجال المؤسس لرؤيته وموقفه من الغرب .. ولعل رسالة « الرد على الدهريين » هى النص الممثل لهذا الموقف ، ولهذا فإننا سنقف عنده لنقدم محتواه ونحاور الأسس الفكرية المعتمدة فى صلبه .

فما هى الخطوة العامة لهذه الرؤية كما تقدمها رسالة « الرد على الدهريين » ؟ وكيف يتصور الأفغانى الغرب ؟ ثم كيف يفكر فى كيفية تجاوز المسلمين لأحوال تأخرهم ؟

يؤسس خطاب الأفغانى فى رسالة « الرد على الدهريين » موقفه من الغرب ومن أسس المعاصرة المتحققة فى حاضره ، كما يؤسس فى الآن نفسه أسس دعوته المتجهة نحو إعادة فهم الإسلام كاختيار حضارى قادر على منح المسلمين القوة والمنعة اللازمتين للحضور التاريخى المبدع والفاعل فى العالم .

لكن الأفغانى فى نقده للغرب ، وفى سعيه للتجديد الإسلامى كان يقدم اجتهادات تتعلق بتجربته الذاتية ، وتجربة الظرفية التاريخية التى تؤطرها وتصوغ لها الحدود والآفاق .

وقبل أن نقدم قراءتنا الخاصة لنص من نصوص هذه التجربة ، نريد فى البداية الإشارة إلى أهم محتويات هذه الرسالة . عسى أن نتمكن فى النهاية من إبراز الدور الذى لعبه الأفغانى وما زال يلعبه فى تأطير الفكر الإسلامى المعاصر ، عسى أن نتمكن ثانية من كشف محددات البنية العامة لهذا النص .

يقول منطوق مقدمة رسالة « الرد على الدهريين » أن الرسالة كتبت لتجيب

على سؤال يتعلق بمعنى الدهرية ، وكيفية مقاومة انتشار الفكر الدهرى ، ويكتب الأفغانى جوابه بالفارسية ، ثم يترجمه محمد عبده إلى العربية .

إلا أن قراءة متأنية لهذا النص الجوابى السجالى تجعلنا نقف على محورين أساسيين : محور يتعلق بنقد الدهرية ومحور يهتم بالتفكير فى الدين باعتباره البعد الحضارى المركزى ، فى كل حضارة إنسانية مستقبلية ، يعالج الأفغانى فى المحور الأول معنى الدهرية ومقاصد الماديين وغاياتهم ويوضح كيفية ظهورهم فى الشرق والغرب ، أما المحور الثانى فقد حاول فيه التحدث عن فائدة الدين ووظيفته مبرزا قيمة الإسلام المثلى باعتباره أعظم الأديان .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الدهرى فى نصوص الأفغانى هو من يقصد « محور الأديان ووضع أساس الإباحة والاشتراك فى الأموال والإبضاع بين الناس عامة » (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ١٢٩) .

يمكن أن نعتبر أن الرسالة تصوغ معادلة إصلاحية محددة فى ظرفين رئيسيين ، ظرفها الأول يقرر أن الدهريين جرثومة للفساد وظرفها الثانى هو الدين باعتباره قوام الأمم وبه خلاصها وسعادتها .

وفى سياق بلورة المعادلة المذكورة وتحليلها يتعرض الأفغانى وهو بصدد إقناع مخاطبة (المواطن الهندى الذى سأله والجماعة الإسلامية التى يهمها الأمر) إلى مراحل من الفكر الدهرى الإلحادى من ديمقرايطس إلى داروين ، ولا يعنى هذا أننا نقرأ فى الرسالة عرضا منفصلا وموضوعيا لتاريخ الأفكار الفلسفية المادية قدر ما يعنى أننا أمام تاريخ مختزل موجه بغاية نقد التيارات الفلسفية الطبيعية والمادية دون معرفة وافية بأصولها ، ودون نقد يكلف نفسه عناء الاطلاع أولا على المبادئ والأصول الناظمة لهذه التيارات .

لا يكتفى الأفغانى بنقد التيارات التى ذكرناها بل يضيف إليه فلسفة الأنوار والفلسفة السياسية التى شكلت الأرضية الموجهة للثورة الفرنسية ويعتبر أن الدعاوى الاجتماعية والاشتراكية التى عرفتها أوروبا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر تتجه فى مجملها نحو تحطيم أوروبا وتحطيم الإنسانية ، بحكم المبادئ التى تعتمدها فى منطلقاتها النظرية ومبادئها الأخلاقية .

أما بديل الدهرية فى النص – وهو البديل الذى يحاول الأفغانى بناءه – فهو الدين وقد خصص له المصلح الداعية فصولاً أبرز فيها فائدة الدين وفائدة الإسلام بالذات باعتباره أعظم الأديان ، وباعتباره مثالية الأخلاق التى ترتبط به .

وفى هذا السياق يتحدث الأفغانى عن دور الدين فى إكساب عقول البشر العقائد والخصال التى تقوم عليها الهيئة الاجتماعية أما العقائد فهى الحياء والأمانة والصدق ، أما المجتمع الذى يستطيع استثمار العقائد والخصال المذكورة فهو المجتمع الذى يكون بإمكانه مواجهة الدهرية والدهريين وبلوغ السعادة الإنسانية المنشودة .

وكما أشرنا سابقا فإن التحليل لا يعتمد منطق الحجاج الموضوعى المستوعب للأفكار موضوع الجدل ، بل إنه ينطلق من موقف رفض مسبق يحاول بلوغ غايات معروفة سلفا ، ومن هنا الطابع الأيديولوجى البارز لهذه الرسالة والأطروحات الظاهرة أو الضمنية التى تشير إليها .

نريد من تقديمنا المختزل لنص الرسالة أن نوضح بنية الرؤية السلفية الثانوية خلفها ، وقبل ذلك لابد من الإشارة إلى أننا نعتبر هذا النص بمثابة بيان للحركة السلفية المعاصرة ، إنه مفتاح تصورها للغرب ، وقد كان له صدى واسع فى مجمل الكتابات الإسلامية اللاحقة وإلى يومنا هذا ، إننا نعتبر أن بعض نصوص سيد قطب من قبيل « المستقبل لهذا الدين » ونص المودودى « نحن والحضارة الغربية » ، وكذلك نص الندوى « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » كل هذه النصوص تغرف وتمتح من هذه الرسالة تستعمل منطقها فى الحجاج ، وتعيد استعمال مفاهيمها من أجل الغايات نفسها التى كتبت من أجلها ، وهو ما يدل على استمرار حضور خطاب الأفغانى ودعاويه فى النصوص الإسلامية السلفية الجديدة والمستجدة فى الساحة الإسلامية .

وتتضمن الرسالة كل خصائص البيان ، الإفصاح ، الدعوة ، الاستدلال المتصاعد فى اتجاه إقرار قضية بعينها ، إنها بيان يعكس موقف الحركة السلفية من الغرب فى زمن من الهيمنة الإمبريالية ويقدم مجادلة للتيارات الفلسفية المادية ، وهى فى الوقت نفسه تقدم قراءة أيديولوجية للتاريخ الإنسانى ولتاريخ الإسلام المعاصر .

لقد كتبت الرسالة لتقدم موقف الأفغانى من الفكر الأوروبى المعاصر ، إنها تنتقد الفلسفات المادية ، فلسفة الأنوار والفلسفة الداروينية وبعض التحركات الاشتراكية ، وهى تجادل كل التيارات المذكورة فى صورتها الأوروبية وفى صورها العربية ، المتمثلة فى التيارات الفكرية الليبرالية التى عرفها العالم الإسلامى منذ القرن التاسع عشر فى إطار المثاقفة التى حصلت فى مرحلة التغلغل الإمبريالى (نقصد هنا نقده لفكر شبلى الشميل) .

صحيح أن نقد الأفغانى للتيارات التى ذكرناها لا يعبر عن فهم تاريخى موضوعى لهذه التيارات ، إلا أنه يقدم موقفاً أيديولوجيا منها ، أى يقدم ما يمكن اعتباره موقف الحركة السلفية من الغرب ومن الأسس الفلسفية المعاصرة كما تبلورت فى تاريخه المعاصر .

ولا يكتفى الأفغانى فى رسالته بالنقد بل إنه يحاول صياغة بديل يعتقد فى قدرته على مواجهة النزعات الإلحادية ، يتعلق الأمر بنزعة دينية .

التعريب وصلته بوحدة الأمة عند الأفغانى

بقلم الدكتور أحمد بن نعمان

سئل أحد تلامذة المدرسة (الأفغانية) فى الجهاد والإصلاح عن عدم اهتمامه بتأليف الكتب .. فأجاب قائلا : إننى أجاهد من أجل تأليف الرجال الذين يؤلفون الكتب .

فما أصدق هذه العبارة فى الواقع وما أكثرها تطابقا على حياة الأستاذ الذى أنجب هذا التلميذ .

وإذا سألت عن التلميذ فهو عبد الحميد بن باديس ، أما الأستاذ فلا يحتاج إلى تعريف ، وإن بدا للبعض أنه فى حاجة إلى تقويم !

ولا أنكر أننى أشفقت على نفسى عندما تشرفت بدعوة الشرق الأوسط الكريمة للمشاركة فى عملية التقويم لهذا المجاهد العظيم ، الشاهد على قرنه الماضى والحاضر معنا بروح جهاده فى هذا القرن المشرف على الاحتضار .. ولقد كان منشأ هذا الإشفاق على النفس عائدا إلى عدم قدرتى على جعل الجزء يستغرق الكل ، أو جعل الفرع يستغرق الأصل . ولكن أخذا بمبدأ « ما لا يدرك كله قد يدرك بعضه » واقتناعا بأن رجلنا من ذلك الطراز النادر من الشخصيات المتعددة الجوانب العميقة الجذور ، الوارفة الظلال ، المتنوعة الثمار ، والتى يتطلب كل فرع منها كتابة المجلدات من مؤلفى الكتب فضلا عن تحبير بضع صفحات من كتاب المقالات .

ومن هذا المنطلق حاولت أن أنتقى جزءا أو فرعا من هذا الكل المترامى الأطراف لأتخذ منه مجالا للتقويم المطلوب فى الشكل المرغوب ... وهذا النوع المنتقى هو الجانب الإستراتيجى لجمال الدين الأفغانى كباعث ومجدد لأمة محمد ﷺ حسب الأسس العلمية للأمم القوية الجديرة بالبقاء فى عالم الأحياء .

ولتحقيق هذا الغرض المطلوب أريد أن أخرج عن التقليد المعهود فأستكتب

جمال الدين لأجعله يقدم نفسه ويقوم جهاده للسادة القراء ، وهو فى ذلك - كما أعتقد - أصدق وأنصح معرب عن فكره منى وفى الوقت نفسه أضمن لى وأريح للقراء ، وأوكد للحقيقة بأن ما نقدمه من تقويم هو أبعد ما يكون عن أى إجحاف أو مبالغة وأقرب ما يكون إلى الواقع الناصع الذى جاهد فيه الرجل ، وقدم حياته فداء له ، فكان « سقراطا ثانيا » فى التاريخ فى هذه الناحية .

وقبل أن أترك القلم لصاحب الشأن كى يقدم فكره حول هندسة الوحدة المفقودة والمنشودة للأمة المحمدية المعهودة ، تجدر الإشارة إلى أن جمال الدين كان أول من أدرك ضرورة تأصيل الإسلام فى العرب ونشر العربية فى المسلمين ، إدراكا منه - كما سيتضح - بأن بقاء الأمم القوية فى التاريخ ، يتطلب بالضرورة عاملين اثنين يعلوان فوق كل العوامل وهما عاملا قوة الإيمان الدافع ، ووحدة اللسان الجامع .

فلا وجود للمسلمين بدون قوة الإيمان ووحدة الأوطان ، ولا حضارة لهم بدون وحدة اللسان المعرب عن ما فى الوجدان، والمكسر للحواجز المصطنعة بين الأوطان، فعن هذا القانون الحضارى يقيم أستاذنا البرهان فيقول بالحرف الواحدة: «إن الأمم المحكومة إذا يسر لها المحافظة على جامعاتها من دين ولسان وتاريخ، ولم تستحل وتنحل فى غير عنصرها ، فهى أقرب الناس للفرص ، وأعلق الخلق بإعادة مجدها وتجديد إعادة سيرتها الأولى ، ولن تثنيها أشد العوامل عن المطالبة بها » .

وحدة اللسان :

وبعد أن وضع هذا القانون العام الذى لابد منه لقيام الحضارات وبقائها والمتمثل فى وحدة المعتقد ووحدة اللسان ، المعبر عنهما فى النص بالجامعات المتكاملة والمتفاعلة فى التاريخ ، وبالتاريخ كعنصر ثالث يرمز ويحافظ على سيرورة بقاء الأمة فى بوتقتها الثقافية الصاهرة .. يستنطق على صحة قانون البقاء هذا فيقول فى مكان آخر : « هذه شبه جزيرة البلقان التى افتتحها العثمانيون وبقيت فى حوزتهم وتحت سلطانهم الأجيال فماذا أحدثت فى تلك الممالك من آثار العمران ؟ .. وإذا كان الجواب « لا شىء » حينئذ يضطرنا الإنصاف إلى أن نقول : إن الدولة العثمانية فى فتوحاتها ، وما شاهدناه من تفريطها لم تكن لتحسن

الاستعمار بل بقيت سدا منيعا للأمم المحكومة منها ، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية فى مدنيتها وعلومها وصنائعها .

شعوب من ذكرنا من ممالك البلقان يزيدون على السبعة عشرة مليونا ، ولكل أمة ومملكة جامعات ومميزات من تاريخ ودين ولسان وعادات وأخلاق ، وهى فى كل هذا على طرفى نقيض مع العثمانيين الأتراك ، فلو أخذت الدولة (العثمانية) بالحزم بعد الفتح ، وعملت بصائب الفكر والرأى ، لعلمت أن بقاء تلك الممالك (البلقانية) فى حوزتها يحتاج لإيجاد جامعات تجمعها مع شعوبها ، فتعمد إلى وسائل تعميم لسانها بإحداث دور علم وغيرها ، حتى إذا استطاعت أن تعمم لسانها ، كان لها أحد العوامل الكبرى للبقاء ولعدم سرعة الانفصال والتفكك ، إذ يكون أتراك باللسان مثلا أو بالدعوة الدينية كما تفعل اليوم دول الاستعمار ببث المبشرين ... فإذا انتشرت الدعوة الدينية وقبلتها الأمة المستعمرة ، اشتركوا بجامعة ثانية وهى اللسان والدين ، فكان الارتباط أشد وأوثق .. أما الدولة العثمانية فلم تفعل فى ممالك البلقان ما ذكرنا ولم تفكر فيه فضلا عن أن تسعى إليه ، فكان خروج تلك الممالك من حوزتها واستقلالهم أمرا محتما وقوعه .. » .

ونجده فى مكان آخر من استشهاداته المفحمة يذكر بلدا من ممالك البلقان ، أصبح « نموذجا فيما بعد » ليتخذ منه الحجة على ما يقول ، فيستدل أستاذنا ببلغاريا ، تلك الدولة الشيوعية « القومية » التى ضربت الرقم القياسى – حاليا – فى استئصال جذور التوحيد ليس من قلوب وأذهان وألسنة الموحدين من أبناء وطنها (من غير أبناء ملتها) فحسب ، بل حتى من أوراق بطاقات التعريف (الوطنية) بتغيير الأسماء الإسلامية للكهول والشيوخ ، فضلا عن المواليد الجدد كما هو معلوم وجار به العمل منذ سنوات على مرمى ومسمع من العالم الصليبى الحر وغير الحر .

سبب الضياع :

فمن هذا البلد النموذج يقول مهندس وحدة أمتنا الضائعة أو (المضيعة) بعبارة أدق ، ما نصه : « افتتح السلطان مراد الثانى بلغاريا سنة ١٣٨٢ هـ . وبقيت تحت حكم العثمانيين وفى حوزتهم نحوا من أربعة أجيال .. ولم يفقد

البلغاريون استقلالهم أربعة أجيال إلا مع العثمانيين ، وماذا فعلوا مع البلغار فى مدى تلك الأجيال ، وأى أثر تركوا فى بلغاريا ؟ لا شىء ... بلى ... تركوا لهم جامعاتهم الكبرى (أى مقومات وحدة أمتهم) من دين ولسان وتاريخ يسيرون مع الحضارة والمدنية مع السائرين ، وحكامهم الأتراك من القاعدين » .

وبعد أن وصف لنا الأستاذ ما كان سببا للزوال والضياع لأمتنا فى تلك البقاع ، نجده فى مكان آخر يحدد لنا ما كان ينبغى أو يجب أن يكون عليه المسلمون ، وهو ما يهمنا أن نركز عليه الحديث فى هذا المقام لكونه متعلقا بما هو حاضر وما هو آت أو مستقبل من أيام أمتنا ذات العلل والصدمات .. فيقول فى هذا السياق : « لننظر فى فتوحات الدولة (أى العثمانية) للممالك الإسلامية ، من مصر والشام فحلب فبغداد وتونس ، وسائر الممالك العربية فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب ، وكان لجامعة الدين التأثر العظيم فى قبول الحكم العثمانى ، ولو أن الدولة قبلت من يوم استقلالها وعملت بالفكرة من عهد السلطان محمد الفاتح أو السلطان سليم بأن يتخذ اللسان العربى ، وهو لسان الدين ، لسانا رسميا وتسعى بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك لكانت فى أمنع قوة وآمن حصن من الانتقاض والخروج عن سلطانهم ، ولكنها فعلت العكس ، إذ فكرت بتتريك العرب وما أسفهها سياسة وأسقمه من رأى لأن تدين الأتراك بالدين الإسلامى على جهل باللسان العربى جعل له فى القلوب منزلة ، ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سائر المسلمين .

فما قولك لو تعربت ، وانتفى من بين الأمتين النعرة القومية وزال داعى النفور والانقسام بين الترك والعرب ، وصاروا أمة عربية بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين الإسلامى من عدل ، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات .

لا ريب لو تيسر ذلك لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسورا وجمع شتات الممالك الإسلامية تحت لواء سلطان عادل همام ، مثل الفاتح أو السلطان سليمان ، أو سلطان سليم غير عسير ، ولكن مع الأسف ، عدم قبول فكرة السلطان الفاتح أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربى خطأ بين لا يضارعه إلا

توغل العثمانيين فى أوروبا وشبه جزيرة البلقان ، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة » .

خطأ إستراتيجى مميت :

ويؤكد هذا الخطأ الإستراتيجى المميت والمقلص لظل آخر دولة للخلافة على يد أحد أبنائها (القوميين) كنتيجة حتمية للخطوة الأولى التى خطاها بعض (الأسلاف) فيقول ما نصه : « لقد كاشفت السلطان عبد الحميد فى أكثر هذه المواضيع فى خلوات عديدة ، فكان يسمع بكل إصغاء ولكنه فى النتيجة كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له ، وفهمت من أوضاعه وأسارير وجهه ، أنه لا يعتقد أن قبول اللسان العربى ، وفكرة الفاتح والسلطان سليم ، بذلك صوابا ، وكذلك لا يجب أن يعترف أن توغله فى أوروبا وفتح جزيرة البلقان كان خطأ » ، ثم يورد الحجج الدامغة والناطقة للبرهنة على نفاذ بصيرته (وشديد أسفه) عن ضياع ، بل تضييع وحدة الأمة المحمدية فى جغرافيتها (وثوابتها الطبيعية) فيقول : « فلو أنصف الأتراك أنفسهم وأخذوا بالحزم واستعربوا وترأسوا ذلك الملك وعزلوا فى أهله وجروا على سنن الرشيد والمأمون – على الأقل – ولا نقول ، على سنن وسيرة الخلفاء الراشدين ، فمن كان من دول الأرض أغلى منه مملكة ؟ أو أعز جانبا ؟ وأمنع حوزة منه ؟؟ ولكن مع الأسف ، أن إخواننا الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير (الحرب) وهم فيما عدا ذلك وفى ما يختص بشؤون العمران ، أقل روية وعملا من سواهم يسوؤنى وأنا ممن يحبهم ، وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ فى عدم قبولهم اللسان العربى ، لسان الدين الطاهر ، والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر ، باللسان التركى !! ذلك اللسان الذى لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض ، ولعجز عن القيام بحاجيات أمة بدوية ، ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة لما رأينا للأتراك شعرا يقرأ أو منثورا يفهم أو بيانا يترجم عن جنان .. فكيف يعقل تتريك العرب وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب وتسابقت ، وكان اللسان العربى لغير المسلمين ، ولم يزل من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ؟ .. وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان ما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان » . ويؤكد هذا المعنى فى

مكان آخر بقوله : « لا جامعة لقوم لا لسان لهم ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيى آثار رجال تاريخها » .

أمثلة حية :

ويتخذ الأستاذ أمثلة حية من عدم نجاح أى استعمار لأية ديار فى العالم إذا لم يتمكن من صهر المستعمرين عقيدة ولسانا فيقول : « إذا كان هذا العدل لا يوافق أذواق المتفقين معهم فى الجامعات السابقة (ويقصد هنا مقومات الأمة التى تجمع إنجلترا بإيرلندا من دين ولغة وثقافة مع اختلاف فى المذهب الدينى فقط) فكيف ترجى ملاءمته لأذواق الذين لا نسبة بينهم وبينهم ، ولا صلة تجمعهم معهم ، لا فى لغة ولا جنس ولا دين ؟ ! » .. إلى أن يضيف فى مكان آخر قوله : « هذا بعض ما لآداب اللسان من التأثير المادى ، أما التأثير المعنوى فيكفى أنه من أكبر الجوامع التى تجمع الشتات وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاخر ، فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير ، فحافظت على لسانها محكومة وترقبت الفرص ، ونهضت بعد دهر فردت ملكها ، وجمعت من ينطق بلسانها إليها والعامل فى ذلك إنما هو اللسان قبل كل ما سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ونسوا مجدهم ، وظلوا فى الاستعباد ما شاء الله » .

وكم يصدق هذا القانون (الأفغانى الربانى) عندما نطبقه على واقع بلاد المسلمين فنجد – مثلا – أن بلاد الموحدين ، فى مغرب شمس الله (أقصد بلاد المغرب الإسلامى الناطق بالعربية) كادت تصبح أندلسا ثانية على يد الغاصب (الفرنسى) فى القرن الأخير ، لولا استماتة أهل تلك الديار العربية فى المحافظة والدفاع عن اللسان المرتبط بالأذان ! وأثبت ذلك التمسك بالجهاد المعروف ضد استبدال القلوب والعقول بالحروف ، إنه إذا أمكن أن يوجد فى الدنيا (مسلم فرنسى) أو (عربى مسيحى) فإن منطق المنطق لا يقبل وجود (عربى فرنسى) أو (مسلم مسيحى) فى تلك الديار العربية ، فهنا تكمن القضية وللحديث بقية ، عما يجرى وراء الستار من دسائس الاستعمار الذى خرج بالحديد والنار وفى نفسه شيء كثير (من الحقد) على الكبار من أهل الديار فهذا ما يجعل قانون جمال الدين الأفغانى صالحا لحاضر ومستقبل الأخلاف ، كما كان صالحا لسائر الأسلاف ..

لصالح من نهاجم رواد الفكر الإسلامى ؟

الدكتور زكريا سليمان بيومى
استاذ التاريخ الحديث - كلية البنات - جدة

تعود جريدة « الشرق الأوسط » لتفتح ملف السيد جمال الدين الأفغانى بعد مرور عدة سنوات على تعرض الرجل لهجوم شديد من الدكتور لويس عوض فى صحيفة « الأهرام » المصرية وقيام العديد من الأساتذة بالرد عليه فى حينه .

ولا شك أن الهدف من إعادة فتح ملف الأفغانى الآن هو تلمس العوامل الإيجابية والسلبية فى الإطار الذى جاهد الأفغانى لتحقيقه وتحمس له تحمسا زائدا وهو السعى لتوحيد المسلمين من خلال فكرة الجامعة الإسلامية وما يمكن أن تفيده هذه التجربة لحاضرنا العربى والإسلامى وبخاصة بعد أن أقدمت الكيانات السياسية العربية على الدخول فى أشكال وحدوية ومحاولة الكيانات السياسية الإسلامية البحث عن حلول لبعض مشكلاتها أو وضع أطر لالتقائها أو تفاهمها أو اتحادها من خلال المنظمات الإسلامية .

وبداية ينبغى أن نضع أيدينا على حقيقة مهمة هى أن الإطار الأسمى الذى وهب الأفغانى حياته له وكافح وسافر وتشرد وتهرب وتعذب فى سبيله يعد المحور الأساسى لحملات الهجوم التى تعرض لها فى حياته وبعد وفاته وطوال المائة سنة التى أعقبت وفاته حتى الآن ، وبالتالى يمكن القول بأن المعادين لفكرة وجود اتحاد إسلامى هم المصدر الأساسى الذى حاول وضع العقبات أمام دعاته الذين كان من أبرزهم جمال الدين الأفغانى سواء أكان ذلك من منطلق مذهبى يتمثل فى بعض الكتاب أم من منطق يعادى الوحدة الإسلامية دينيا وسياسيا كالإنجليز إلى جانب بعض القوى السياسية التى أدركت - لقصر نظرها - ضياع هيبتها ومكانتها فى الكل الإسلامى كحكام مصر من أبناء محمد على مثل الخديوى توفيق وابنه الخديوى عباس حلمى الثانى ، ولهذا ترتكز مصادر الهجوم على الأفغانى على

مصدرين أساسيين هما الكتاب الذى ترجمه الدكتور عبد النعيم حسنين وهو بعنوان « جمال الدين الأسد آبادى المعروف بالأفغانى » وهو لمؤلف إيرانى اسمه ميرزا لطف الله خان الذى قال إنه ابن أخت جمال الدين وهو أمر لم يقم عليه دليلا .

أما المصدر الثانى فهو الوثائق البريطانية التى اعتمد عليها وسار خلفها دون تمحيص كثير ممن أرادوا - لسبب أو لآخر - الهجوم على الرجل والتقليل من شأنه ومن شأن الأفكار التى نادى بها من أمثال الدكتور لويس عوض .

تهمة الإثارة :

أما الكتاب الذى صور فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى وبواعز منه للهجوم على الرجل وهو بعنوان « تحذير الأمم من كلب العجم » وحمل اسم مؤلفة أطلقت على نفسها « الحرة اللى لسانها خارج لبره خادمة الوطن والدين والغيورة على المسلمين الست المصونة والجوهرة المكنونة حمارة منيتى » ، وقد ارتكزت أفكار هذا الكتاب فى مهاجمة الأفغانى على اشتغاله بالفلسفة وإثارة الشعوب وهو أمر يوضح دور الخديوى فى هذا الهجوم ، كما يؤكد هذا الدور أيضا صدور كتاب آخر باسم المؤلف نفسه فى مهاجمة الشيخ محمد عبده أقوى تلاميذ الأفغانى وأقربهم إلى حمل أفكاره بعنوان « كشف الأستار فى ترجمة حياة الشيخ الفشار » ، على أن ما ينبغى توضيحه أن هذه الكتب لم تتعد فى هجومها على الأفغانى الغرض المؤقت الذى كان يهم الخديوى بل إنها قد أقرت بقدرته ونشاطه فى خدمة الفكرة الإسلامية ، ولهذا فإن هذه الكتب لم تصبح مصدرا ثالثا لمن حاولوا الهجوم عليه وعلى دوره الإسلامى بعد ذلك .

ونعود لمناقشة المصدر الأول وهو كتاب « جمال الدين الأسد آبادى المعروف بالأفغانى » والذى يسند لمؤلف إيرانى هو « ميرزا لطف الله خان » وقام على ترجمته للعربية الدكتور عبد النعيم حسنين وصادق نشأت ، والذى يعد المصدر الرئيسى لعديد من جوانب الهجوم التى اعتمد عليها الدكتور محمد محمد حسين فى كتابه « الإسلام والحضارة الغربية » واعتمد عليها أيضا الدكتور لويس عوض فى كثير من حلقات الهجوم التى شنها على الرجل .. وبداية نذكر أنه لا يوجد أى

دليل على أن ميرزا لطف الله خان ابن أخت السيد جمال الدين أو أنه حتى هو نفسه مؤلف هذا الكتاب ، ولو استطردنا فى وضع الفروض حول هذا الكتاب لتساءلنا ما هو هدف المؤلف من الهجوم على خاله ؟ هل هو البحث والموضوعية ؟ إن من يقرأ ترجمة هذا الكتاب يجد أنه قد ساده الانفعال والبعد عن الموضوعية ، وأنه فى مجمله قد حشد العديد من السوءات التى ألصقها بجمال الدين دون أن يقيم الدليل على أغلبها وجرد الرجل (خاله) من أى عمل طيب مخالفا بذلك كثيرا من كتاب العربية والتركية ممن أدركوا عن قرب دور الرجل ونضاله ، والمرجح أن يكون هذا الكتاب لبعض أعداء جمال الدين وهم كثيرون ، وقد جمعت لهذا الكتاب العديد من المعلومات الدقيقة حول حياة الرجل وتحركاته وعلاقته بكثير من القوى السياسية التى وقفت منه موقف العداء ، ووضع عليه بعد صياغته اسم ميرزا لطف الله خانُ الذى من الممكن أن يكون ابن اخته فعلا لكنه لم يكن مؤلف الكتاب فى الغالب .

وبصفة عامة فإن من يراجع كتب التاريخ الإيرانى يجد فيها النزوع إلى إسناد الإيرانية لعظماء التاريخ بشكل أسطورى ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فقد ادعى الملك دارا الكبير وهو من أكبر ملوك الأسرة الأنانشية فى إيران أن أم الإسكندر الأكبر المقدونى قد أهديت إليه كجارية من أحد ملوك اليونان ثم عاشرها ثم غضب عليها وأعادها إلى بلادها ، وكانت قد حملت بالإسكندر الأكبر ، وبالتالى فإن مجىء الإسكندر الأكبر وحروبه مع إيران إنما كانت لرغبته فى الانتقام لأمه المطرودة ، وإنه إذا كان قد هزمهم فإنه إيرانى الأصل ، كما ادعى بعض الكتاب الإيرانيين أن سليمان بن داود عليه السلام ما هو إلا جمشيد الملك الإيرانى القديم الذى استطاع بسلطانه أن يسخر الجن والنور فى صناعة محفة تحمله فى الهواء .. ومن جهة أخرى ، فقد هاجم بعض الكتاب الإيرانيين السلطان محمود الغزنوى لمجرد أنه كان لا يعرف اللغة الفارسية وبالتالى لم يفهم أو يعرف شاعر الشاهنامه إلى غير ذلك .

وهذه أمور يمكن أن تدلنا على أسباب هجومهم على السيد جمال الدين وتأكيد نسبه الإيرانى ومذهبه الشيعى ، فى حين أن بعضهم قد أشار إلى أصله الأفغانى قبل أن يشتهر أمره ويذيع صيته .

وإذا كان البعض قد استند إلى كون جمال الدين شيعيا ولم يكن سنيا وإيرانيا ولم يكن أفغانيا على إلمامه باللغة الفارسية منذ صغره وأنه كان يزور المناطق المقدسة عند الشيعة ويفهم فهما جيدا للمذهب الشيعى ، فإن إلمامه باللغة الفارسية لا يعد دليلا على أنه إيرانى وليس أفغانيا حيث يطلق بصفة عامة على شعوب هذه المنطقة الشعوب الناطقة بالفارسية فضلا عن أن جزءا كبيرا من بلاد الأفغان قد خضع لسيادة إيران إبانَ بعض فترات الصراع بين روسيا وإنجلترا على محاولة بسط نفوذها على أفغانستان ، إلى جانب أن جمال الدين قد ألم بالعديد من اللغات كالتركية والعربية .

أما عن كونه سنيا وليس شيعيا فبداية نوضح بأنه ليس محرما على المسلم السنى أن يدرس مذهب الشيعة ويلم به أو أن يزور المناطق المقدسة الشيعية أو أن يلتقى بزعماء الشيعة وعلمائها ، بعد ذلك نوضح أن من أهم الدلائل على كون الرجل كان سنيا وليس شيعيا هو أنه قد طاف بعديد من البلاد الإسلامية التى تدين المذهب السنى ، وكان يقصد أول ما يقصد علماء الدين ، وكان عدم تمكنه من لقائهم من الأمور التى تثير غضبه كما حدث فى الهند حين حال الإنجليز بينه وبين علماء الدين المسلمين هناك ، لم يكن من السهل عليه أن يندمج فيهم أو يناقشهم أو يستجلب تأييدهم لو كان غير سنى المذهب وخاصة أنه قد مر بمراكز علمية كبيرة فى مكة المكرمة وفى الأزهر فى مصر وإذا كان البعض قد عارضه أو هاجمه فى هذا الميدان فلأنه كان قد توسع فى علم الكلام والتبحر فى الفلسفة ولطرقه لعديد من الآراء الجديدة والفتاوى الجريئة كونه كون مجرد هوجم فى بعض جوانب فكره كما كان لتلميذه الشيخ محمد عبده ، وقد نجح الرجل فى إصدار العديد من الدوريات تناولت جوانب فى العقيدة تعلم منها الكثير من علماء السنة وليس من السهل على شيعى أن ينجح فى هذا الأمر مهما كانت دراسته عن السنة .

الوثائق البريطانية :

ننتقل إلى مناقشة المصدر الثانى الذى يستند إليه المهاجمون للسيد جمال الدين الأفغانى وهو الوثائق البريطانية ، وفى البداية لماذا يصر كثير من الكتاب والمؤرخين

المسلمين على أن يجعلوا من الوثائق البريطانية والأجنبية بشكل عام تابوتا عظيما فى معبد المصادر عند كتابة تاريخنا الإسلامى الحديث والمعاصر ؟ ومع أننى لا أقصد بذلك إهمال الاطلاع عليها أو حتى التقليل من أهميتها إلا أننى – كواحد من المؤرخين – أؤكد أنها فى مجملها تعكس وجهة نظر أصحابها ورؤياهم السياسية للعالم الإسلامى وتمتلئ بالتناقض والتآمر والتدبير والتلفيق ، ويبدو ذلك واضحا فيما رصدته هذه الوثائق للسيد جمال الدين وكتبه – نقلا عنها – كالدكتور لويس عوض ، حيث أكدت فى جانب منها جاسوسية جمال الدين للإنجليز ثم عادت لتنفى هذا وتؤكد جاسوسيته للروس مما اضطر الدكتور لويس عوض أن يذكر أن عمالة الأفغانى للروس لا دليل عليها إلا فى الوثائق البريطانية تؤيدها ببعض تصرفاته الغامضة المريبة ، ولكن معرفتنا الاستعمار البريطانى تدلنا على أن الإنجليز كالأمريكيين اليوم كانوا يصفون كل زعماء الحركات الوطنية بالشيوعية أو بالعمالة للروس ولذا وجب أن ننتفع من الوثائق البريطانية باحتياط شديد وأن ندرس ما تسرده من وقائع دون أن نقبل ما تنطوى عليه من أحكام وأوصاف وتقديرات .

أما عن انتماء جمال الدين للمحافل الماسونية فقد خدعه فى البداية بريق شعاراتها فى وقت لم تكن قدوضحت فيه حقيقة أهدافها فيقول عن ذلك : « إن أول ما شوقنى للعمل فى « بناية الأحرار » عنوان كبير هو « حرية ومساواة وإخاء » وأن غرضها هو منفعة الإنسان والسعى وراء دك صروح الظلم وتشييد معالم العدل المطلق ، إذا لم تتدخل الماسونية فى سياسة الكون وفيها كل بناء حر ، وإذا كانت آلات البناء التى بيدها لا تستعمل لهدم صرح الظلم والعتو والجور فلا حملت يد الأحرار مطرقة ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة » .

ولهذا فقد انضم جمال الدين الأفغانى إلى محفل كوكب الشرق فى مصر والذى كان تابعا للمحفل الأكبر فى إنجلترا ، وانضم معه تلميذه الشيخ محمد عبده ومحمود سامى البارودى ومجموعة كبيرة من مشايخ الأزهر ، وبعد أن تبين له حقيقة هذه المحافل نفض يده عنها ومعه تلميذه محمد عبده ، ولم يعلن خروجه عليها خشية الاصطدام « بكيد وكلاء الدول وجواسيس الحكومة » .

بعد ذلك ينبغى أن نوضح أن السيد جمال الدين الأفغانى قد أخلص فى

دعوته لفكرة توحيد المسلمين التى عرفت بفكرة الجامعة الإسلامية وأنه إذا كان قد ووجه بعقبات وضعتها الحكومات فى البلاد الإسلامية وفى تعقب الإنجليز له خشية أن يثير عليهم الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم ، وفيما أثاره بعض المفكرين من دعاة القومية أو من المنتمين للأقليات الدينية التى تعيش فى العالم العربى ، فإنه برغم كل هذه العقبات قد لقى ترحيبا وتقديرا لدى أغلب الشعوب الإسلامية وأن استمرار هذا التقدير لدور هذا الرجل سيظل يوحى لجميع الكيانات السياسية فى العالم الإسلامى بضرورة السعى لتحقيق أمانيهم فى الوحدة والترابط ، ومنذ الآن وحتى يتحقق ذلك وبعده يبقى جمال الدين رائدا من رواد الفكر الإسلامى الحديث وأن الهجوم على دوره إنما هو محاولات لتشويه الإطار الذى سعى لتحقيقه .

ولهذا نسأل الذين يسيرون فى هذا الدرب لصالح من نهاجم روادنا ومفكرينا ؟؟

صلة الأفغانى بالماسونية تجربة اجتهادية غير موفقة

بقلم الدكتور حامد بن أحمد الرفاعى

الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

أحسب أن الحديث عن الشيخ العلامة جمال الدين الأفغانى وغيره ، يأتى تلبية لحاجة الأجيال إلى معرفة تاريخها ، وحاجتها لعوامل الثقة التى تربطها بهذا التاريخ ، ومأساة الأفغانى مع بعض أبناء أمته التى قاوم من أجل رفعتها وكافح فى سبيل استئناف مسيرتها الحضارية دليل بين على حالة الاضطراب التى عاشتها وتعيشها أجيالنا وهى تقوم الحدث والموقف والشخصية فى إطار بنيتها التاريخية .

إن علة الاضطراب والبلبلة عند البعض فى تقويم شخصية ومنهاج العلامة جمال الدين الأفغانى ، يعود لأمر واحد ، هو عدم استيعاب هذا النفر لظاهرة التكامل الثقافى التى تفرد بها هذا الداعية فى زمانه ، وقد وهب من فضل الله نعمة غير عادية فى التكوين الشخصى من أبرز علاماتها ذكاء خارق ، وذاكرة حافظة متميزة ، وقدرة متفوقة على استحضار مخزونه العلمى والثقافى ، وكفاءة بارعة فى البيان والتعبير ، وأسلوب أخاذ فى التأثير والإقناع ، يرفد ذلك مكتسبات علمية من أولها وأبركها حفظه المبكر للقرآن الكريم ، وتبحره فى علوم القرآن والسنة ، وإحاطته فى العلوم الشرعية المتنوعة وطول باعه فى علوم الاجتماع والفلسفة وعلوم الكون فى الفلك والطب والكيمياء وغيرها واتساع معرفته وإتقانه لعدد من اللغات مثل العربية والبشتو والأردية والفارسية والتركية والإنكليزية والفرنسية والألمانية ، كما تميز بصلات اجتماعية وسياسية واسعة إقليمية ودولية فاقت كل تصور ، حيث أصبح بهذه المقومات المتكاملة موضع تنافس ومطمع عند بلدان إسلامية متعددة ، تتسابق على استمالته واجتذابه من خلال ترغيبه باتخاذ مواقع سياسية قيادية ، وتبوء مواقع قيادية تربوية وإصلاحية على أرفع المستويات ، وقد تكرر ذلك فى أفغانستان وإيران وتركيا ومصر ومثل ذلك فى الحجاز والعراق ، كما لجأت إليه

جهات دولية تطلب إليه المساهمة فى حل معضلات إقليمية ودولية ثقة بكفاءة قدراته ومهارة تحركاته .

وهكذا فرض هذا الرجل الفذ انتماءه السياسى والوطنى على أكثر من بلد عربى وإسلامى ، وفرض ثقله السياسى على الأحداث العالمية وموازناتها ومعادلاتها فى عصره ، من بريطانيا إلى فرنسا وروسيا وأمريكا .

أجل إن عدم استيعاب البعض لأبعاد هذه الشخصية المتميزة التى كان لها السبق المبكر فى تجديد عالمية فكرة الإسلام ، وتجديد شمولية منهج الإسلام ، وكان لها السبق المبكر والجاد لفهم قضية الأمة الإسلامية وأهمية حشد الطاقات والإمكانات الإسلامية لها فى كل مكان وقد أدرك أن هذه القضية أكبر وأجل من أن يتصدى لخاطرها وينهض بأعبائها وتكاليفها أمة مريضة ينخر فى جسمها كثير من عوامل الفرقة والانقسام ، وتقتصر معها إلى من يبعث ويستثمر فيها أسباب المنعة والقوة وأسباب الصحة والعافية ، يرافق ذلك كله إدراكه المبكر والواعى لأهمية الأبعاد الدولية فى علاج القضايا الإقليمية المؤهلة لخوض غمار التعامل مع تضاريس الموازنات الدولية ومعادلاتها الصعبة والدقيقة .

نعم إن عدم استيعاب البعض لهذه الشخصية المتميزة بشمولية فى الثقافة وفى الفهم ، وفى فن ممارسة الحق ، حيث غطت كفاءاته وقدراته مساحات ودوائر الأحداث الإقليمية والعالمية فى عصره وقد عاشها بجدية وحضور فعال .

لذا فإن الفرق كبير وكبير جدا فى كل زمان ، بين من انفرجت أمام بصيرته رؤية مساحات دائرة الفهم والعمل فبادر لخوض ميادينها ، وبين من حصرته إمكاناته المتواضعة فى قطاع محدود من تلك الدائرة لا يرى ولا يفهم إلا ما انحصر بين خطى الزاوية الحادة لذلك القطاع ، متخذا من ذلك معيارا ومقياسا يقوم به الآخرين ويحكم بموجبه على أحوالهم وأفعالهم فيكون حكمه كما جاء فى حق هذا العملاق حكما تعسفيا مضطربا .

ولا أدل على استقلالية جمال الدين الأفغانى فكرة ومنهجا ، واستقلاليته تصورا وموقفا ، من استعمائه على كل محاولات استمالته وترويض ولائه من قبل كل الجهات التى تعامل معها عربيا وإسلاميا ودوليا ، فكانت خصومته ومحاربته مع الجميع ،

يطرد من بلد إلى آخر حتى انتهى به المطاف فى إسطنبول ، وقد أخرج منها أكثر من مرة لتنتهى حياته فيها نهاية تنبئ عن عظم المحنة التى كان يواجهها هذا الداعية المجدد وقد بتر فكه واستؤصل لسانه ، فوئد بيانه واغتيلت حجته قبل أن تغتال حياته .

وبالمقابل لابد من الإشارة إلى أمر يلمسه بسهولة كل متتبع لطبيعة شخصية هذا الرجل ، وهو حدة مزاجه وعنفوان مواقفه ، وإصراره على فرض تصوراته جملة وتفصيلا ، الأمر الذى أزم المواقف مع جميع من تعامل معهم ، وأفقده فرصة أحسبها كانت متاحة له فى توجيه المواقف واستيعاب الصعب منها بمرحلية إصلاحية حكيمة ، مراعيا فوارق الفهم وفوارق الثقافة ، وفوارق الطموحات الجادة وفوارق الهمم فى تحقيق الغايات والأهداف .

وشىء آخر لابد فيه من كلمة ، وهو التفسير المتكرر عند المدافعين عن تعامل الأفغانى مع الدوائر الماسونية مبررين ذلك بانخداعه بشعار الإخاء والحرية والمساواة ، وحسب أن مقولة الانخداع مرفوضة ولا تستقيم موضوعيا مع ما توصف به شخصية الأفغانى من ذكاء وقدرات وتوقد بصيرة ، والذى يستقيم مع إخلاص الرجل وقدراته وجرأته على التعامل مع الخصوم والأعداء إنه أراد بهذه الصلة أن يلعب ورقة ألفاظ هذا الشعار الذى لا يخرج عن منطلقات الإسلام الذى يؤمن به ويعمل من أجل أهله ، ظانا بنفسه القدرة على تسخير فعالياتها بما يحقق غاياته ومهمته ، إلا أنه اصطدم منذ البداية بصعوبة هذا المركب وأن أهله أخبث من أن ينخدعوا بأمثاله وبمثل منهجه وتصوراته ، فحصل الفراق وأدار ظهره لهم مستفيدا من بعض وسائلهم فى تجميع المتناقضات وتعبئة الطاقات المتشاكسة فراح يكون المنتديات يجمع الناس بهم بشعارات تعبوية عامة مثل الوطنية والتحرير .

إلا أنها بنظرى تظل تجربة اجتهادية غير موفقة ينبغى لكل داعية أن يأخذ منها درسا كبيرا ، بعد أن دفع العلامة الأفغانى ضريبة هذا الاجتهاد غير المدروس الشىء الكثير .

وأنبه إلى خطورة تفشى وطغيان ظاهرة التفسير التآمرى لكل حدث عند

البعض ، مثلما أنبه إلى تنامى ظاهرة الغفلة وعدم المبالاة ، مذكرا بوسيلة الإسلام بكل ضوابطها ومعاييرها ودقة أحكامها فى تحرى الحقيقة ، منبها إلى خطورة تشويه أعلام هذه الأمة ، وتحقير تاريخها واتهام مسيرتها ، حتى لا نكون من حيث لا ندرى عونا لأعدائنا فيما يسعون إليه ، لفصل أجيالنا عن تاريخ أمتهم ومآثرها ، وهدم ثقتهم بمناهل ثقافتها وأعلام مسيرتها ، لتعيش الأجيال من بعد مضطربة الرؤية والحركة ، تتجه إليهم تنهل من عطائهم وتتلمس منهجهم حيث تتكرس الانتكاسة ويتعمق الانهدام ويتسع ما بين حاضر الأمة وماضيها .

الأفغانى باعث الصحافة فى الشرق وأحد وجهى عملة الإصلاح

الدكتور مصطفى حمد شرم — جدة

برغم أن السيد جمال الدين لم يكن صحفيا محترفا .. إلا أنه ببصيرته النافذة قد أدرك مدى ما سيكون للصحافة من دور فعال ومؤثر فى نشر الوعى القومى وتحريك الشعوب الشرقية للإبحار نحو هدفين محددين هما : أولا : بث الروح فى الشرق ، وتنقية عقيدته ودينه من الخرافات والنهوض بثقافته وعلمه ، ثانيا : مناهضة الاحتلال الأجنبى : ليستعيد الشرق استقلاله وعزته .

وقد طاف السيد بكثير من أقطار الشرق ولعل أبهى أيامه وأصلح غرسه وأنفعه هو ما كان بمصر خلال إقامته بها (١٨٧١ – ١٨٧٩ م) ففى هذه الفترة كانت الأحداث الاقتصادية والسياسية وحالة الأدب قد أدت إلى حرث التربة فكانت الفرصة مواتية لاستنبات أفكاره الجديدة .

وقد كان ما وصلنا من إرهاصات الأدب فى تلك الفترة لا يخرج عن دائرة الركاكة والتقليد فهو إما مدح أو قدح أو استعطاف .. أما أحوال الشعب وحقوقه والتزامات الحكومة نحوه .. فلا أثر لها .

وتضخمت الديون وزاد التدخل الأجنبى فى شؤون مصر بفرض نظام المراقبة الثنائية وتكوين وزارة نوبار باشا المختلطة وبها وزيران إنجليزى وفرنسى .

والتفت حول السيد جمال الدين مجموعة ممن توسم فيهم الخير أمثال إبراهيم اللقانى وإبراهيم المويلحى وعلى يوسف والشيخ محمد عبده .. وشجع بعض الموهوبين على احتراف الصحافة ورسم لهم الطريق وبثهم المعانى الجديدة التى يكتبون فيها .. وكتب فيها تحت أسماء مستعارة مثل « مظهر بن وضاح » .

جريدة « مصر » : استصدر امتيازها أديب إسحاق عام ١٨٧٧ م — وكتب فيها فصولا منها مقالة « الحكومات الشرقية وأنواعها » و « روح البيان فى الإنجليز والأفغان » واشتهرت هذه الجريدة بمقالاتها فى تعريف الوطنية وهى الجريدة الأولى

التى وردت فيها كلمة « مصر الفتاة » التى درجت فى الاستعمال عند أرباب النهضة المصرية. (فيليب دى طرازى: تاريخ الصحافة العربية جـ ٣ ص ١٣).

« أبو نظارة زرقاء » : جريدة ساخرة .. شجع يعقوب صنوع على إصدارها عام ١٨٧٧م، «التجارة»: صدرت بنفوذ الأفغانى عام ١٨٧٩م وامتيازها لأديب إسحق ، « مرآة الشرق » : لسليم عنحورى عام ١٨٧٩ م وأشرف على تحريرها إبراهيم اللقانى وأما « الوقائع المصرية » فقد ظهر تأثيره عليها بتوجيه الشيخ محمد عبده وأديب إسحق للكتابة فيها بجرأة لم تكن معهودة .

أما « العروة الوثقى » أصدرها فى باريس بالتعاون مع الشيخ محمد عبده فى مارس ١٨٨٤ م وصدر منها ثمانية عشر عددا فى ثمانية أشهر .. وكانت توزع على الأقطار الإسلامية بهدف إصلاح المسلمين دينيا واجتماعيا وسياسيا .. وقد عالجت العروة الوثقى التحديات التى يتعرض لها الشرق والأقطار الإسلامية فى إطار من السياسة الدولية العامة ، وألهبت النفوس بحديثها فى الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية .. وأججت الشعور بالقومية أما جريدة « ضياء الخافقين » فقد اعتبرت زلة كبيرة كان لا يجب أن تصدر عن السيد جمال الدين وهى التى أصدرها فى لندن بالعربية والإنجليزية وكتب فيها بإمضاء « السيد الحسينى » .. يناهض فيها حكومة الشاه وينبه فارس لسوء إدارته وعظيم شره .. حيث إن التشهير بحكومة مشرقية إسلامية فى بلاد استعمارية تتخذ من هذا حجة للتدخل ... والواقع أن السيد جمال الدين كان مدفوعا بحبه للانتقام من الشاه على ما لقيه منه من العذاب والطرد .

ونوجز : أنه كان لحركة السيد جمال الدين الأثر العظيم فى إيقاظ الشرق والشعوب الإسلامية وتبصيرهم بما يحاق بهم وتكوين جيل من الكتاب يدافعون عن شعوبهم ، متحررين من إطناب المحسنات البديعية عندما يعرضون ، والصحفيين على دراية تامة بمتطلبات لمشاكل الأمة .. ويمتطون الجرأة على الحكام حينما يكون المطلب هو العدل والهدف هو الإصلاح .

نسبية الأحداث :

إذا أردنا تقييم تجربة الأفغانى ومحمد عبده وجب علينا نسبتها إلى زمانها ومكانها

غير متناسين العامل البشرى الفطرى لكل المصلحين ومع احترامى لكل من خلص إلى القول بأن سياسة الإصلاح السياسى الطفرى التى أرادها الأفغانى قد ثبت فشلها ... وأن سياسة الإصلاح الاجتماعى الهادئ والتى تمنهجت على يد الشيخ محمد عبده هى التى ثبت نجاحها وفعاليتها .

أقول بحتمية السياستين .. فإن اجتمعتا فالخير كل الخير .. وإن انفردتا فإحداهما مؤداها الأخرى .. والمصلحان الجليلان هما وجهان لعملة الإصلاح وقد افترض الشيخ محمد عبده مسالمة الإنجليز والخديوى مبدئيا حتى لا يصطدما ببرنامجه الإصلاحى .. فتحقق ظنه .. والسؤال الآن ماذا كانت النتيجة لو أن الإنجليز كمستعمرين رفضوا سياسة الإصلاح الدينى والاجتماعى واصطدموا بمحمد عبده ؟؟ أظن أن البديل الأوحد المطروح وقتها هو الإصلاح السياسى .

جمال الدين الأفغانى وأرنست رينان
أدب الإسلام فى مواجهة التعصب الغربى

بقلم الدكتور عبد الرزاق قسوم

أستاذ الفلسفة – جامعة الجزائر

تتحدد قيمة معتقد ما ، أو مذهب ، أو فلسفة ، لا بقدر ما تحمل من كنوز ، وما تحتويه من قيم ، وإنما بقدر ما تبرزه هذه المعتقدات أو تلك الفلسفات من رجال يعملون على ترجمة المعانى ، وتجسيد المبادئ .

نلمس هذا فى المعتقدات السماوية ، ولدى الفلسفات أو الأيديولوجيات الوضعية ، ولعل هذا ما يدخل ضمن ما يسمى إجمالا فى لغة اليوم « بلقاء الحضارات وحوارها » على أن التقاء الحضارات وتحاورها قصة عريقة متجددة ، تضرب بجذورها من حيث القدم فى أعماق التاريخ ، وهى فى تماسها عبر الشواطئ ، والسواحل ، تأخذ من البحر مده وجزره .

فإذا قيض الله لحضارة ما فكرا نيرا وعقلا رشيدا ، تمتعت الإنسانية بنسمات ندية ، وأفكار خصبة غنية ، فكان المد الحضارى والإسهام الإنسانى البناء ، أما إذا أصيبت فلسفة ما ، أو حضارة من الحضارات بأناس ذوى حوصلة ضيقة ، وآفاق معتمة ، فذلك هو الضيق والحرج الذى يولد التعصب والحقد والكراهية .

وتاريخ البشرية حافل بالنموذجين من الأمثلة ، فى كل الديانات ، ولدى كل الفلسفات ، وعبر كل العصور ، ولعل أبرز مثال معاصر ، نجده فى العقل الغربى مجسما فى موريس بوكاى ، وسيجريد هونكه ، وغيرهما فى كتاباتهما عن الإسلام بكل موضوعية وأمانة دون اعتناق للإسلام ، ونجده أيضا عند رشاد خليفة وغيره فيما يكتبه عن الإسلام بكل ذاتية وعمالة رغم زعمه الانتماء للمسلمين .

فإذا عدنا إلى التاريخ الحديث وجدنا معادلة أخرى معكوسة « فيلسوف » « عقلانى » « متحضر » تجاوزت شهرته كما قال الأفغانى « الغرب كله لتلامس الشرق » ، ذلك هو الفرنسى « السوربونى » أرنست رينان ، فقد استعان هذا

الفيلسوف الفرنسى بكل مقولات العقل ، وقواعد المنهج جميعها لينحت منها سلاحا يوجهه إلى صدر العرب والمسلمين فكتب فى ذلك « محاضرة » علمية ألقاها على محفل علمى من الطلاب والباحثين ، واختار لها عنوانا جذابا هو « الإسلام والعلم » .

أما المفكر المقابل لذلك ، فهو المسلم المصلح جمال الدين الأفغانى الذى حاور فى أدب إسلامى ومنهجية إنسانية خصمه مستمدا قواعد الحوار ومقولات الجدل من الأدب الربانى : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ . فأنصف الديانات الأخرى ولم يظلمها ، وأعلى من قيمة الفلسفة ولم يحكم بتفاهتها لمجرد أن ممثلها أساء تقديمها للعقل الإنسانى .

وتعالوا نحتكم إلى الفكر المدعم بالنصوص من أقوال المتحاورين ، منذ أكثر من قرن وفى مثل هذه الأيام، وعلى التحديد فى ٢٩ مارس (آذار) ١٨٨٣م، ألقى الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان محاضرة صاخبة أمام النخبة المثقفة ، بجامعة السوربون الفرنسية ، تحت عنوان « الإسلام والعلم » ، والملفت للنظر فى هذه المحاضرة أن صاحبها دخل بأفكار مسبقة ، واستخدم مقدمات جاهزة ليصل إلى نتائج محددة سلفا ، وهو ما ينفى عنه بادئ ذى بدء أية منهجية علمية ، فقد حاول منذ البداية كما ذكرت ذلك صحيفة « ديبا » الفرنسية التى نشرت المحاضرة فى عددها الصادر بتاريخ ٣٠ مارس (آذار) ١٨٨٣م، حاول أرنست رينان أن يحذر معاصريه من المثقفين من عدم الوقوع فى أخطاء الخلط وسوء الفهم لمرتبطين بالأفكار السائدة ، والمتعلقة بالإسلام والعرب .

وهكذا يستهل المحاضر حديثه بمحاولة الكشف عن أسباب الخلط وسوء الفهم اللذين يعانى منهما المشتغلون بالتاريخ عموما ، وتاريخ الفكر الإسلامى على الخصوص فيقول بلغة العالم المحلل : « إن مما يسبب غالبا سوء الفهم فى التاريخ ، هو النقص فى إعطاء التحديدات المطلوبة لدى استخدام المفردات والمفاهيم ، لا سيما التى تتعلق منها بالأجناس والأمم ، فالحديث عن اليونانيين أو الرومان أو العرب يتم كما لو كانت هذه الكلمات ، إذا أطلقت تعنى مجموعة من البشر ظلت وفية دائما لهويتها الخاصة دون حسبان لما طرأ على هذه الأقوام من تغيرات

حدثت إما بسبب أنواع الغزو العسكرى أو الدينى أو اللغوى أو بسبب التيارات الكبرى المتنوعة التى تخترق عادة تاريخ الإنسانية » .

ويدعم المحاضر حكمه بإعطاء المثل بالفرنسيين أنفسهم فيقول : « نحن الفرنسيون مثلا يمكن اعتبارنا رومانيين بحكم اللغة ، ويونانيين من حيث الحضارة ، ويهودا بالديانة » وانطلاقا من هذه المقولة المنحازة المتعصبة عرقيا ، وحضاريا ، ودينيا ، يأخذ « الفيلسوف » فى نفث سمومه باسم « العلم والفلسفة » فيصدر أحكاما أقل ما يقال عنها إنها لا تصدر عن مثقف جامعى ، فضلا عن مفكر أو فيلسوف، إن القارئ ليخجل عندما يقرأ «لعالم عصره» وهو يعطى مثل هذا الحكم الذى يدينه العقل والعلم معا فضلا عن الدين والأخلاق ، فهو يقول عن العرب والإسلام بالحرف الواحد: « إن أى إنسان يعرف حد أدنى من شؤون عصرنا ، ليرى بوضوح مدى التدنى الحالى للبلدان الإسلامية فمن انحطاط الدول التى يحكمها الإسلام ، إلى الانعدام الفكرى الذى يميز الأجناس التى تعتمد فى ثقافتها وتربيتها على هذه الديانة وحدها . إن كل الذين زاروا الشرق أو إفريقيا قد صدمتهم هذه الاتكالية التى تستبد بعقل أى معتنق لهذه الديانة ، وهذا النوع من « الحلقة الحديدية » التى تحيط برأسه ، فتغلقه تماما أمام العلم ، وتحول دون انفتاحه على أية فكرة جديدة » . ويمضى أرنست رينان فى مواصلة أسلوبه الهيستيرى الحاقد على الحقيقة ومنطق الأشياء فيضيف : « إن الطفل المسلم ، قد يكون فى البدء مالكا لبعض الاستعدادات العقلية ولكنه ما أن يلقن بعض المبادئ الإسلامية ، ويبلغ السن العاشرة أو الثانية عشرة ، حتى يصبح فجأة متعصبا ، مملوءا بنخوة عقيمة فى كونه أصبح مالكا لما يزعم أنه الحقيقة المطلقة وكأنه سعيد بحصوله على ما يجعل منه فى نظرنا شخصا فى الدرجة السفلى ، إن هذا الكبر الجنونى هو العقدة الجوهرية للمسلم . فالبساطة المظهرية لمعتقده توحى إليه بنوع من الكراهية لا مبرر لها لكل الديانات الأخرى ، واقتناعا من المسلم بأن الله هو واهب المال والسلطة لمن يشاء ، دون اعتبار للمعرفة أو للقدرات ، فإن المسلم لديه بغض عميق لكل ما هو ثقافة ، أى لكل ما يشكل العقل الأوروبى » .

وعندما يتطرق أرنست رينان إلى ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ، والتقدم العلمى فيها قرونا عديدة بحيث أصبحت رائدة للغرب المسيحى فى العلم والفلسفة ، يتساءل المحاضر متحديا بذلك أبسط أحكام التاريخ ، ومسلمات الواقع الحضارى فيقول : « وهل وجد حقا علم إسلامى ، أو على الأقل علم تبناه ويسمح به الإسلام ؟ » .

ويجيب المحاضر على هذا السؤال الغريب فينفى عن العقل العربى ، وعن اللغة العربية كل استعداد علمى أو فلسفى فالعبقرية الوحيدة التى تميز بها العقل العربى إنما هى عبقرية الشعر والنثر أى العبقرية اللغوية ، أما الفلسفة فإن الله لم يهب العقل العربى أى شىء منها ولم يخلق لديه أى استعداد لتلقيها « فالعربى البدوى هو أكثر الناس اهتماما بالأدب ، ولكنه أقلهم تصوفا ، وأنقصهم ميلا إلى التفكير والتأمل » .

أما عن الفلسفة اليونانية ، ودور علماء الإسلام فى تعريف الغرب بها ، فأرنست رينان يتهم العرب بكونهم أساؤوا ترجمتها وفهمها ، لذلك كان ينبغى على حد قوله « التوجه إلى مكتبات القسطنطينية حيث توجد النصوص الأصلية للفلسفة اليونانية بدل الاعتماد على ترجمات غالبا ما اتسمت بالرداءة وصيغت بلغة لا تملك من الاستعداد ما يمكنها من التعبير عن الفكر اليونانى » .

وعندما تتهافت ضمنيا هذه الأحكام التاريخية فى ذهن صاحبها يستيقظ ليعترف بوجود فيلسوف عربى هو ابن رشد الذى ينتهى إلى التسليم بقيمته ولكنه ما يلبث أن يقول : « فعندما وصل ابن رشد إلى قمة شهرة لدى المدارس اللاتينية ، كادت تعادل شهرة أرسطو نفسه فإن ابن رشد آنذاك وقع تناسيه من جانب بنى ملته ، وبعد انتهاء القرن الثانى عشر لم يعد هناك أى فيلسوف عربى ينكر ذلك لأن الفلسفة كانت دائما مضطهدة داخل بلاد الإسلام على نحو لم يجعلها تختفى نهائيا ، وحل محل الفلاسفة الفقهاء ، وهكذا فإن المؤرخين لم يعودوا يذكرون الفلسفة إلا بوصفها ذكرى سيئة .. فقد كانت المخطوطات الفلسفية تحترق وصارت نادرة الوجود ، أما علم الفلك فلم يسمح بممارسته » .

ويخلص المحاضر الفيلسوف إلى استخلاص نتائج خطيرة يوجه بها جمهوره

المثقف فيقول : « إن ما يميز أساسا المسلم هو كراهيته للعلم ، وقناعته بأن البحث العلمى غير مجد لكونه مطية للزندقة وخاصة علم الطبيعة لأنه ينافس الله فى علمه ، وكذلك علم التاريخ الذى يتناول عصر الجاهلية ، أى ما قبل الإسلام ، لأنه يعمل على إعادة بعث الأخطاء القديمة » .

وحتى الخاتمة التى انتهى إليها فكر أرنست رينان والتى أوقعته فى تناقض عندما قال : « إن الإسلام يملك جوانب طيبة كدين فلم يحدث أن زرت قط مسجدا ، دون الإحساس بشعور بالأسف يملؤنى بكونى لست مسلما » ويضيف : « ولكنى بالنسبة للعقل البشرى أعود فأقول بأن الإسلام لم يكن سوى معرقلا لهذا العقل » .

« وفيما يخصنى بالذات فقناعتى أن العلم جيد ، وأنه وحده القادر على منحنا أسلحة ضد الشر ، وأن هذاالعلم فى النهاية لا يخدم سوى التقدم.. وأعنى بالتقدم التقدم الحقيقى، الذى لا يمكن فصله عن احترام الإنسان واحترام الحرية».

تلك كانت إذًا الخطوط العامة للتحدى الذى مثلته محاضرة أرنست رينان ، هذا التحدى الذى كانت له استجابة جمال الدين الأفغانى والتى اتسمت بالهدوء والموضوعية ، والحوار الإسلامى المتزن . وإذا كانت الحدة قد هدمت فى جمال الدين أحيانا ما بنته الفطنة كما قال رفيق جهاده محمد عبده فإن ما اتسم به رده على محاضرة رينان كما سنرى كان كله فطنة ترجمها أدب الحوار ، ورزانة العقل وقوة الحجة .

على أن ما يلمسه القارئ فى رد الأفغانى على رينان هو إغفاله لجوانب خطيرة فى المحاضرة لم يتطرق إليها أو ممالأته فى بعض الأحكام ، وهو ما يؤكد لدينا الشعور بأن جمال الدين الأفغانى كان ضحية ترجمة أو سوء تقديم لعناصر المحاضرة كلها وهو ما اعترف به مفكرنا فى بداية رده .

وبالرغم من هذه الإعاقة المنهجية فإن الاستجابة الإسلامية استطاعت أن تحكم بتفاهة التحدى الغربى ، بالحجة ، والمنطق المستمدين من الأدب الإسلامى فى محاورة تحديات أخرى مماثلة للمؤمنين .

ويستهل جمال الدين الأفغانى حواره مع أرنست رينان بالإشادة بقيمته الفلسفية وتقديره لشهرته التى فاقت الحدود . ثم يبدأ فى عرض أهم أحكام المفكر الفرنسى فيقول : « إن خطاب رينان قد اشتمل على نقطتين أساسيتين ، أولاهما ، أنه بذل جهده فى إثبات أن الإسلام فى جوهره الأساسى معادٍ لكل تطور علمى ، وثانيا ، أن الشعب العربى بطبيعته لا يحب العلوم الميتافيزيقية ، ولا الفلسفية » .

ويفهم من كلام رينان أن شجرة العلم الغالية هذه قد جفت بين أيدى أبناء الشعب العربى متأثرة بهبوب رياح الصحراء التى أحرقتها وقناعتنا أن المحاضر لم يكن لديه « الوقت الكافى » لتعميق هذا الموضوع والبحث عن أسبابه العميقة التى لو درست بعمق ما كان لها أن توقع صاحبها فى مثل هذا الخلط .

ذلك بأن أية أمة ليست قادرة فى أصلها بأن تسلم زمام قيادة أمورها للعقل وحده « وهذا ما يمثل عقبة بالنسبة للإنسان بوجه عام ذلك أنه لا يمكن – كما يضيف الأفغانى – أن ننفى بأن هذه التربية الدينية سواء أكانت إسلامية أو مسيحية أو غيرها ، هى التى مكنت الأمم من الخروج من طور الهمجية لتسير نحو حضارة أكثر تقدما .

فإذا سلمنا جدلا ، بأن الدين الإسلامى قد مثل عقبة فى طريق التقدم العلمى ، هل يمكن التأكيد بأن هذه العقبة لا يمكنها أن تزول يوما ما ؟ وأين يختلف الإسلام هنا عن باقى الديانات الأخرى ؟ إن كل الديانات تملك نوعا من عدم التسامح ، ولكن لكل ديانة طريقتها فى التعبير عن ذلك » .

فإذا سلمنا مع المحاضر بحقيقة كون الإسلام قد عمل على خنق أنفاس العلم ، وأوقف كل تقدم ، وإذا قبلنا بكون الإسلام قد عرقل الحركة العقلية والفلسفية ، وصد العقول عن طريق البحث فى الحقيقة العلمية ، فإن نفس المحاولة – إذا لم أخطئ – قد قامت بها الديانة المسيحية ، وأن قادة الكنيسة الكاثوليكية حسب علمى لم يتخلوا عن أسلحتهم فى محاربة ما يعتبرونه « مصدرا للصراع والخطأ » .

وقناعتنا ، كما يضيف الأفغانى ، أن أتباع أى دين إنما يتبعون فى ذلك الخط الذى رسمه لهم علماء الدين ومفسروه ذلك أن هؤلاء الأتباع لديهم اليقين الكامل ، بأن دينهم يحتوى على كل معانى الأخلاق ، وكل معانى العلوم ، ولذلك

فهم مصممون على أن لا يقوموا ببذل أى جهد لتجاوز هذا الدين ، وما جدوى القيام بمثل هذه المحاولة ؟ وماذا يفيد البحث عن حقيقة أخرى ، مادام المؤمن بهذا الدين يعتقد جازما ، بأن الحقيقة موجودة فى معتقده ؟ وهل سيكون أسعد من ذلك لو قدر له أن يفقد إيمانه فى يوم من الأيام ؟

وبعد هذا ينتقل الأفغانى إلى النقطة الثانية من رده على رينان ، وهى نفيه كل استعداد أو عبقرية علمية عن الجنس العربى يقول الأفغانى بهذا الخصوص : « إنه لا أحد يجهل أن الشعب العربى فى الوقت الذى كان فيه الغرب يعيش مرحلة التخلف والهمجية ، قد سلك طريق التقدم العلمى والعقلى ، وأنه حقق ذلك بسرعة لم تعادلها إلا سرعة فتوحاته ، فقد استطاع هذا الشعب خلال قرن واحد من الزمن أن يكتسب ، وأن يستوعب معظم العلوم اليونانية والفارسية ، التى تطلب تطورها البطىء عدة قرون فى أرضها الأصلية ، وهكذا لاحظنا كيف أن هذا الشعب العربى قد فرض سلطته على رقعة كبيرة من العالم امتدت من شبه الجزيرة العربية لتصل إلى جبال « الهملايا » و « قمم البيرينى » .

ويمكن القول أنه خلال هذه الحقبة كلها عرفت العلوم تقدما عجيبا لدى العرب ، ولدى كل البلدان التى كانت تحكمهم . فى ذلك الوقت كانت روما وبيزنطة تمثل قبلة العلوم اللاهوتية والفلسفية ومركز إشعاع قوى لكل أنواع المعرفة البشرية ، ولكن أتى على هذه المراكز العلمية حين من الدهر بعد ذلك ، تخلفت فيه عن أبحاثها وتوقفت كل الدراسات فيها ، فتحطمت بذلك تماثيل العلم التى أقاموها وسقطت كتبهم الثمينة فى طى النسيان .

« وجاء العرب الذين كانوا آنذاك جهلة ومتخلفين جاءوا لينقذوا التراث الذى تخلت عنه الأمم المتحضرة ، فأعادوا إضاءة مصابيح العلوم المنطفئة ، وطوروها ، ومنحوها إشعاعا لم تعرفه من قبل » ويتساءل جمال الدين الأفغانى : « ألا يمثل هذا علامة من علامات حب العرب الطبيعى للعلم ؟ » .

صحيح أن العرب قد أخذوا عن اليونان فلسفتهم ، كما أخذوا عن الفرس كل معالم شهرتهم فى القديم ، ولكن هذه العلوم التى أخذوها عن طريق الفتوحات قد عملوا على تطويرها ، وشرحها ، وتنميتها وتكملتها والتنسيق بينها بإعطائها ذوقا

رائعا ، وتحديدا ومصداقية نادرين ، لكن هذا كله تم فى الوقت الذى كان فيه الفرنسيون والألمان والإنجليز أقل بعدا من مركزى إشعاع روما وبيزنطة بالنسبة للعرب الذين كانت عاصمتهم بغداد .

لقد كان من السهل ، على هؤلاء الغربيين استغلال كنوز العلم والمعرفة ، وقد كانت فى مدينتين مجاورتين لهم ، ولكن الغربيين لم يقوموا بأى جهد فى هذا المجال ، حتى جاء اليوم الذى أشرقت فيه شمس الحضارة العربية ، ونشرت أشعتها على قمم جبال البيرينى ملقية بأضوائها وثرواتها على بلاد الغرب » .

كذلك فإن الأوروبيين قد أحسنوا استقبال أرسطو بعد ما هاجر من اليونان وأصبح عربيا ، ولكنهم قبل ذلك لم يفكروا فيه عندما كان يونانيا ومجاورا لهم ، ويتساءل جمال الدين الأفغانى بعد ذلك « ألا نجد فى هذا أيضا دليلا آخر بديهيا على تفوق العقل العربى ، وتعلقهم الطبيعى بالفلسفة ؟ » .

نحن نعترف ، كما يضيف الأفغانى ، بأن البلدان التى وصلت إلى قمة الإشعاع العلمى ، كالعراق والأندلس قد عادت فسقطت من جديد فى حظيرة الجهل والتعصب الدينى ، ولكن لابد لنا من أن نستخلص رغم ذلك من هذا المشهد المؤلم أن التقدم العلمى والفلسفى فى العصر الوسيط إنما يعود الفضل فيه إلى الشعب العربى الذى كان نفوذه هو السائد آنذاك .

ويمضى جمال الدين الأفغانى فى مقارعته الحجة بالحجة فيقول : « إن الإنصاف يقتضينى أن أشيد هنا ، بخصائص العلماء الفرس ، وبالدور الذى لعبوه فى العالم العربى ، ولكننى أسمح لنفسى أيضا بأن أقول بأن الحرانيين قد كانوا عربا ، وأن العرب عندما فتحوا الأندلس لم يفقدوا جنسيتهم ، فقد كانوا عربا حتى قبل الإسلام بقرون عديدة وكانت اللغة العربية هى لغتهم الأصلية ، وكونهم احتفظوا بديانتهم القديمة الصابية لم يكن ذلك يجعل منهم غرباء عن القومية العربية ، فالقساوسة السوريون هم فى أغلبهم عرب غساسنة اعتنقوا المسيحية » .

وهنا يعقد الأفغانى مقارنة بين ما ذهب إليه رينان من نفى للعروبة عن الفلاسفة ما عدا الكندى ، وعن الفرس وأقوام أخرى ، اعتنقوا الإسلام ، وهو من أصل غير عربى ، ويخلص المصلح المسلم إلى هذه النتيجة : « إن ما قلناه عن

الحرانيين والغساسنة ، ينطبق أيضا على ابن باجة وابن رشد وابن طفيل ، فلا يمكن اعتبارهم غير عرب مثل الكندى ، كما ذهب إلى ذلك رينان ، لمجرد كونهم لم يولدوا مثل الكندى فى البلاد العربية ، ذلك أن الأمم إنما تتميز باللغة التى تستخدمها .. كذلك فإن انتشار الإسلام فى بلاد الفرس ، قد أعطى بعدا عربيا آخر لعلماء الفرس الذين اعتنقوه ، وكانوا يحسون بشرف كبير عندما يكتبون مؤلفاتهم بلغة القرآن » .

ويؤكد الأفغانى ، أنه يكفى كدليل على بطلان حكم رينان أن نقول له بأن الثقافة تصنع الشعوب ، ولو قبلنا حكمه ، فمعنى ذلك أنه ربما تجىء إيطاليا فى يوم من الأيام إلى فرنسا ، وتطلب منها استعادة مازران MAZARIN وبطرنا بارت وإن بإمكان ألمانيا أو إنجلترا أن تطلبا استعادة علمائهما الذين استوطنوا فرنسا ، واستخدموا ثقافتها وجنسيتها .

ويختم جمال الدين الأفغانى حواره القيم لمحاولة فك الإشكالية القائمة بين الدين والفلسفة بوصفها إحدى النقاط المهمة التى ارتكزت حولها محاضرة أرنست رينان ، وبخصوص هذه الإشكالية يؤكد المصلح المسلم ، بأنها ستظل قائمة ، وأنه كلما أتيح للدين أى دين أن ينتصر فى أى مكان ، فإن ذلك سيؤدى إلى انحصار نفوذ الفلسفة والعكس صحيح ، فكلما انتصرت الفلسفة ، وما يصاحبها من عقل حر فسيتقلص دور الدين معها .

على أن جمال الدين الأفغانى يرجح كفة انتصار الدين فى النهاية ، لأن الفلسفة لا تملك مقومات النصر ، وأهمها رضاء عواطف الجماهير ، كما أن التعاليم الفلسفية لا يمكن أن تكسب إلا عددا قليلا من الناس ، وهم النخبة المتميزة من الشعب . كما أن العلم رغم أهميته وقيمته ، لا يمكن أن يرضى الإنسانية وحده ، لأنها – أى الإنسانية – ستظل متعطشة للمُثل ، والقيم ، وهذا ما يقوم به الدين .

لم يكن الأفغانى أنشط دعاة الجامعة الإسلامية ولا أعلمهم

الدكتور محمد حرب

قسم الاستشراق – المعهد العالى للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة

أقول الحق : إنى لم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لأن أكتب عن السيد جمال الدين الأفغانى ، أثيرت مسألة الأفغانى فى مصر فلم أقدر على المشاركة فيها . وفى مؤتمرين دوليين شاركت فيهما وطرقت الحديث – بحكم مادة تخصصى فى التاريخ العثمانى – عن الأفغانى والإطار الفكرى والتاريخى لحركة اتحاد المسلمين المعروفة بالجامعة الإسلامية فقام بعض سادتنا وأساتذتنا من الذين تعلمنا عنهم وأفدنا من إنتاجهم العلمى يطلبون عدم الاستمرار فى هذا الموضوع ، وقالوا : لصالح من نهدم الرواد ؟ فسكتّ احتراما ، وإن كنت غير مقتنع بوجهة نظرهم .

وأذكر أننى – مؤخرا – كتبت مقالة عن الأفغانى وأرسلتها إلى مجلة العربى ثم زرت جامعة إسلام آباد والتقيت هناك بالأساتذة وكان منهم أساتذة أجلاء من دار العلوم المصرية ووجدت أحدهم غاضبا منى كثيرا لأنى نشرت منذ أكثر من عشر سنوات بعض وثائق عن الأفغانى فى كتابى « مذكرات السلطان عبد الحميد » فما كان منى بعد عودتى من زيارة جامعة إسلام آباد إلا أن سحبت مقالتى من مجلة العربى معتذرا لها ، ثم فكرت فى نشر هذه المقالة فى مجلة الهلال المصرية ثم تراجعت خوفا من انفعالات أنا فى غنى عنها رغم أن هدفى كان شيئا يختلف عن معارك ملفات الأفغانى ، وأنى أكتب لمصلحة الحقيقة فليس لدى انتماء لجماعة فكرية من أى جانب كانت .

أقصد الحقيقة وما نكتبه قد يكون خطوة مهمة لمعرفة الرواد – أيا كان هؤلاء الرواد – وتصورى الشخصى أن أحدا لا يضار من مهاجمة أو مدح أو توسط طالما أن الكاتب يحاول الحياد ما أمكنه لا يحمل ولا يجمل . فالكاتب كما قال

الدكتور سعيد إسماعيل على – فى مقالة له فى الهلال المصرية – يكتب ويرد إذا كان الكاتب الذى أمامه نزيه القلم عفيف اللسان ويضيف هذا الأستاذ المحترم شيئا آخر وهو العلمية أى التخصص أو المعرفة عند الكتابة والرد .

إن العالم العربى يعج – للأسف – « بالانفلات الكتابى » إذا صح هذا التعبير ، فتجد أستاذا جامعيا متخصصا فى تفسير القرآن الكريم لا يعرف من التاريخ الحديث شيئا من أدواته تؤهله للقراءة والكتابة فى هذا التاريخ ينصب من نفسه كاتبا تاريخيا ليس فى الصحف فقط بل يصدر كتبا فى التاريخ ليس فيها أسلوب التاريخ ولا روحه ولا وسائله ، والمشكلة ليست فى هذا فقط بل وأيضا فى توزيع شتائمه على هذا وذاك . وأستاذ آخر فى الأدب الإنجليزى ينصب من نفسه حكمًا فى قضايا تاريخية لم تنشر بعد وثائقها كاملة ومازال اهل الاختصاص فيها يعانون ويحاولون حل طلاسمها . هذا النوع وذاك يتجاهل أصحابه أن العالم الآن عالم تخصص . ويتجاهلون أن « الانفلات الكتابى » أمر مضحك ومؤسف . أما هؤلاء المربون الفضلاء فلا أشك أنهم أصحاب فكر محترم لكن لى الحق فى أن أخالفهم ، فالنقد بجانبيه الإيجابى والسلبى ضرورة لوضوح الرؤية أمام الأمة فى كل أجيالها ، وإذا سمح لى بضرب بعض أمثلة فى ذلك أقول : إن أستاذا جامعيا درس لنا تاريخ الأتراك الحديث والمعاصر وكان رجلا متصوفا على الطريقة البيومية درس لنا أتاتورك وقال : إنه من الرواد وقارنه بعبد الناصر فقال فيه أيضا إنه من الرواد ، وجاء أستاذ يتحدث عن عزيز المصرى فقال : إنه رائد فوق مستوى الرواد ، ودرس لنا أستاذ آخر الأدب فقال لنا : إن الدكتور طه حسين أيضا من الرواد . وأذكر جيدا أن مفهوم الرائد عند الجميع أنه فوق مستوى النقد . والمحصلة النهائية توقف العقول وركود التكوين فى الأمة فمن أتاتورك إلى عبد الناصر إلى عزيز المصرى إلى طه حسين وغيرهم الكثير : رواد ، ويبدو أن كلمة الرائد رخصت أو هكذا يبدو . كل من هؤلاء الرواد له ما له وعليه ما عليه فلم لا نأخذ هؤلاء الرواد بالنقد والتحليل على مسمع ومرأى الرأى العام بشروط هى : عدم التجنى وعدم استغلال النقد والتحليل مادة إثارة وبشرط التخصص كل فى ميدانه ، وبالطبع بعيدا عن الإرهاب الفكرى عن طريق الشتائم .

أقول بعد ذلك : إن السيد جمال الدين الأفغانى رائد من رواد الحركة الإسلامية فى القرن الماضى لا يصلح اتخاذه الآن نموذجا . لم أقل إن السيد رائد حركة الجامعة الإسلامية كما يشاع بل كما قلت رائد من رواد ولم يكن السيد أنشط دعاة هذه الجامعة ولا أعلمهم ولا أتقاهم فغيره من العلماء الرواد لحركة الجامعة الإسلامية ، منهم من أعلم وأنشط وأتقى من السيد جمال الدين الأفغانى وإن تفرد هو بالذكاء الأشد والتأثير الأقوى والخيال والتناقض ..

والأفغانى : شخصية غريبة الأطوار ، وهو قوى الشخصية لا يخشى فى الحق - كما يراه - لومة لائم ، شخصية قيادية يدعو إلى الوحدة الإسلامية وترابط المسلمين ووقوفهم وقفة رجل واحد ، يستخدم كل ما يستطيع استخدامه من أشخاص ومؤسسات وأفكار - لتحقيق أهدافه فى الوحدة الإسلامية ، يمكن أن يوصف بالثورية أو بمعنى التعجل فى تحقيق أهدافه ، أصاب شهرة واسعة فى كل أرجاء العالم الإسلامى ، شهرة لم يصبها أحد فى مثل وضعه . يستبعد الإصلاحات الجزئية كإصلاح الإدارة فقط أو إصلاح التعليم فقط فوسائل الإصلاح الجزئية « لم تعمل على تحسين أحوال هذه الدول (الإسلامية) ولم تسهم فى حل مشاكلها كما لم تمكنها من الوقوف فى وجه أعدائها » .

وعند السيد جمال الدين أن الوسيلة فى نهضة العالم الإسلامى إنما تنحصر فى « إنهاض دولة إسلامية من حالة ضعفها وتبنيها للقيام على شؤونها وإيصالها إلى مصاف الدول القوية » . ولم يكن غير الدولة العثمانية دولة إسلامية بأوصاف السيد .

يرى الأفغانى ضرورة أن تأخذ الدولة العثمانية سياسة اللامركزية وتكون ولاياتها عبارة عن كيانات مستقلة استقلالا ذاتيا لا ترتبط باستانبول إلا فى المسائل المهمة فقط ، مكونة بذلك دولة اتحادية ثم ينضم إليها بعد ذلك جميع الممالك الإسلامية الأخرى كإيران وأفغانستان والهند . ويرى الأفغانى أيضا أنه يمكن أن يكتفى المسلمون باتحاد الاتجاه والهدف والشعور دون أى تفكير فى وحدة سياسية تنتظم جميع دولهم وحكوماتهم . ويبدو أن تراجع الأفغانى عن مشروعه الكبير فى الدولة الاتحادية الإسلامية والاكتفاء بتوحيد وجهة العالم الإسلامى قد حدث بعد أن

قابل الأفغانى السلطان عبد الحميد فى إستانبول وعرض عليه مشروعه فاكتشف السلطان أن الأفغانى كان نظريا فى تفكيره لم يتعمق فى فهم الوضع السياسى والفكرى فى بلاد المسلمين وقتها .

ولم يكن للأفغانى برنامج متكامل محدد المراحل واضح الأهداف فى مجال دعوته . بل إنه كان متعجلا يريد أن يرى أثر نجاحه الشخصى فى حياته . وقد أوجز أحد المفكرين الفرنسيين وهو « فرنو » فى كتابه « يقظة العالم الإسلامى » حركة الأفغانى بقوله : « قد أيقظ النفوس أكثر مما دلها على طرق جديدة » .

واتخذ الأفغانى فى سبيل نشر أفكاره فى وحدة العالم الإسلامى ، الآتى :

١ - حركته الشخصية من وقوفه خطيبا ولقاءاته بالزعماء والملوك وإعداد الخطباء وكبار المثقفين المسلمين مثل عبد الله النديم فى القاهرة ومحمد عاكف فى إستانبول .

٢ - الكتابة فى الصحف : من إنشائه لجريدة « العروة الوثقى » وأصدرها فى باريس بمساعدة من تلميذه الشيخ محمد عبده للدفاع عن قضايا العالم الإسلامى و « تنبيه الشرقيين » إلى ما فرطوا فيه من واجبات أدت إلى سقوط العالم الإسلامى وضعفه .

٣ - إنشاء الجمعيات والمؤسسات واستخدامها وسيلة لنشر أفكاره . وهذه فى « تكتيك » الأفغانى - كما يبدو - لا ينظر فيها إلى فروق المذهب أو السياسة أو العقيدة أما الجمعيات والمؤسسات التى أخضعها الأفغانى لخدمة قضيته فهى :

جمعية العروة الوثقى :

وهى إسلامية عالمية ، تقوم على أساس إسلامى بحت . تضم جماعة من كبار الشخصيات الإسلامية وكان على العضو فيها « بذل كل ما فى وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين وألا يؤخر إلا ما أخره الدين وألا يسعى قدما واحدة يتوهم فيها ضررا يعدو على الدين جزئيا أو كليا » .

وقامت لهذه الجمعية فروع فى شمال إفريقيا ومصر والهند وغيرها من أقطار المشرق الإسلامى . وهى جمعية يقول مؤرخو الأفغانى إنها سرية فى تنظيماتها

وأشخاصها وعلاقتها شأن كل التنظيمات التى أنشأها الأفغانى أو أشرف عليها .

الحزب الوطنى :

وهو تنظيم قائم على أساس وطنى قومى بحت . والحزب أنشئ فى مصر عام ١٨٧٩ م ، وامتدح اللورد كرومر - المعتمد البريطانى فى مصر - صنيع الأفغانى فى إنشاء الحزب الوطنى قائلا : « إن الحزب الوطنى هو أوضح مظهر لنهضة العرب منذ ثلاثة عشر قرنا » يعنى منذ ظهور الإسلام .

محفل الشرق الماسونى :

وهو محفل تابع لمحفل الشرق الفرنسى . وكان الأفغانى قد اتخذ من انضمامه للماسونية وسيلة لتحقيق أهدافه وقال بصدد هذا : « وأول ما شوقنى فى بناية الأحرار (الماسونية) عنوان كبير خطير : « حرية وإخاء ومساواة » ومنفعة الإنسان وسعى وراء دك صروح الظلم وتشييد معالم العدل المطلق » .

ولكن ينبغى القول هنا إن الأفغانى عندما قدم طلبه للاشتراك فى الماسونية ذكر فيه أنه « مدرس العلوم الفلسفية بمصر » ووصف فى طلبه هذا الماسون بأنهم « إخوان الصفاء » يعنى هذا أنه كان يدرك موقف الماسونية من الدين .

ولما تبين للأفغانى عقم الأساليب التى يتبعها هذا المحفل وقصوره عن تحقيق الأهداف التى يرمى السيد إليها تركه لينشئ محفلا آخر ضم تلامذته والمعجبين به بلغ عدد المشتركين فيه ثلاثمائة وكان من بينهم ولى عهد مصر محمد توفيق الذى أصبح والى مصر بعد ذلك .

الجدير بالقول هنا أن أول انضمام للأفغانى للماسونية كان فى المحفل الماسونى فى القاهرة (عام ١٨٧٨ م) وكان هذا تابعا للمحفل الإسكتلاندى البريطانى فلما غضب منه الأفغانى أنشأ محفلا تابعا لمحفل الشرق الفرنسى .

جمعية إيران الفتاة :

وهى جمعية من البابيين الإيرانيين الذين فروا من إيران بعد سلسلة من أحداث الشغب والإرهاب التى اقترفوها فى بلادهم ، مؤسس هذه الحركة البابية هو محمد على رئيس مذهب الشيخية الباطنية الذى أعدم مع أحد مريديه فى تبريز عام

١٨٥٠ م فنزح زعماء طائفة البابيين إلى بغداد فرارا بأنفسهم من الاضطهاد وعلى رأسهم صبح الأزل وأخيه بهاء الله وكانت بغداد وقتها عثمانية . وبناء على طلب من الحكومة الإيرانية إلى الباب العالى بأن ينقلهم إلى مكان أبعد ، بداخل الدولة العثمانية . نقلوا بالفعل إلى إستانبول ثم إلى أدرنه وهناك ادعى بهاء الله أنه المظهر الأول للإرادة الإلهية كما قال « الباب » مؤسس الحركة . عندئذ نشب الخلاف بينه وبين أخيه الأكبر بعد أن رفض هذا وحزبه الاعتراف بدعوة بهاء الله . وقام نزاع دام بين الفريقين تدخل على أثره الباب العالى (الحكومة العثمانية) فنفى بهاء الله وأتباعه إلى عكا ، ونفى صبح الأزل وأتباعه إلى قبرص . وهكذا عاش البابيون والبهائيون مشتتين منفيين مراقبين فى الدولة العثمانية .

وبعد أن قام السلطان عبد الحميد بتوجيه دعوة إلى جمال الدين الأفغانى عام ١٨٩٢ م – بعد توسط منيف باشا حامى الأفغانى وبعد إهمال السلطان نفسه لطلب سابق أرسله إليه الأفغانى – لزيارة إستانبول ، أقام الأفغانى فى قصر خصصته له الحكومة العثمانية فى حى شيشلى هناك . وفى العاصمة قام الأفغانى بنشاط متشعب فى سبيل دعوته ومن هذا النشاط أنه كان بمثابة « المرجع والمستشار » للبابيين ، فقد قام الأفغانى بتنظيم جمعية لهؤلاء البابيين فى إستانبول أسماها جمعية « إيران الفتاة » كما أرسل بعض منها سرا إلى إيران للقيام بالدعاية ضد الحكم الإيرانى . وكانت مجموعة من هؤلاء البابيين تتعيش على عملية نقل مطبوعات « تركيا الفتاة » و « الاتحاد والترقى » ، وهى مطبوعات ممنوعة من قبل السلطات العثمانية – من أوربا لتوزيعها على أعضاء الاتحاد والترقى فى داخل البلاد العثمانية . كما كان هذا القسم من البابيين يقوم بطباعة الأعمال الإعلامية والأدبية التى يكتبها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد المخالفة للنظام العثمانى .

ويذكر إبراهيم تيمو ، مؤسس جمعية الاتحاد والترقى أن رضا العجمى – تلميذ جمال الدين الأفغانى وقاتل شاه إيران والذى قال له عند قتله إياه.خذها بيد جمال الدين – كان يمده ويمد زملاءه الثوار فى إستانبول بالصحف الممنوعة التى تصدرها معارضة عبد الحميد فى أوربا وتدخل البلاد العثمانية خلسة .

والجدير بالذكر هنا أن الأفغانى أقام رابطة بين جماعتى إيران الفتاة وتركيا الفتاة

فى البلاد العثمانية وأوربا . وغير معروفة – حتى الآن – مقررات جمعية إيران الفتاة فى إستانبول – ويسميها المؤرخ العثمانى أبو الضياء توفيق الشركة الإيرانية – ولا يعلم أحد أعمالها ، ويبدو أنها سارت على خطة الأفغانى فى تشكيلاته ألا وهى التكتم . وقد فصل فى هذا البروفيسور شريف ماردين فى كتابه الرصين « تركيا الفتاة » .

وفق الأفغانى فى انتقاء شخصيات شابة من مختلف البلاد التى يحل بها ومن بين المعجبين به ، كان يهتم بهم ويعنى بتربيتهم لكى يأخذوا دورهم مستقبلا فى بناء الأمة الإسلامية ، وكان – كعادته – محايدا فى انتقائه لمن يقربهم منه ، ذلك أن الهدف النهائى هو الأساس فى حركته ، على ذلك اختار من إستانبول شابا أصبح فيما بعد رائد التيار الإسلامى فى تركيا وهو الداعية المسلم وشاعر الإسلام محمد عاكف . كما انتقى الأفغانى أيضا من إستانبول الشاعر محمد أمين وبث فيه الأفغانى ثوريته . وأصبح محمد أمين فيما بعد الشاعر القومى الرائد فى تركيا ، وتأثير جمال الدين فى فكر جمعية الاتحاد والترقى إنما جاء عن طريق زميلهم الشاعر محمد أمين .

ومن الغريب أيضا أن نعد من تلامذة الأفغانى الذين اختارهم من إستانبول الحقوقى النابه « محمد سيد أفندى » الذى أصبح فيما بعد محمد سيد بك ، القانونى التركى البارز صاحب كتاب « الخلافة : ماهيتها الشرعية » وصدر فى إستانبول عام ١٩٢٤ م وهذا الكتاب عبارة عن خطبة محمد سيد بك فى البرلمان التركى – فى عهد أتاتورك . قدم فيها هذا الحقوقى الصيغة القانونية لموجبات إلغاء الخلافة الإسلامية . وقد ألغيت وكان محمد سيد بك يرى الفصل بين الالتزام الشخصى بالإسلام وبين الشريعة الإسلامية .

ومن تلامذة الأفغانى من مصر الشيخ الإمام محمد عبده والزعيم سعد زغلول قائد ثورة مصر عام ١٩١٩ م تحت شعار « الدين لله والوطن للجميع » ووحد المصريين مسلمين وأقباط ضد الإنجليز . والجدير بالذكر أن سعد زغلول هو مؤسس حزب الوفد فى مصر أول حزب يفصل بين الدين والدولة .

أيد الأفغانى دعوة السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية وقدم مشروعات

أكبر بكثير من طموح السلطان الذى لم يأمل فى أكثر من وحدة هدف وحركة بين الشعوب الإسلامية تكون الخلافة فيها ذات هيبة وقوة .

لكن السيد جمال الدين عرض – فيما عرض – على السلطان مشروعا يرمى إلى توحيد أهل السنة مع الشيعة . مع أن نظرة السلطان عبد الحميد لم تكن ترمى فى هذا الصدد إلا توحيد الحركة السياسية بين الفريقين لمواجهة الاستعمار العالمى . ومع ذلك فقد استفاد السلطان كثيرا من الأفغانى فى « الدعاية » إلى الجامعة الإسلامية رغم الاختلاف الواضح بين فكر السلطان وبين السيد ، ومن أسباب هذا الاختلاف :

١ – إيمان الأفغانى بقضية وحدة المسلمين وتأييده – فى نفس الوقت – للثوار ضد السلطان عبد الحميد من القوميين والماسون .

٢ – دعوة الأفغانى إلى وحدة الأمة الإسلامية لمواجهة الاستعمار العالمى الرامى إلى تقسيم الدولة العثمانية ، وفى نفس الوقت لا يتعرض الأفغانى للاستعمار الفرنسى ولو بكلمة تنديد فى وقت احتاج السلطان عبد الحميد إلى مقاومة فرنسا فى شمال إفريقيا .

٣ – تنديد الأفغانى بالاستعمار الإنجليزى فى حين يذكر السلطان عبد الحميد أن المخابرات العثمانية حصلت على خطة أعدت فى وزارة الخارجية الإنجليزية واشترك فيها الأفغانى و « بلنت » وتقضى بإقصاء الخلافة عن السلطان عبد الحميد وعن العثمانيين عموما . وهذه الخطة هاجمها مصطفى كامل باشا المصرى فى كتابه « المسألة الشرقية » مهاجما بلنت ساخرا منه . وكان بلنت قد صرح بهذه الخطة فى كتابه « مستقبل الإسلام » .

٤ – رغم الأطماع الروسية ضد الدولة العثمانية – دولة الخلافة الإسلامية وقتها – واحتلال روسيا لأجزاء من الدولة العثمانية فقد كان موقف الأفغانى من مبدأ الاحتلال الروسى لأراضى المسلمين ومن مبدأ التوسع الروسى ، غريبا على مفهوم الجامعة الإسلامية لأن الأفغانى كان يعترف بما للروس من مصالح حيوية وإستراتيجية فى الهند تدفعهم لاحتلالها . وأن ليس للأفغانى اعتراض على هذا

الاحتلال إذا حدث . بل ينصح الأفغانى الروس باتباع أسهل السبل وأسلسها لتنفيذه ، وذلك بأن يستعينوا بدولة فارس وبأفغانستان لفتح أبواب الهند – ولم تكن باكستان قد قامت بعد – شريطة أن تساهما فى الغنيمة وتشركهما فى المنفعة .

٥ – الخلاف العقدى الذى ظهر بين العلماء المسلمين فى إستانبول وبين السيد جمال الدين الأفغانى وظهور كتاب الشيخ خليل فوزى الفيليباوى « السيوف القواطع » للرد على عقيدة الأفغانى وسكوت الأفغانى على هذا وعدم دفاعه عن نفسه . والكتاب باللغة العربية وترجم وقتها إلى اللغة العثمانية أيضا .

٦ – ميل السلطان عبد الحميد إلى تركيز السلطات فى يده بعد أن ذاق الأمرين من وزرائه وضباط جيشه وصدوره العظام المتأثرين بالفكر الغربى وأصحاب الانتماءات والولاءات لأعداء الدولة والذين هدفوا إلى إقامة ديمقراطية أوربية تضم مجلسا منتخبا يمثل كل شعوب الدولة العثمانية ، ومعارضة السلطان عبد الحميد لهذا بحجة أن عدد النواب المسلمين سيكون حوالى نصف العدد الكلى للبرلمان فى حين أن السيد جمال الدين الأفغانى يميل إلى الديمقراطية وعدم تركيز السلطات فى يد شخص واحد بعينه ، وميل الأفغانى أيضا إلى الحرية فى التعبير عن الرأى .

ولا أرى أن قولى هذا هو حد الفصل فى ملف الأفغانى . وأميل إلى أن ملف الأفغانى لا يفتح إلا وفيه مؤرخون يقدمون ما يستطيعون من « معلومات » ويقوم آخرون من أهل التخصص فى التاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع بدراسة ما يقدم لهم من « معلومات » عن الأفغانى ويحللونها لحل هذا اللغز الغامض المسمى باسم « السيد جمال الدين الأفغانى » .

السيد جمال الدين الأفغانى وحقيقة فكره وموطنه

الدكتور محمد أمان صافى
جامعة الملك عبد العزيز – جدة

أولا – الأفغانى وفكره :

قصة فلسفة الأفغانى الإصلاحية عريقة متجددة تضرب بجذورها الإسلامية من حيث القدم والأصالة فى أعماق الحركات الإسلامية فى العالم . إننى أعتقد جازما أن الحديث عن الأفغانى صاحب التجربة الأولى فى الفلسفة الإصلاحية يأتى تلبية لحاجة الأجيال الإسلامية الماسة إلى معرفة تاريخها وحاجتها الملحة لعوامل الثقة التى تربطها بهذا التاريخ المجيد القريب منه والبعيد وما فيه من الأدوار البطولية الرائعة التى قام بها زعماؤها من أمثال السيد الأفغانى ومحمد عبده ، ومن قبلهما من أمثال محمد بن عبد الوهاب والشيخ الشوكانى . وإذا كان الأفغانى ومحمد عبده امتدادا للشوكانى ومحمد بن عبد الوهاب فإن الشوكانى وابن عبد الوهاب كانا فى الحقيقة من نتاج صرخة التوحيد التى رفعها وقادها الإمام أحمد ابن حنبل للعودة إلى منهج القرآن عن طريق العودة إلى الأصولية ، وقد تحولت الصيحة الحنبلية إلى الثورة الإسلامية على يد شيخ الإسلام ابن تيمية الرامية إلى العودة بالإسلام السلفى إلى أصوله . وقد ظهر على مر الأجيال والعصور مصلحون عظام ، وثائرون مسلمون أحدثوا ثورات إصلاحية عظيمة مؤثرة ترتبط فى أفكارها الإصلاحية الثورية بالأصولية الإسلامية المستلهمة من دعوة ابن حنبل السلفية وصرخة ابن تيمية الثورية المدوية فى أرجاء العالم الإسلامى .. الأفغانى إذا نجم لامع فى تاريخ حركات البعث الإسلامى فى العصر الحديث .

فليس من الغريب أن تكون أفكار الأفغانى بذرة لكل ثورة إصلاحية ، أو تحرك وطنى فى البلاد الإسلامية ، بل فى بلاد الشرق قاطبة ، لقد زرع الأفغانى فى أرض الإسلام بذرة اليقظة والحرية والاستقلال والاستنارة والجهاد ضد كل ما هو

ضد الإسلام ، وضد كل ما هو ظالم ومستبد وجائر . ولم تتوقف الدعوة الإصلاحية المطالبة بالعودة السلفية وأصول الإسلام عند الأفغانى أو تلميذه محمد عبده ، ولكنها شكلت نبعا صافيا دافقا ظل يتنامى منذ تلك الأيام حتى أيامنا هذه التى نعيش فيها .. فقد ظل فكر الأفغانى الثورى يؤثر فى سلسلة طويلة تالية من المجددين السلفيين من أمثال رشيد رضا ، السنوسى ، المهدى ، حسن البنا ، المودودى ، سيد قطب وغيرهم كثيرين . ومن تلاميذ هذه الثورة فى العصر الحاضر من الأفغان النيازى ، والسياف ، وحكمتيار ، والربانى ، والخالص ، وجميل الرحمن . كان الأفغانى قوى الإيمان والاعتماد على الله ، لا يبالى ما يأتى به صروف الدهر . إن غبار ثورته ، وأثر حركته ، وصدى فكره الثورى الإصلاحى لا يزال يترك بصماته الواضحة على الحركات الإسلامية فى كل البلاد الإسلامية ، وهو من أكثر الشخصيات الإسلامية تأثيرا وأصالة وعمقا .. وثورة الأفغان الحالية نموذج حى لذلك .

فقد فرض الأفغانى نفسه وفكره ومنهجه على أكثر من بلد إسلامى ، وعلى أكثر من حركة إصلاحية ، وفرض ثقله السياسى والاجتماعى على كثير من المواقف والأحداث العالمية فى عصره ، وكان فكره الإصلاحى الثورى جزءا غير منفك من كل ثورة قامت فى الوطن الإسلامى . وهو الذى وضع الجذور الحقيقية للإحياء والبعث الإسلامى فى ملة الإسلام وهو الذى حرك فى أهلها الهمم والمشاعر الإسلامية، ونبهها إلى الخطر المحدق عليها من الغرب ومن الشرق معا .

إعادة الحقيقة الإسلامية إلى واقع الشعوب الإسلامية :

دعا الأفغانى بقوة الإيمان والاقتناع إلى إعادة الحقيقة الإسلامية الكاملة إلى واقع الشعوب الإسلامية ، وبذل فى ذلك جهدا جبارا ليدفع تلك الشعوب إلى تلك الحقيقة التى حققت المثل العليا والأخلاق الفاضلة والسلوكيات السامية فى الحياة الإسلامية فى عهودها الذهبية الأولى التى صنعت النهضة الأولى لأمة الإسلام . ولم يكن من الميسور ولا من السهل وقتئذ أن تتم هذه النقلة الثورية العظيمة .. نقل الحقيقة الإسلامية الكاملة إلى واقع الشعوب الإسلامية ، أو نقل واقع الشعوب المسلمة إلى تلك الحقيقة فى طرفة عين ، أو بين يوم وليلة نظرا لبعد

المسافة الزمنية بين تلك الحقيقة وبين واقع الشعوب .. حاول الأفغانى جاهدا نقل الشعوب الإسلامية من واقع باطل إلى تطبيق الحقيقة الإسلامية من خلال الثورة السريعة التى حمل لواءها ليجعل من القرآن والسنة النبوية نبراس المسلمين وإمامهم فى كل البلاد الإسلامية . ومن أجل ذلك وضع أساس الحركة الإسلامية المعاصرة ، وركز على القرآن والسنة باعتبارهما العروة الوثقى بين الشعوب المسلمة قاطبة . وبذلك كان الأفغانى أكثر أصالة من غيره من زعماء عصره ؛ إذ إنه تمسك بالقرآن ومنهجه القويم لأجل النهوض بالشعوب الإسلامية ، ولأجل الصمود والوقوف فى وجه حركة التغريب التى نادى بها البعض ، وموقفه الصلب والحازم من نظرية دارون الإلحادية الدهرية هو أول صيحة قوية لمواجهة هذا الخطر من الفلسفة المادية ، والحركة العلمانية فى العالم الإسلامى . وقد أبرز فى ذلك خصائص الفلسفة الإسلامية ومزاياها القرآنية ودفع بها نظرية دارون الدهرية .

إن الأفغانى يحسب حب الوطن الإسلامى دينا ، والدفاع عنه جهادا ، والموت فى هذا السبيل شهادة وهذا هو الشعار المفضل للتنظيمات الجهادية الأفغانية فى الوقت الحاضر ، وهو يرى كما يرى أبناء وطنه المجاهدون أن الله قد قدر فى ذلك النعمتين ، وللسائر فى ذلك الحسنيين ، وعاش فى ذلك لأجل ذلك ، ومات عليه راضيا رغم أنوف الحاسدين الذين يحاولون عبثا تأويل كلامه إلى ما لم يقصد ، وحاولوا عبثا إطفاء نور جنباته النيرة ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الحاقدون المبطلون . إن الأفغانى فكر نيّر ، وعقل إسلامى رشيد قيضه الله لإحياء الحركة الإسلامية فى العالم ، فعاشت به وعاش لها ، وتمتعت بثمار فكره المستنير ، وقد قادها نحو التثوير والتطوير والنهوض لمواجهة المخاطر ، ومسايرة المستجدات مستندا فى ذلك إلى الأفكار السلفية الإسلامية الأصيلة المستلهمة من القرآن والسنة النبوية المطهرة .

لقد أثار الأفغانى ثورة فكرية ودينية وسياسية كبرى كان الهدف منها إيقاظ العالم الإسلامى من غفوته وتنبيهه إلى مخاطر الزحف العدائى الاستعمارى الغربى ، وتجديد الاجتهاد الإسلامى ، وبعث النهضة الإسلامية فى كل الديار الإسلامية من المشارق والمغارب . وقد جاءت ثورته الإسلامية الإصلاحية هذه حلقة قوية دعمها معه تلميذه الإمام محمد عبده فى إطار الدعوة الإسلامية السلفية إلى الأصولية

الإسلامية . وثورة الأفغانى مزيج من الجانبيـن الدينى والدنيوى عملا بالفكرة الواردة فى هذا القول المأثور « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .. وكان يتمتع بمهابة عظيمة وعلم غزير فى كلا الجانبين .. حيث أحس بما يشيع فى المسلمين من خرافات وأباطيل ، فأخذ يعرض الإسلام بطريقة تقنع المنكرين ، وتقمع المغرورين ، وتستنهض المنهزمين ، وتطرد الجمود والخمول من المتنائمين المتواكلين ..

غالى الأفغانى فى التركيز على الخصائص الأدبية والفكرية التى كرم الله بها الإنسان ونوه بعظمة العقل وقدرته على كشف الأسرار والأغوار الفكرية ، ويرى تعطيل العقل مرادفا للحيوانية أو الموت ، وهو يـزدرى بشدة الأهواء والميول النفسية ، والتقنينات الأجنبية ، ويجعل القرآن أساس الحكم فى الأرض ، ويحتقر الجمود والخمول والفلسفات الانهزامية التى تشد المسلم إلى الوراء ، وتعطل عقله وفكره .. وفى هذا نجد أنفسنا أمام صيحة مدوية قوية ثائرة من صيحات الحق ، ودعوة صادقة مخلصة من دعوات البعث ، والإحياء لواقع الشعوب الإسلامية المر . وقد عاش الأفغانى لأداء هذه الرسالة التى حمل لواءها على أكتافه ، ومات أو قتل شهيدا فى سبيلها فى إطار الظروف والملابسات التى أحاطت به فى حياته وعصره .. لم يتحكم فيه اليأس والقنوط ، ولم يستسلم أبدا للهوان والذل ، ولم يقف عند الموانع والعقبات حائرا ، وقد دك الجبال ، وشق البحار ، وقطع القفار لتحقيق ما أراد تحقيقه ، والفوز بما أعده الله له من تأدية رسالة الإسلام ، ومجد المسلمين بعودتهم إلى الإسلام الأول .

ثانيا – الأفغانى وقصة الخلافات والخصومات :

وقصة فكر الأفغانى مع صانعى الخلافات والخصومات فى الأمة الإسلامية والنافخين فى كيرها ، والمتكسبين بها قديمة متجددة تضرب هى الأخرى بجذورها فى القدم فى أعماق ثورته الإسلامية الإصلاحية . إن القارئ ليخجل عندما يقرأ لعالم فاضل من العلماء الأجلاء وهو يصدر ويعطى حكمه هكذا جزافا حول فكر الأفغانى ودعوته الإسلامية الإصلاحية ، ولا شك أن مثل هذا الحكم الجزافى الذى لا يصدر إلا عن ضيق السلوكيات العلمية ، والأخلاقيات الأدبية ، وهو يتحدى

بذلك أبسط أحكام التاريخ ، ومسلمات الواقع التاريخى للزعامة الإسلامية .

مأساة الأفغانى مع بعض أبناء أمته :

ومأساةالأفغانى مع بعض أبناء أمته الإسلامية التى ناضل من أجل رفعة شأنها ، وكافح فى سبيل استئناف مسيرتها الحضارية ، وبعث النهضة الإسلامية فى كل شعوبها ، هذه المأساة دليل بيّن على حالة الاضطراب التى عاشتها وتعيشها الأجيال المسلمة ، وهى تقوّم الحدث والواقع والموقف والشخص فى إطار بنيتها التاريخية من حيث الأصالة من خلال الدائرة الإسلامية التى تدعو إلى وضع كل شىء موضعه ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وعلة هذا الاضطراب عند هذا البعض فى تقويم منهج الأفغانى تعود إلى عدم استيعاب هذا النفر من العلماء الأجلاء لظاهرة التكامل الشخصى التى تفرد بها الأفغانى من ربه البارى ، من التكوين الخالص ، والذكاء الخارق ، والذاكرة المتميزة ، والكفاءة البارعة ، والفطنة الفائقة ، والأسلوب الأخاذ فى التأثير والإقناع ، والتبحر المبكر فى علوم القرآن والسنة ، والإحاطة الكاملة فى العلوم الشرعية ، والباع الطويل فى الفلسفة والاجتماع ، وفى العلوم الكونية ، والإتقان الكامل لعدد من اللغات واللهجات ، كل ذلك بفضل من الله وتوفيقه ، كما تميز الأفغانى بصلاته الاجتماعية والسياسية الواسعة محليا وإقليميا وعالميا . نعم إن عدم الاستيعاب لأبعاد فكر الأفغانى الذى كان له فضل السبق فى تجديد عالمية فكرة الإسلام ، وكان له السبق المبكر لفهم قضايا الأمة الإسلامية بعمق لهو دليل مأساة الأفغانى المفترى عليه ، ودليل حالة الاضطراب التى تعانى منها الأجيال المسلمة . ورغم ذلك فقد استطاع الأفغانى أن يؤثر تأثيرا قويا فى سير الحركات الإسلامية ، وهو تأثير له جذوره المتجددة ، ودعوته إلى الجامعة الإسلامية لتحقيق الوحدة الإسلامية بين المسلمين ما زالت تتجدد أيضا فى كل يوم وفى كل ظرف يمر به المسلمون فى هذه الحياة الموزعة بين الحق والباطل وبين الدين والسياسة .

كان الأفغانى صاحب فكر نير مستنير ، وصاحب عقل حكيم رشيد تمتعت الإنسانية بثماره ، وأفادت الحركة الإسلامية من تجاربه الناضجة ، ولكن بعض علمائنا الأجلاء قد أساء فهمه وترجمته ، لعدم فهمه لروح العصر الذى كان

يعيش فيه هذا المصلح ، فكان من الطبيعى أن يلقى منه الأفغانى نوعا من المقاومة التى أساسها الجمود ، وعدم الفهم والاستيعاب . وفك الإشكالية القائمة بين هؤلاء وهؤلاء حول منهاج الأفغانى الإصلاحى لا يأتى إلا عن طريق التوجه الكامل إلى فكر الأفغانى ومنهاجه واستيعابه استيعابا كاملا بعيدا عن ضيق الأفق ، والجمود ، والحقد ، وبقدر ما يكون ذلك الاستيعاب الفكرى دقيقا واضحا واسعا شاملا بقدر ما يوفر ذلك حظ الفهم والوصول إلى أعماق هذا الفكر ، والنفاذ إلى طبيعته الصافية انطلاقا من الواقع وليس من الوهم وبحثا عن الحقيقة وليس الجرى وراء السراب . وهذا هو مفتاح فك الإشكالية القائمة بين المؤيد والمعارض الذى دأب على داء الاختلاف ، وقد أشار الأفغانى إلى ذلك بقوله : « الشرق الشرق .. لقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه ، فوجدت أن أقتل أدوائه انقسام أهله وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف .. فعملت على توحيد كلمتهم ، وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم ... » .

كان الأفغانى مجتهدا ومجددا والمجتهد معرض للخطأ والصواب ، المجتهد فى الإسلام له أجران إن أصاب الحق من اجتهاده وأجر إن أخطأ فى اجتهاده . وهو فى بعض اجتهاداته من أكثر الشخصيات إثارة للجدل والخلاف حول أفكاره الاجتهادية . كاد العقل الإسلامى أن يتوقف لتوقف الجهاد والاجتهاد ، وذلك نظرا للظروف الاستعمارية التى كانت تحيط بالعالم الإسلامى فى عصره ، ونظرا لتنشيط حركة التبشير والتنصير ، واستطاع الأفغانى بفكره الثورى الوقاد أن يعيد إلى الفكر الإسلامى نشاطه وحيويته ، وأن يوقظه من جديد ، وغذاه بالحرية اللازمة للتفكير والاستنارة باعتبار أن الجمود العقلى يساوى موت الشعوب ، فكان ذلك بمثابة إنقاذ الشعوب الإسلامية من الموت والهلاك .

ثالثا – الأفغانى وموطنه :

لست فى معرض الدفاع عن الأفغانى ومنهاجه الاجتماعى والسياسى ، وأما ما سقته من بعض النقاط حول هذا المنهاج فالغرض منه تمهيد لما هو آت من الحديث الخاص بموطن الأفغانى الذى يقول : « لقد جمعت ما تفرق من الفكر ،

ولمت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفنى الأفغان ، وهى أول أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلى ، فإيران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب : من الحجاز هى مهبط الوحى ، من يمن وتبابعتها ، ونجد والعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودعاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها ، وما آل إليه أمرهم » .

الأفغان وهى أول أرض مس ترابها جسمى .. هذه الأرض التى مس جسم الأفغانى ترابها أرض كونر إحدى الولايات الأفغانية الثلاثة فى شرق أفغانستان ، وهى أول أرض أعلنت الجهاد الإسلامى عام ١٩٧٤ م ، وهى أول أرض تنعم بالحكم الإسلامى ، وهى أول الفتوح فى الحروب الإسلامية الجارية فى أفغانستان ، فأين كان موطن الأفغانى فى هذه الأرض بولاية كونر ؟ ..

وقصة سادات كونر وأشرافها تضرب بجذورها التاريخية الطيبة من حيث القدم فى أعماق التاريخ الأفغانى فى هذه الأرض الأفغانية ، ومن حيث التأثير فى أعماق الحياة الاجتماعية والسياسية للشعب الأفغانى .. وبخاصة فى كونر التى يتجدد فيها إشعاع الثورة الفكرية والنضالية والإصلاحية التى أطلقها السيد الأفغانى فى القرن الماضى بتجدد الصراع بين الحق والباطل . وفوق أرض كونر دارت معارك حامية بين أهالى كونر وبين الجيش الإغريقى بقيادة الإسكندر المقدونى قد أصيب فيها الإسكندر نفسه بجراح كما أصيب فيها عدد من قواده ، الأمر الذى أثار غضبه ضد الأهالى ، فأقام مذابح جماعية قتل فيها جميع الأسرى من أهل كونر بوحشية ، ثم قام بعمليات التدمير والتخريب والتقتيل إلى أن وصل إلى أسمار فى أعالى كونر ، ومنها وصل إلى باجور حتى وصل إلى بشاور عن طريق دير وسوات .

كونر الموطن الذى ولد فيه الأفغانى :

تقع ولاية كونر الموطن الذى ولد فيه الأفغانى شمال شرق أفغانستان ، ويحدها شرقا كل من جترال ، ودير ، وباجور ، وشمالا بدخشان ، وغربا لغمان ، وجنوبا ننجرهار ، وبها سلاسل من الجبال الشاهقة تكسو قممها الثلوج ، وتمتاز جبالها بكثرة الأشجار كالصنوبر ، والبلوط والزيتون والبطم وغيرها ، وداخل وديانها تنبت طبيعيا أشجار التوت والعنب والرمان والعناب والجوز والمشمش

وأشجار الدلب وكثير من مختلف أنواع النباتات ، وأرض كونر تحتوى على كثير من الأحجار الكريمة ، والثروة الحيوانية فى كونر من أهم مواردها الاقتصادية .

ومن المناطق المشهورة فى كونر منطقة نورستان (أرض النور) التي كانت تدعى كافرستان (أرض الكفر) قبل دخول أهلها فى الإسلام أيام الأمير عبد الرحمن خان ، وذلك سنة ١٨٩٦ م . وتقدر منطقة نورستان بخمسة آلاف من الأميال المربعة التى تربط كونر بعدد كبير من الولايات الأفغانية فى الشمال والغرب والجنوب ، وفى أقصى الشرق بباكستان والصين والهند ، وهى نقطة الاتصال بين سلسلتين من الجبال .. هندوكش فى أفغانستان وجبال هملايا فى الهند .

ويتألف أهل كونر التى ينتمى إليها الأفغانى من عدد من الأصول العرقية الأفغانية كقبائل الصافى والتاجك والماموند والسالارزى والمهمند والكوجر (الغجر) والنورستانى والشينوارى ، وتجتمع كلها تحت لواء العقيدة الإسلامية والوطن والتقاليد والعادات والأصل العرقى الواحد فى وحدة إسلامية متماسكة . واللغة السائدة هى اللغة البشتونية ، وهناك لهجات ولغات محلية أخرى كاللهجات النورستانية المتعددة ، والكوجرية (الغجرية) والأشكنية ، والبشوية (البشئية) وغيرها من اللهجات وأغلبها مشتقة من اللغة البشتونية (الأفغانية) كما أن كثيرا منها فى طريقها إلى الفناء والموت .

ونهر كونر من أشهر الأنهار فى الأقاليم الشرقية وقد ورد ذكره فى الأدب الويدى باسم « راسا » وهو من أهم روافد نهر كابل ، ويشق طريقه من الشمال إلى الجنوب ، ويصب فى نهر كابل بالقرب من « سمر خيل » القاعدة العسكرية التى استولى عليها المجاهدون الأفغان أخيرا ، ويتردد صدى هذا النهر فى الأدب الأفغانى كثيرا لصفاء مائه وغزارته . ويقسم كونر إلى جزئين الشرقى والغربى ، ومن الغرب تطل عليه وديان « دره نور » (وادى النور) ومزار ، وديوكل ، وباديل وبيج ، وشيكل ، وكلها منازل قبائل الصافى ومواطنها الخضراء الجميلة ، ومن روافد نهر كونر المشهورة نهر بيج . ووادى بيج من أكبر الوديان الكونرية مساحة وسكانا ونشاطا وحركة ، وعلى يد قبائل الصافى أسلم أهل نورستان قديما . وعلى يد الشيخ جميل الرحمن اشتعلت الشرارة الأولى للثورة الإسلامية وطارت من بيج حتى شملت ولاية كونر كلها .

وعلى طول نهر كونر وعلى مدى جانبيه أو شاطئيه الشرقى والغربى ينتشر كثير من المدن والقرى مثل شكه ، خيوه ، بوديلى ، إسلام بور ، منكوال ، خاص كونر ، تنر ، سوكى ، بابر ، نرهنك ، بشد ، سركانو ، نوآباد ، أسعد آباد ، الحاضرة ، كيراله (كرهاله) ، دوشاخيل (وهو مدخل وادى بيج) مرهوره ، شين كولك (شين كورك) ، دانكام ، أسمار (بها القاعدة العسكرية المشهورة) نارى ، شال ، كامديش ، بريكوت ، بركيمتال ، وغيرها .

وفيما يلى المدن والقرى التى تقطنها أسرة السيد جمال الدين الأفغانى على طول ولاية كونر وعرضها ، ونبدأ القصة بإيجاز شديد بهذا التمهيد المختصر عن تاريخ حركة الأفغانى الإصلاحية :

من كونر إلى كابل :

فى سنة ١٨٥٧ م ظهر فى بلاط الأمير دوست محمد خان فى كابل المصلح جمال الدين الأفغانى آتيا من كونر أرض آبائه وأجداده ، ومسقط رأسه ومهد آلامه وأحزانه الإسلامية حاملا فكرا ثوريا وهاجا ، وكان الأمير مشغولا بكامل قواه بالمؤامرات التى يدبرها الإنجليز والروس ضد أفغانستان ، فلم يتمكن من الاستفادة من هذا الثائر ، ولم يلتفت إلى برنامجه الإصلاحى ، ورغم ذلك واصل الأفغانى الذى ولد فى أسعد آباد بكونر سنة ١٨٣٨م، وأصبح أحد قادة حركات التحرير فى العالم ، وأحد أشهر مؤسسى الحركة الإسلامية وخاصة فى أفغانستان وصاحب مدرسة كبرى فى تجديد الفكر الإسلامى - واصل نشاطه الإسلامى والسياسى والاجتماعى فى العاصمة الأفغانية حتى أيام الأمير شير على خان وكان أثناء ذلك من مؤيدى الأمير محمد أعظم خان ، إلا أن الاضطرابات التى صادفتها البلاد الأفغانية أصبحت عقبة فى طريقه حيث كان الأمراء الأفغان فى صراع مرير مع الإنجليز والروس يحاولون إنقاذ البلاد من ويلات تلك الصراعات الدامية .. « إنى اضطررت لترك بلادى الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض ... » فقد غادر الأفغانى بلاده مضطربة ولكنه ترك فيها حركة يتردد صداها حتى الآن فى جنبات جبال « هندوكش » و « تخت سليمان » نعم ، غادرها محلقا فى أرجاء العالم الفسيحة حاملا دعوته السلفية الإصلاحية إلى الوحدة الإسلامية ، وإلى

تحرير الشرق من ربقة الاستعمار والعبودية والاستبداد .

نترك الأفغانى محلقا فى سماء العالم الإسلامى داعيا إلى الوحدة الإسلامية فى إطار الجامعة الإسلامية ، وإلى تحرير الشرق من العبودية والاستبداد فى إطار الحرية والاستقلال ، ونعود إلى موطنه الذى ترك فيه دعوته الثورية الإصلاحية الإسلامية ، وهى تتفاعل بين زعماء أسرة السيد الأفغانى ، وجماعة العلماء والشيوخ ، وزعماء القبائل والعشائر الأفغانية . وقد لخصت الحديث عن المنازل التى تعيش فيها أسرة السيد الأفغانى فى أربع نقاط رئيسية وهى أسرة الأفغانى ، ولغته الأصلية ، وأسرة أخواله ولغتهم ، والانتماءات المشتركة بين الشعبين الأفغانى والإيرانى ، بالإضافة إلى كلمة قصيرة للرد على الافتراءات وذلك لإزالة الشك الذى أثاره بعض المتشككين بغرض التشكيك فى الزعامات الإسلامية فى العصر الحديث ، مستغلين فى ذلك ما يجرى الآن فى بعض الأجزاء من العالم الإسلامى من المنازعات المؤسفة المؤلمة . فالمسألة ليست فى كون الأفغانى أفغانيا أو إيرانيا أو ماسونيا ، بل الهدف هو التشكيك ، وإثارة البلبلة ، وزعزعة الثقة فى الزعامة الإسلامية وموقف الدكتور لويس عوض المتحايز للثقافة الغربية المسيحية غير خاف على أحد ، وكرهه للأفغانى نابع دون شك من حبه لدينه ومن ميوله للدول الغربية التى يؤمن بولائها ، ومن هذا المبدأ هاجم الأفغانى وعبر فى هجومه عن حقده الكامن فى نفسه .. كما سيأتى ذلك بشىء من التفصيل .

أسرة السيد جمال الدين الأفغانى :

ولأسرة جمال الدين الأفغانى فى كونر بأفغانستان الشرقية منزلة عالية نظرا لمكانتها السياسية والاجتماعية والعلمية إذ كانت لها الإمارة والسيادة على إقليم كونر موطن الأفغانى ، وبيته بيت علم ومجد وعز وشرف وسيادة ورأى فى الميادين والمجالات المختلفة ، ثم إن الحياة التى أمضاها السيد الأفغانى فى البلاط فى كابل ومع الأمراء من الأسر الحاكمة كان لها تأثير على شخصيته . وهذه الحياة تعتبر نقطة تحول فى كفاحه الإسلامى الوطنى ضد التبعية والاستعمار ، كما كانت حياته فى أسرته نقطة تحول فى حياته الاجتماعية والعلمية .

عاش السيد فى أسرة ذات منزلة عالية فى منازل الأفغان إذ كان بيته بيت عز

وشرف ، وإذا كان التكوين الفسيولوجى هو المؤثر فى تكوين شخصية زعيم أو فيلسوف أو مصلح فإن الوضع الجغرافى والبيئة الاجتماعية والأوضاع السياسية ومشاهد المعارك والحروب كل ذلك له تأثير قوى ومؤثر أيضا فى تنشئه الفرد وتفكيره وسلوكه تجاه المجتمع الذى عاش فيه ، وكذلك تجاه الآخرين من الشعوب والدول والحكومات .

نبغ السيد الأفغانى فى عائلة رجالها بارزون فى ميادين العلم والأدب والسياسة والنضال أشداء أقوياء تحتفظ بعزتها وكرامتها وقوتها الإسلامية وسخائها وشجاعتها ونخوتها الأفغانية وعظمتها العائلية ، ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى إقليم جبلى وعلى ضفاف نهر هادر صاف نقى المياه يطبع أهله بطابع البيئة الجبلية الناضرة ، وبنقاء المياه المتدفقة وهديرها ، رؤوسهم عالية كشموخ الجبال ، وقلوبهم صلبة لا تهزها الرياح العاصفة ، وأفكارهم صافية كالسماء حين تشرق عليها الشمس ، وحول جبال كونر الشاهقة وعلى ضفاف نهرها دارت معارك ضارية ثائرة مع الغزاة والطغاة المعتدين ابتداء من معارك الإسكندر التاريخية وحتى العصر الحاضر أيام الاحتلال الروسى لأفغانستان حيث كانت أول إقليم من الأقاليم الأفغانية فاضت فيها انتفاضة الجهاد المقدس ضد الاحتلال الروسى وأعوانه . وهذه الحياة – كما أسلفت – نقطة تحول أخرى فى حياته الاجتماعية .

بيت السيد الأفغانى بيت علم وثقافة بالإضافة إلى مكانته السياسية والاجتماعية ، تعلم السيد اللغات العربية والأفغانية والفارسية ، وكانت الثقافة الإسلامية مسيطرة ومنتشرة فى البلاد الأفغانية ، وفيما جاورها من البلاد ، وقد نبع فى هذه البيئة الإسلامية علماء فى علوم التفسير والحديث والفقه من أمثال القاضى مبارك ، والعالم الفاضل حمد الله ، والكاتب المؤلف محمود الجونفورى ، والمنطقى الشهير عبد الحميد السيالكوتى ، والمحدث العظيم الشاه نعمة الله ، وكان معاصروه وزملاؤه فى الكفاح ؛ نجم الدين العالم ، والمناضل صديق حسن ، والشيخ أختزاده السواتى ، والملا مشك عالم ، وغيرهم من العلماء المناضلين ، وكانت الصلة قوية ومتينة بين السيد الأفغانى وبين هؤلاء المناضلين فى بلاد الأفغان .

عاش الأفغانى فى كونر كما عاش فيها آباؤه وأجداده ، وكان يتردد على مدينة

« جلال آباد » حاضرة « ننكرهار » لدراسة العلوم العربية ، ووفقا للتقاليد الأفغانية فى رحلة الشتاء والصيف كان السيد الأفغانى يسافر مع أسرته إلى منطقة « خوكيانى » الجبلية لقضاء فصل الصيف هناك فى سفح الجبل الأبيض (سپين غر) فى ننكرهار ، ويلاحظ أن سادات كونر وأشرافها وغيرهم من الأغنياء يملكون بيوتا فى كونر للمعيشة الدائمة طوال العام ، كما يملكون بيوتا أخرى فى المصايف مثل « خوكيانى » وكابل وغيرهما من المصايف الأفغانية لقضاء أشهر الحر فى الصيف ، وكنوع من تغيير الجو ، فأسرة السيد كونرية أفغانية انتشر أبناؤها فى الأقاليم والمناطق الأفغانية المختلفة ، أما فى وادى كونر فلهم فيها خمسة مراكز رئيسية ، بالإضافة إلى قرى ومدن أخرى منتشرة فى جميع أنحاء الإقليم يعيش فيها أشراف كونر وساداتها ، وهذه المراكز هى :

١ – إسلام بور (مدينة الإسلام) وتقع على شاطئ نهر كونر عند مدخل الوادى على يمين الذاهب إلى الحاضرة « أسعد آباد » وقلاعها الحصينة ما زالت شامخة شموخ أهلها ، وكأنها فى سباق مع الزمن والجبل والنهر ، ومدينة « إسلام بور » القديمة التى يقطنها فرع آخر من هذه الأسرة الكريمة ، والسيد مصطفى (بابا باشا) كان عميدا لأسرة السيد فى « إسلام بور » حتى منذ عدة أعوام مضت .

٢ – نرهنك (قبيلة الشهامة والرجولة) نراها رابضة فى وسط وادى كونر ، وتقع أيضا على شاطئ النهر فى الساحل الغربى ، وفى مقابلها على الجانب الآخر من النهر تربض قرية « بشد » التى تشتهر بحقول الأرز الجيد الممتاز ، وتسكنها طائفة من سادات كونر وأشرافها ، وعميد أسرة السيد فى « نرهنك » هو السيد غلام رسول باشا .

٣ – دو شاخيل (قبيلة السادات) وتقع بجوار « أسعد آباد » الحاضرة ، على شاطئ نهر « بيج » تحت سفح الجبل ، ويلتجئ إليها أفراد قبائل « صافى » وغيرهم لحل المنازعات القبلية ، والمشاكل الاجتماعية ، وللتبرك أيضا .

٤ – شين كولك (شين كورك) (الطوفان الأخضر) وتقع بين «أسعد آباد» و «أسمار» بعيدا عن الشاطئ ، وأحد أفراد هذا الفرع من الأسرة كان سفيرا لأفغانستان فى

مصر ، وهو السيد شمس الدين مجروح . وأسمار هذه قاعدة عسكرية هامة فى الوادى ، وكانت مسرحا للمعارك الدامية بين الثوار المجاهدين الأفغان ، وبين القوات الحكومية الموالية للشيوعية ، وقد استسلمت بكامل أفرادها وأسلحتها للمجاهدين .

٥ – شال (الرداء النسائى) وتقع بين « أسمار » و « كامديش » فى أعالى وادى كونر ، بالقرب من حدود مقاطعة « دير » المشهورة ، ومن أشهر شاعرات هذه الأسرة فى « شال » هى (مستورة شال) التى كانت تعمل مذيعة بإذاعة كابل ، وكانت لها مشاركات أدبية وشعرية ونقدية فى الإذاعة والصحافة الأفغانية .

وهكذا نرى انتشار أسرة السيد جمال الدين الأفغانى فى مختلف أنحاء منازل الأفغان فى أفغانستان وغيرها ، وخاصة فى وادى كونر بأسفله وأعاليه ووسطه ذلك الوادى الذى لا يتكلم أهله إلا اللغة الأفغانية .

لغة السيد جمال الدين الأفغانى الأصلية :

تنتشر فى أفغانستان لغات ولهجات كثيرة ، يزيد عددها على ٣٥ لغة ولهجة أفغانية ، أكثرها رواجا وانتشارا لغتان .. الأولى : الأفغانية التى اشتهرت باسم البشتونية أو البختونية ، والثانية : الدرية التى تعرف باسم الفارسية ، وكان السيد الأفغانى يجيد اللغتين ، فما هى لغته الأصلية يا ترى ؟؟ إن السيد الأفغانى من سادات كونر المشهورين وأشرافها الذين لا يتكلمون إلا اللغة الأفغانية (البشتونية) كبقية القبائل الأفغانية التى تقطن هذا الوادى الجميل ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فإن جدته من الأم السيدة مريم كانت ابنة الزعيم دولت خان تزوجها السيد على الترمذى عندما استقر به المقام فى « دير » بعد انتقاله إليها من موطنه الأصلى ، والزعيم دولت خان ينتمى إلى الأسرة الحاكمة التى كانت لها السيادة على إقليم « دير » المجاور لإقليم كونر ، فالأسرتان .. أسرة السيد كانت لها السيادة فى كونر ، وأسرة أخواله كانت لها السيادة على مقاطعة دير ، وهى تنتمى إلى قبيلة « اليوسفزى » الأفغانية المشهورة . وأفراد هذه الأسرة أيضا لا يتكلمون إلا اللغة الأفغانية (البختونية) فالسيد أفغانى كونرى المولد ، وأفغانى

الأصل أبا وأما ، وأفغانى لحما ودما ، وكان يتكلم اللغة الأفغانية لغة آبائه وأجداده ، وتعلم اللغة الفارسية لغة البلاد الأفغانية الثانية ، كما كانت الأسرتان لا تعرفان فى ذلك الوقت غير اللغة الأفغانية (البشتونية) أو (البختونية) ولذلك نراه يطالب الحكومة الأفغانية حينذاك بتقوية هذه اللغة والنهوض بها ، وذلك عندما قدم إليها برنامجه الإصلاحى المشهور .

وبالإضافة إلى ذلك كان السيد يتكلم اللغة الأفغانية مع ملازمه الوفى أبى تراب الأفغانى الذى عاون الشيخ محمد عبده فى ترجمة كتاب السيد « الرد على الدهريين » إلى اللغة العربية ، وكان كذلك يتكلم مع صاحبه وصديق أسفاره الحاج موسى القندهارى الذى كان يرافقه فى مصر وفى تركيا ، وكان من أصدقاء السيد الأفغانى أيضا السردار عبد الله خان الذى لم يكن يتكلم أو يجيد إلا اللغة الأفغانية ، وقد كان الشيخ الشهيد عبيد الله خان صافى الذى ترجم العروة الوثقى إلى اللغة الأفغانية ، قد قابل الحاج موسى القندهارى الذى لم يكن يتكلم أو يجيد إلا اللغة الأفغانية ، وقد قص عليه بالتفصيل ما كان يجرى بينه وبين السيد الأفغانى من الحوار والمناقشات والأحاديث فى أسفارهما .

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : « ... وفى نفيه الأخير إلى الهند كتب مذكرات كثيرة فى موضوعات مختلفة بالفارسية والأفغانية ... » . ومن المعروف أن السيد جمال الدين الأفغانى كان قد أصدر أول جريدة فى أفغانستان باسم « كابل » كما يرجع الفضل إليه فى صدور جريدة « شمس النهار » أيام الأمير شير على خان ، فلعل السيد كتب هذه الموضوعات الكثيرة لجريدة أو صحيفة « كابل » أو لجريدة « شمس النهار » على اختلاف الأقوال فى الأقدمية .

وكان السيد الأفغانى يسكن فى منطقة شرقى كابل العاصمة الأفغانية فى حى يدعى « سراجى » وكان الناس فى هذا الحى يلقبونه بالشيخ الكونرى وبالملا الكونرى نسبة إلى موطنه كونر بأفغانستان الشرقية ، ويلاحظ أن أهالى الولايات الشرقية يتمركزون حتى الآن فى الأحياء الشرقية من كابل .

كان زعماء أسرة السيد جمال الدين الأفغانى يقودون الغزوات الهجومية ضد الجيوش الإنجليزية التى كانت تتمركز على الحدود بين أفغانستان والهند

البريطانية .. إننى ما زلت أذكر جيدا – كأننى أسمع وأرى – تلك الصرخات والهتافات المدوية التى كان يتردد صداها ووقعها الجميل فى جنبات وادى « بيج » الضيق فى كونر عندما أعلن زعماء أسرة السيد الجهاد المقدس ضد الحكومة الإنجليزية التى أعلنت عزمها على إنشاء طريق فى منطقة « مومند » (منطقة القبائل الأفغانية الحرة) المتاخمة لحدود أفغانستان فى إقليم كونر منبت السيد الأفغانى ، وكان الإنجليز قد استقطعوها وضموها إلى إمبراطوريتهم فى الهند ، وما زلت أشاهد تلك الحشود البشرية المتوجهة نحو الحدود بقيادة زعماء سادات كونر للاشتراك فى الحرب المعلنة ضد الإنجليز مع القبائل الأفغانية الأخرى ، وقد حاولت – وأنا صغير – الاشتراك فى الجهاد إلا أن الأخ الأكبر هو الذى اشترك فيه مع بقية أفراد قبيلة « صافى » ومنعنى بشدة وبنوع من الزجر لصغر سنى .

أسرة أخوال السيد جمال الدين الأفغانى :

قلنا : إن لأسرة السيد الأفغانى منزلة عالية فى منازل الأفغان فى الميادين والمجالات العلمية والسياسية والاجتماعية ، وقد تحدث عنها كل من أرخ للسيد الأفغانى ، أو تحدث عن فلسفته الإصلاحية ، فهل كانت أسرة أخواله تتمتع بمثل هذه الشهرة والمنزلة العالية ؟ هل كانت لها منزلة رفيعة فى المجالات العلمية والسياسية بين القبائل الأفغانية وعشائرها ؟

لعلنا نعرف جميعا كتابا مشهورا فى الفقه الحنفى وهو « وقاية الرواية فى مسائل الهداية » المشهور بين أهل العلم وطلابه فى أفغانستان باسم « شرح الوقاية » لمؤلفه برهان الشريعة محمود بن صدر الشريعة عبيد الله المحبوبى ، وحظى الكتاب بعشرات من الشروح والحواشى ، منها حاشية « لاجبوكى »التى طبعت لأول مرة فى مدينة بشاور ، ومؤلف هذه الحاشية اللاجبوكية هو الملا « بازمير » اليوسوفزى ابن الشيخ إلياس الزعيم والشيخ الأكبر فى هذه الأسرة ومؤسسها الأول ، وقرية « لاجبوك » تتمتع بشهرة علمية كبيرة بسبب حاشية اللاجبوكى للملا (الشيخ) بازمير ، وبسبب وجود ضريح أبيه الشيخ إلياس فيها ، وكان الشيخ إلياس هذا قد تعلم الطريقة الصوفية النقشبندية على يد الشيخ آدم المشوانى الأفغانى الذى كان يعيش فى البنجاب بالهند ، وعندما أمر الإمبراطور المغولى

« شاه جهان » بطرد الشيخ آدم من البلاد توجه إلى البلاد الحجازية المقدسة ومعه تلميذه ومريده إلياس ، وقد توفى الشيخ آدم بالمدينة المنورة عام ١٠٥٣ هـ ، وعاد الشيخ إلياس إلى بلدته « لاجبوك » وواصل إرشاد الناس على الطريقة النقشبندية ، وتوفى عام ١٠٨٦ هـ عن عمر كان يزيد على ٩٠ عاما .

وكان الشيخ إلياس يتمتع بزعامة أسرة أخوال السيد جمال الدين الأفغانى فى المجالات العلمية والروحية إلى جانب الزعامة الاجتماعية ، بينما كان ابنه الملا بازمير يمثل الزعامة العلمية فى حلقات الدرس والتحصيل فى مسجد بلدة لاجبوك ، وعندما زاد عدد أفراد هذه الأسرة ، وضاقت بهم بلدة لاجبوك قام الشيخ غلام محمد خان أحد أحفاد الشيخ إلياس النقشبندى المجددى بنقل الأسرة كلها إلى مدينة « دير » الحاضرة ، وكان الرجل طموحا فجمع من حوله القبائل ، فاجتمعت له الزعامة الدينية ، وزعامة القبائل بجانب الزعامة العلمية ، تولى بعده أمر هذه الزعامة المزدوجة ابنه الشهير محمد قاسم خان اليوسفزى ، واستمرت الإمارة والسيادة والزعامة فى هذه الأسرة – أسرة أخوال السيد الأفغانى – إلى عصور متأخرة .

إلى هذه الأسرة الدينية والصوفية والعلمية والسياسية ينتمى الزعيم دولت خان الأفغانى والد السيدة مريم التى تزوجها السيد على الترمذى الجد الأكبر للسيد الأفغانى ، فهو إذا ينتمى إلى جد كريم من سادات كونر وأشرافها ، وإلى جدة كريمة من سادة القبائل اليوسوفزية الأفغانية .

الانتماء المشترك بين الأفغان والفرس :

لاشك فى أن التاريخ المشترك بين الشعبين المسلمين .. الأفغانى والإيرانى ، والحدود المتداخلة بين البلدين الشقيقين .. أفغانستان وإيران ، والتشابه الشديد بين التقاليد والعادات الأفغانية والإيرانية ، والاشتراك فى الثقافة واللغة ، مع الاشتراك فى كثير من أسماء الأقاليم والمدن والقرى والأنهار ، والانتماء المشترك إلى الجنس الآرى ، كل ذلك له تأثير قوى فى الانتماء إلى صفات مشتركة ، وبالتالى فإن ذلك كله يمهد الطريق للادعاءات فى نسبة المفاخر الأدبية والتاريخية ، وخاصة إذا كان أحد الطرفين يتمتع بإمكانيات لا يتمتع بها الجانب الآخر مثال

ذلك كله ما يأتى كنماذج للتوضيح وليس على طريق الحصر :

١ - الاشتراك فى الانتماء إلى الجنس الآرى : من الثابت تاريخيا أن الجنس الآرى أو القبائل الآرية القديمة كانت تعيش قبل الميلاد بآلاف السنين فى مهدها الأول فى أعالى جبال « بامير » أو فى المناطق الشمالية من أفغانستان بالمعنى الأوسع ، وكانت لها هجرتان بعد أن ضاقت بها تلك الأجزاء من أفغانستان .. الهجرة الأولى كانت إلى الشرق وفيها قامت بنشر اللغة الآرية وآدابها وطقوسها الدينية فى كتابها « الويدا » فى ربوع الهند الفسيحة ، وكانت الهجرة الثانية إلى الغرب وفيها قامت بنشر لغتها الثانية الزندية وآدابها وديانتها فى كتاب « الأوستا » للزردشت الآرى الذى ولد فى مدينة بلخ التاريخية فى شمال أفغانستان ، وقد آمن بها الملوك الآريون من الأسرة الأسبية البلخية المشهورة ، فالديانة الأولى - إن صح هذا التعبير - بدأ ظهورها على أيدى الريشيين (الشعراء) فى أفغانستان ، ثم نضجت واكتملت فى البلاد الهندية ، فهى ديانة أو طقوس دينية آرية (أفغانية - هندية) والديانة الثانية الزردشتية نشأت على الأرجح فى شمال أفغانستان وانتشرت فى إيران وتمركزت هناك فهى أيضا ديانة آرية (أفغانية - إيرانية) وعلى هذا فإنه يجوز لكل من البلدين أن يدعيها لنفسه ، وخاصة بعد أن قام الاستعمار بإحياء القوميات التاريخية والعقائد الخرافية للشعوب القديمة لمحاربة الإسلام .

٢ - من الثابت تاريخيا أيضا أن أساطير رستم الخرافية قد تمت وجرت أحداثها بين كل من إقليمى سيستان وزابلستان فى أفغانستان الجنوبية الغربية ، وهما إقليمان تاريخيان قديمان ذكرهما أصحاب الشهنامات أمثال الفردوسى وغيره كثيرا ، وإلى زابلستان هذه ينتمى السلطان محمود الغزنوى حيث كانت أمه من بنات أحد أمرائها ، ومن هنا يلقب أحيانا بالزابلى أيضا ، والإقليمان ما زالا موجودين باسميهما التاريخيين .. سيستان وزابلستان ، هذا فى هذا الجانب ، وفى الجانب المقابل فى إيران يوجد الآن منطقتان بهذين الاسمين .. بمعنى أن جزءا من سيستان التاريخية اقتطعته الحكومات القديمة وضمته إلى إيران ، أما زابلستان فلست أدرى كيف وجدت فى إيران الحالية غير أن نقول : تسمية جديدة هناك لنسبة المفاخر الخرافية إليها . علما بأنه لا توجد حدود مشتركة بين زابلستان

الأفغانية وبين ما يسمى بزابلستان فى إيران الحالية ، كما هو الحال بين سيستان الأفغانية وسيستان الإيرانية .

٣ - التاريخ يقول والواقع يثبت أن الطالقان تقع وتوجد فى أفغانستان الشمالية وإليها ينسب عدد كبير من العلماء والأدباء والكتاب ، وهناك الآن إقليم فى إيران يسمى طالقان أيضا ، ولا توجد حدود مشتركة بين الطالقان الأفغانية التاريخية القديمة وبين الطالقان فى إيران ، ولعل السبب هو وجود عدد من المفاخر الأدبية والعلمية فى الطالقان ، ونسبة هذه المفاخر إلى الطالقان الإيرانية دون الأفغانية .

٤ - ومن الأسماء المشتركة بين البلدين المسلمين أيضا .. مرغاب الأفغانية ومرغاب الإيرانية ، وأسعد آباد الأفغانية فى كونر بأفغانستان الشرقية ، وأسعد آباد الإيرانية ، وكذلك أسد آباد الأفغانية وأسد آباد الإيرانية ، أما إسلام آباد فاسم لثلاث مدن فى كل من أفغانستان ، وإيران ، وباكستان ، ومن الأسماء المشتركة فى الأنهار .. هلمند الذى يلقب بنيل أفغانستان ، و « هريرود » فى غرب أفغانستان .

٥ - وقديما ادعى الإمبراطور الفارسى دارا الكبير أن أم الإسكندر المقدونى كانت جارية من جواريه حيث قام أحد ملوك اليونان الأقدمين بتقديمها له كهدية ، وعندما غضب عليها أعادها إلى بلادها وهى حامل بالإسكندر الأكبر . فلما ولد الإسكندر وكبر قام بالهجوم على الإمبراطورية الفارسية وهزمها انتقاما لأمه المطرودة . فإذا كان الإسكندر قد هزم الإمبراطور الفارسى فإنه فارسى الأصل وليس من الأصل الإغريقى ، وبالتالى لم يتلق الهزيمة من الإغريق .

٦ - يدعى بعض الكتاب الإيرانيين أن سليمان عليه السلام ما هو إلا جمشيدا (يما) الإمبراطور الآرى القديم الذى تمكن بسلطانه أن يسخر الجن والنور فى صناعة عرش له يطير فى الهواء . وهدفهم من مثل هذه الخرافات والأساطير نسبة المفاخر إلى الجنس الفارسى .

٧ - الأسر البيشدادية والكيانية والأسبية أسر ملكية جاء ذكرها فى كتاب الأوستا وكانت تحكم البلاد الآرية (الأفغانية) قبل الهخامنشيين والماديين بزمن طويل ، أى لا علاقة زمنية بين البيشداديين والكيانيين والأسبيين فى باختر الأفغانية

وبين الهخامنشيين والماديين فى إقليم فارس القديم . وللبيشداديين والكيانيين والأسبيين مفاخرهم القومية والأدبية والبطولية جاء ذكرها فى كتاب الأوستا ، هذه البطولات والمفاخر نسبها بعض الكتاب إلى الهخامنشيين والماديين لأن عظمة الإمبراطورية الهخامنشية والمادية تقتضى ذلك .. إن المجد والعظمة ليس إلا لملوك إيران قديما وحديثا .

٨ – زردشت الآرى من بلخ فى أفغانستان الشمالية وبما أن بلخ خارجة عن النطاق الهخامنشى الإيرانى القديم ، فيجب إذن فرض وجوده وحياته فى الدولة الهخامنشية لأنه فى نظرهم مفخرة من المفاخر التاريخية ، والمفاخر التاريخية والأدبية والدينية والبطولية يجب ألا تخرج عن النطاق الإيرانى قديما وحديثا . علما بأن كتاب الأوستا لا يذكر الهخامنشيين على الإطلاق .

٩ – هاجم بعض الكتاب الإيرانيين السلطان محمود الغزنوى لمجرد أنه لم يقدر المفاخر الجاهلية التى قدمها له الفردوسى فى الشاهنامه ، فاتهموا السلطان محمود بأنه لم يكن يجيد الفارسية وبالتالى لم يقدر شاعر الشاهنامه الشهير .

١٠ – وادعاء عدد من العلماء فى إيران وجود كلمات فارسية فى القرآن الكريم معروف لا يجوز للمسلم الدخول فى تفاصيلها وما وصلوا فى ذلك إلى تأويلات خرافية تشبه تأويلات علماء بنى إسرائيل قديما .

إن هذا الاشتراك والامتزاج فى الأسماء والجنس واللغة والأدب والأنهار والحدود يسهل موضوع نسبة المفاخر إلى الجانب الآخر المقابل ، وخاصة إذا كان الجانب المقابل يتمتع بمزايا ادعائية وإمكانيات لا يتمتع بها هذا الجانب .. والمضحك المبكى فى هذا الشأن أن القائمين بهذا الغش التاريخى يستدلون بما يأتى :

أولا : أن أفغانستان كانت جزءا من إيران تمكنت القبائل الأفغانية من تكوين دولة مستقلة خاصة بها بطريق أو بآخر وفقا لادعائهم الواهى .

ثانيا : وجود مناطق وأقاليم ومدن وقرى وأنهار بالأسماء المشتركة ، ولا يهمهم بعد ذلك أن تكون تلك الأسماء حقيقية أو مخترعة ، هى أسماء على كل حال مستعملة فى كل من البلدين .

والدليلان لا أساس لهما من الصحة ، وأقواهما فى نظرهم أضعفهما فى نظر الحقيقة التاريخية والعلمية ، فكون أفغانستان كانت جزءا من إيران فى بعض العصور ليس دليلا على أنها إيرانية ، لأن إيران فى بعض العصور تمكنت من الاستيلاء على كثير من البلاد فى الشرق والغرب ، فهل هذه البلاد التى استعمرتها إيران قديما إيرانية ؟ وهل يجوز لنا أن نطلق على الهند بأنها جزء من بريطانيا ؟ مع أن بريطانيا حكمت الهند أكثر من مائة وعشرين سنة ، ولو ألقينا النظرة المحايدة على تاريخ المنطقة التى يطلق عليها الآن اسم أفغانستان وإيران فإننا نرى أن إيران كانت جزءًا من أفغانستان فى كثير من العصور القديمة والحديثة كالعصور الكوشانية والهيطلية قبل الإسلام ، والعصور الغزنوية والغورية بعد الإسلام ، وأيام الدولة الهوتكية والدرانية فى العصور الحديثة ، وإذا كان إطلاق اسم أفغانستان حديثا على الأراضى الأفغانية فإن إطلاق إيران على الأراضى التى تسمى اليوم بإيران حديث أيضا ، شأنها فى ذلك شأن أفغانستان تماما .

فالخلفية التاريخية لهذا الصراع قديمة قدم الشعبين المسلمين الأفغانى والإيرانى ، وقد تفنن بعض الكتاب فى استغلال هذه الخلفية التاريخية المشتركة تفننا عجيبا ومضحكا حتى وصل الأمر بالبعض إلى اختراع الأسماء ، وإذا تعذر عليه ذلك قال مدعيا : إن أفغانستان كان جزءًا من إيران ، وكلاهما مضحك ، وشر البلية ما يضحك .

رابعا – حركة الأفغانى وظلم ذوى القربى والخصوم :

وقع الظلم على السيد جمال الدين الأفغانى وعلى حركته الإصلاحية مرتين .. مرة من قِبَل أعدائه الذين عادوه وطاردوه وظلموه وهو حى ، ولم يتورعوا فى الظلم والمطاردة والعداوة عن استخدام أخبث الأساليب المعروفة لديهم ، واتهموه بكل التهم ، وسلبوا منه كل محْمدة ، لم يتحروا فى ذلك الحقيقة ، ولم يحاولوا تحليل أفكاره ومواقفه وما مر به من أحداث ، كل ذلك طمعا فى إبادة ما يدعو إليه من الأفكار التى دوّختهم وخلقت أخطارا لمصالحهم . ولحركة الأفغانى أعداء كثيرون من ذوى القربى ومن غير ذوى القربى ، فقد كان من حظ هذه الحركة أن يتكالب عليها أعداء متناقضون فى ظاهر الأمر ، ولكنهم متفقون على هدف واحد مشترك

وهو الحيلولة دون قيام أية حركة إسلامية أصلَة قوية فى العالم تقف فى وجه ظلم الظالمين ، واستغلال المستغلين واستبداد المستبدين مهما كلفهم ذلك من ثمن .
وقد حاولوا بكل الطرق استيعاب هذه الحركة واحتواء زعيمها ، وإيقاف ما يدعو إليه من الإصلاحات ، وقد وصفوه بكل رذيلة وشر ، وأسندوا إليه كل نقيصة ودنيئة ، ومن ثم لم يكن غريبا أن يتشدقوا بتهم ادعائية لا يسندها الواقع ، ولا تؤيدها البراهين ، بل إنهم بذلوا جهودا خبيثة على المستويين السياسى والإعلامى لاتهام الأفغانى والوقوف عقبة فى سبيل تحقيق آماله العريضة لتوحيد الشعوب الإسلامية كنواة لإنشاء الجامعة الإسلامية ، وذلك إدراكا منهم لخطورة تأثير هذه الدعوة الصادقة على أهدافهم وأغراضهم ، وكان هذا الفريق من أعدائه مؤلفا من ذوى القربى ومن غير ذوى القربى ، ومن المنتمين إلى الإسلام ومن غير المنتمين إليه ، ومن أعداء الإسلام . إن ما كتبه الدكتور لويس عوض عن الأفغانى يعد استمرارا دون شك لتلك الحملة المسعورة التى بدأت فى حياة الأفغانى ولم تنته حتى الآن .. إن أعدى أعداء الأفغانى ، وألد أعداء الحركة الإسلامية ، وأشد أعداء الشرق ، وأكثر العلماء حبا للغرب وللثقافة الغربية ، وأكثر العملاء تفانيا فى الدفاع عن كابوس الاستعمار الغربى فى بلاد الشرق الذين نقدوا الأفغانى وحركته ، وحاولوا تشويه بعض جوانب من شخصيته الفذة لم يبلغوا ما بلغه داعى التغريب والتصليب صاحب القلم المأجور الدكتور لويس عوض فى حلقات بحثه عن الأفغانى الذى نشرته مجلة التضامن التى تصدر فى لندن باللغة العربية ، والقارئ يدرك السر فى هذا الاختيار .. لندن التى تمت فيها مؤامرة سلمان رشدى ضد الإسلام بعد نشر مؤامرة الدكتور لويس عوض ضد الأفغانى بسنوات ، إن العملية سلسلة من المؤامرات متصلة الحلقات تحاك ضد الإسلام وضد زعماء الإسلام فى لندن ... فى المؤامرة الأولى قذف الدكتور لويس الأفغانى بكل النقائض والنقائص والمثالب وسلب منه كل المحامد والمحاسن والمكارم حتى يخيل إلى كل من يجهل تاريخ هذا المناضل الأفغانى أنه ذلك الإنسان « الذى يتخبطه الشيطان من المس » كالدكتور لويس عوض الذى أصابه مس من شيطان الحقد والتغريب ، ومن شيطان الكراهية والعداء لكل ما هو إسلامى . والغريب أن أسلوب الدكتور لويس بمكانة من الخبث يوحى أن هجومه على الأفغانى مبنى على الدفاع عن

الإسلام بينما واقع الحال والمقال يؤكد غير ذلك ، وهذا الأسلوب الماكر هو بعض ما تتميز به المؤامرة الأولى فى لندن ضد هذا الزعيم المسلم .

أما المرة الأخرى التى ظلمت فيها حركة السيد جمال الدين الأفغانى وما تزال تظلم فهى تخلى المسلمين عنها ، وإهمالهم لها ، وعدم التفاتهم إليها رغم كل المعانى الجميلة والأسس القيمة ، والآمال المتألقة التى كشفت عنها هذه الحركة ، وبعثت فى الشعوب الإسلامية والشرقية الحياة والنشاط من جديد بعد أن ران عليها صدأ الإهمال وعلاها ، وغطاها ركام الغفلة والركون إلى متاع الدنيا فى حياة الأمة الإسلامية فى العصر الذى كان يعيش فيه الأفغانى . إننا نرى هذا التخلى والإهمال فى المسلمين عامة ، وفى مواقف بعض من ينتمى إلى العلماء والمثقفين الذين لا يكتفون بالإهمال والتخلى ، بل يتجاوزون ذلك ويضعون الأفغانى داخل دائرة سوداء خاصة يرسمونها له بأنفسهم لاتمت إلى الحقيقة بصلة ، وكأنهم يرسمون له صورة كاريكاترية هدفها التشويه وإسقاط الاحترام والوقار والتقدير .. وبالتالى تشويه صورة الزعامة الإسلامية فى العصر الحديث . فإذا كان الأفغانى هدفا للهجوم القاذع هذه المرة فإن دور الزعماء المصلحين الإسلاميين فى المرات القادمة ، ومجلة التضامن فى لندن عندها استعداد لنشر مثل هذه الهزليات القاذعة . وهؤلاء مازالوا يقومون بإصدار بيانات النيل من حركة الأفغانى ، وعلى رأسهم الكاتب الأجنبى روبرت كارمن دريفوس الذى اتهم الأفغانى فى كتابه « رهينة الخمينى » بأنه مؤسس الإرهاب فى العالم فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وامتد إلى الربع الأخير من القرن العشرين ، وتبعه فى ذلك الدكتور لويس عوض الذى هو على دينه وعلى دين ذلك الاستعمار الذى حاربه الأفغانى ، يقول لويس : « كنا جميعا مخطئين حين تصورنا أن السيد جمال الدين الأفغانى ، رجل يوزع السعوط بيمناه وينشر الثورة بيسراه . كنا مخدوعين حين تصورنا أن جمال الدين الأفغانى ثائر إسلامى ، ومصلح اجتماعى ، ورجل عظيم أيقظ الشرق من سباته . إن جمال الدين الأفغانى عكس ما كنا نتصور .. إن اسمه ليس هو اسمه ، إن اسمه الأفغانى بينما هو إيرانى ، وليته كان إيرانيا فحسب ، إنما هو الإيرانى الغامض .. وهو غامض لأنه أفاق مغامر متلون » .

إنه يحاول عبثا تحطيم صورة الثائر الأفغانى لأجل تحقيق هدفه الغامض الماكر

الخبيث الذى يرمى من ورائه عزل الشباب المسلم عن ماضيه المجيد ، ومحاصرته فى الحاضر الخاسر ، وتجريده من ثروة تراثه العظيم . ثم جره بعد ذلك بسهولة إلى هاوية التغريب الذى يدعو إليه ، ليرى نفسه فى النهاية ولا شعوريا مكبلا محاصرا بين الصليبية التى هى غاية الدكتور لويس والصهيونية التى هى أخت الصليبية فى كراهيتها وعداوتها للزعامة الإسلامية . إن هؤلاء المهملون والمتخلفون الذين يضعون الأفغانى فى دائرة العداوة السوداء عن هذا الهدف الغامض ساهون ، وفى اتهامهم للأفغانى لاغون ، وعن المصالح الإسلامية العليا غافلون ، وإلى الافتراءات الهزلية لكل من روبرت كارمن ولويس عوض لا يلتفتون وما لهؤلاء القوم لا يعقلون .

إننا نرى هذا التخلى والإهمال فى الموقف لقلة من المفكرين الذين يتركون الأفغانى وحركته الإسلامية وأفكاره الإصلاحية نهبا لكاتب دساس ، لدجال كذاب ، لمغامر حاقد ، لمخاطر مخبول ، لعميل التغريب ، لممثل الأحقاد الصليبية ، الذى أراد أن ينتقم لأفكاره الغربية فتناول الأفغانى بالإقذاع والافتراء ، واتهمه بتلك التهم المبدعة وهى من اختراع هذا الكاتب الحاقد الذى طعن فى شرف الأفغانى وعلمه وعقيدته ، والقبول بهذا الطعن والسكوت عليه هزيمة منكرة ، ونصر للصليبية الحاقدة التى يدعو إليها ، ونصر للتغريب الذى يؤمن به ويدعو إليه ، ويدافع عنه ، إن كرهه الشديد للأفغانى نابع من حبه الشديد لدينه واحترامه الأشد لدور الغرب الذى هو أحد ربائبه فى احتلال الشرق الإسلامى الذى هو يعاديه بأفكاره المسمومة .. إن ما كتبه لويس عوض عن الأفغانى قد جاوز كل حد معقول .. كل حد فى الإقذاع والبذاءة والافتراء والتهم ، لم يلتزم بأصول البحث ، ولم يستخدم الأدوات اللازمة للتوصل إلى الحقائق المنهجية التاريخية ولم يرجع إلى العصر الذى كان يعيش فيه الأفغانى ، بل رجع إلى عالم الجاسوسية وإلى عالم السفارات والشرطة إن هذه العوالم الكاذبة لا تصنع التاريخ .. لا تصنع تاريخ رجال التاريخ ، إنها تشوه التاريخ . وبناء على ذلك فقد قام لويس عوض باستنباطاته الخاطئة وفقا على هواه الغامض دون مراعاة أصول البحث .. تلك الاستنباطات التى وضعها فى مخيلته قبل الكتابة عن الأفغانى الأمر الذى قاده إلى تجاهل سلسلة من الحقائق ، وإلى تغليب التحليل الشخصى المغلف بالأهداف فى دراسته عن الأفغانى . كان يجب على لويس عوض أن يقوم

بإبراز المنهاج التاريخي الذى يقتضى بدوره إبراز العنصر الرئيسى المؤثر فى حركة الأفغانى وفى عالمه السياسى ممثلا فى الحملة الإمبريالية التى تعرضت لها البلاد الشرقية فى تلك الحقبة من تاريخ الشرق .

ونرى هذا التخلى والإهمال فى مواقف بعض المفكرين من علمائنا الأجلاء الذين يتركون زعماء الإسلام نهبا مباحا لبعض الكتاب من عشاق التنصير والتغريب ، وعلى رأسهم لويس عوض الذى يفسد العقول ، ويغزو النفوس ، ويملؤها حقدا وضغينة وتشكيكا ، وقلة قليلة من هؤلاء الأجلاء الذين يقومون بإهدار طاقاتهم الفكرية والعلمية التى هى ملك عام للإسلام والمسلمين فى قضايا مصطنعة يشغلون بها أنفسهم ولا يرون فى حركة الأفغانى الإسلامية العظيمة ما يستحق العناية والدفاع ، والوقوف فى طريق من يهاجمها من الداعين إلى التنصير والتغريب ، وهم يهتمون بالصراعات القولية والقضايا الفرعية أكثر من اهتمامهم بالموضوعات الجوهرية .

ألا ما أبشع الظلم بالتخلى والإهمال بترك الزعامة الإسلامية نهبا للئام وبخاصة إذا كان الظلم من أخ لأخيه ، أو إهمال أخ لأخيه ، وتخلى أخ لأخيه ! ما أحسن من قال :

وظلم ذوى القربى أشد مرارة   على النفس من وقع الحسام المهند

لقد آن الأوان ليتفكر علماء المسلمين فى واقع الزعامة الإسلامية وأن يلتفتوا إلى ما تتعرض لها من الهجمات ، وأن يجعلوا العمل والعقيدة مقياسا لتقويم القضايا الفكرية والمناهج الإصلاحية لهؤلاء الزعماء بدلا من مقاييس الأرضية الضيقة المبنية على المصالح والاتجاهات وعلى الشعارات والقوميات والمنافع الزائفة . إن حركة الأفغانى وفكره الإسلامى ليست قضية خاصة بشعب دون شعب ، أو بطائفة دون طائفة ، أو ببلد دون بلد ، إنها قضية كل مفكر وعالم ومؤرخ .. قضية كل مسلم لأنها حركة إسلامية لإيقاظ الشعوب الإسلامية ، فلا يجب تركها نهبا لأقلام الصليبية ولعشاق التغريب . كان الأفغانى حصنا حصينا ، وسدا منيعا للدفاع عن الإسلام ، ونقاشه مع أرنست رينان الذى هاجم الإسلام فى إحدى محاضراته فى السربون ووقوفه ضد المادية وتأليفه « الرد على الدهريين » نماذج تمثل

بعض الجوانب من دفاعه عن الإسلام . فهل نعى هذه الحقيقة الناصعة فى الأفغانى لنشارك المدافعين عن حركة الأفغانى ولنرد كيد الكائدين والحاقدين ليس عن الأفغانى وعن حركته بل عن الحركة الإسلامية ؟ إن هذه الهجمة المسعورة على الأفغانى ترمى من ورائها الهجوم على الزعامة الإسلامية ككل فإذا كان الأفغانى قد جعل هدفا لهذه الهجمة اليوم فإن دور الزعماء الإسلاميين آت غدا دون شك . إن لويس عوض وروبرت كارمن دريفوس وأمثالهما لن يقفوا عند هذا الحد ومكاتب الجاسوسية فى كل من بريطانيا وفرنسا وبعدهما أمريكا مفتوحة أمام هؤلاء الذين يرغبون فى الهجوم على الزعامة الإسلامية فى الشرق .

افتراءات روبرت كارمن دريفوس :

بعض ما افترى عليه روبرت كارمن دريفوس فى كتابه « رهينة الخمينى » إن جمال الدين أفغانى من أصل يهودى ، ومؤسس الحركة البهائية الأول فى العالم ومؤسس حركة الإرهاب فى العالم فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وقد امتدت هذه الحركة الإرهابية إلى الربع الأخير من القرن العشرين الميلادى . والبهائية التى أسسها أو نظمها الأفغانى هى المسئولة عما حدث فى إيران فى العصر الحاضر ، وجمعية العروة الوثقى التى أسسها الأفغانى لوحدة المسلمين قد تجمعت تحت رايتها كل التنظيمات الإرهابية كما يقول روبرت كارمن دريفوس فى كتابه الهزلى « رهينة الخمينى » ويلاحظ أن الدكتور لويس عوض لا يختلف عن هذه الروح الهزلية عند تسجيله المنهج السياسى للسيد الأفغانى .

افتراءات لويس عوض :

وفيما يلى بعض ما افترى عليه الدكتور لويس عوض : « كنا جميعا مخطئين حين تصورنا أن السيد جمال الدين الأفغانى رجل يوزع السعوط بيمناه وينشر الثورة بيسراه . كنا مخدوعين حين تصورنا أن جمال الدين ثائر إسلامى ، ومصلح اجتماعى ، ورجل عظيم أيقظ الشرق من سباته . إن جمال الدين الأفغانى هو عكس ما كنا نتصور .. إن اسمه ليس هو اسمه ، إن اسمه الأفغانى بينما هو إيرانى . وليته كان إيرانيا فحسب إنما هو الإيرانى الغامض .. وهو غامض لأنه أفاق مغامر متلون ..

« مغامر مجهول كافر مجنون مخاطر مغمور زنديق مخبول ملحد مأجور أفاق دساس دجال كذاب متلون متفرنج مرتد سكير مهيج سياسى زعيم إرهابى عميل مزدوج رجل لكل القصور داع للفوضوية واللاأخلاقية منكر لوجود الله ينتحل لقبا فى كل دولة .. فهو بين الأفغانيين رومى ، وبين الأتراك والمصريين أفغانى ، وفى بعض الدول استانبولى ، وفى بعضها الآخر بغدادى » .

« ولد جمال الدين الأفغانى فى قرية أسد آباد بالقرب من مدينة همدان فى غرب إيران وليس فى قرية أسعد آباد الأفغانية ، ونشأ نشأة شيعية . وتلقى التعليم على أيدى الشيعة والبهائيين » .

« وقد نشأ الأفغانى فى هذه التقاليد الشيعية التى جعلت منه إنسانا مزدوج الشخصية بل ومتعددها ، يفصل الكلام والتعليم بحسب من يخاطبه ، وبحسب ظروف الزمان والمكان ، حتى بدت تعاليمه وأقواله المأثورة ومواقفه وتحركاته جملة من المتناقضات التى يصعب نسبتها إلى رجل واحد » .

قذاعة الأسلوب وبذاءته :

بهذه البذاءة ، والقذاعة ، وبهذه الإساءة الفادحة ، وبهذا الأسلوب الفاحش قام لويس عوض بتوجيه سهام الحقد والكراهية إلى زعيم من زعماء المسلمين فى العصر الحديث بغرض تشويه الزعامة الإسلامية والتعبير عما يكنه من الكره والحقد نحو الإسلام وزعامته . وقد قام باختيار عنوان ماكر خبيث للإيفاء بهذا الغرض الخبيث « الإيرانى الغامض » واختار وقتا مناسبا لنشر سمومه القاتلة نظرا لتوتر العلاقات بين بعض الدول العربية وإيران للصيد فى الماء العكر ، وذلك لإصابة هدفين بسهم واحد .. إشعال نار الفتنة بين البلاد والشعوب الإسلامية ، وإثارة الشك فى الزعامة الإسلامية ، بالإضافة إلى إثارة الفرقة بين السنة والشيعة بطريقة دق الطبول إلى جانب أذن الطائفتين الإسلاميتين ليتخذ من ذلك طريقه إلى إلحاق الضرر بوحدة المسلمين .. معتمدا فى ذلك على تقارير الجاسوسية والبوليس والسفارات ، والنبش فى القبور فى كل من بريطانيا وفرنسا ، وهو يعلم أن مثل هذه التقارير لا تصنع التاريخ . وقد قام باختيار مجلة التضامن فى لندن التى اشتركت معه فى صنع المؤامرة ضد الزعامة الإسلامية بإعطاء مقالاته صفة الجرأة والشجاعة والإقدام على بيان الحقيقة ، وهى بعيدة كل البعد عن الحقيقة والجرأة .

يأتى نشر هذا البحث البذئ بهذا العنوان المثير وبهذا الأسلوب المؤلم اللاذع ، وبهذا المنطوق الغاضب ، وفى هذه المرحلة المهيجة التى أصبح فيها القتال الدائر بين العراق وإيران يأتى بالأخضر قبل اليابس ، ولا يصل إلى سمع القارئ العربى عن الثورة الإيرانية إلا ما يغضبه ويؤلمه ويثير فى نفسه اليأس والأسى والحزن الشديد . وهو يرمى من وراء هذا التوقيت الزمنى إلى إثارة نوع من الكراهية والعداء بين الإيرانى والعربى وبين المسلم الذى لا ينتمى إلى الأصل العربى وبين المسلم من الأصل العربى . والقارئ العربى يدرك ذلك ويشهد بالخبث والبراعة لمجلة التضامن ولكاتبها لويس فى نطاق هذه المؤامرة المدبرة ضد التاريخ الإسلامى فى أروع صوره فى العصر الحديث .

غموض الهدف :

إن هوى لويس عوض أو هدفه الغامض هو الذى جعله يقف على طرف مناقض تماما لما كتبه علماء شرقيون وغربيون عرفوا بسعة الثقافة والقدرة على التعميق والتحليل والتمحيص من أمثال الإمام محمد عبده ، والشيخ رشيد رضا ، ومحمد باشا المخزومى ، وعبد الرحمن الرافعى فى الشرق ، ومن أمثال رينان وبراون وجولدزيهر ولوثر ستودارد فى الغرب . إن القارئ العربى لما يكتبه لويس عوض يدرك بالتأكيد موقفه الثابت من كل ما يتصل بالثقافة الإسلامية وهو يعبر عن هذا الموقف المحدد تصريحا أو تلميحا أو من بين السطور والعبارات ، وإصراره الشديد على هذا الموقف الغامض يدفعه إلى افتعال فى التدليل وإلى المبالغة فى تجريح الزعامة الإسلامية من الشواهد الواهية ، والمصادر الضعيفة فى عالم الجاسوسية ، وهذا الذى فعله فى سلسلة مقالاته الهزلية عن الأفغانى الذى خاب فيه مسعاه وهزل مبتغاه ، تلك التى تتسم بالشظظ والشمط ، والبعد عن الحقيقة ، والجنوح إلى الإجحاف ، وقد تجاوز فى ذلك كل حد معقول ، إنه من التجنى والإسفاف حقا أن يحاول كاتب دسّاس النيل من قدر الثائر المصلح الأفغانى ، وأن يحاول المساس بعظمة الداعية المسلم أو التشكيك فى نقاء فكره الإسلامى ، وسلامة عقيدته الدينية ، ومنهجه السياسىّ ، وحياته الفكرية ، إن الأفغانى الثائر من أعظم شخصيات العالم الإسلامى والشرق فى القرن التاسع عشر

الميلادى . إن ما كتبته أقلام إسلامية وعربية وأجنبية من تدين الأفغانى ، ووضوح فكره ، وصراحة قوله ، وجرأته وإخلاصه وتفانيه ليس بشىء فى نظر لويس عوض الذى تمرد على الأفغانى وعلى من كتب عنه من العلماء والكتاب والمؤرخين فى مصر وفى غيرها من بلدان العالم فى الشرق والغرب ، والذى وجه إلى الأفغانى اتهاما ظالما فى مجازره الفكرية وفظائعه التاريخية التى جعلتنا نفقد كل احترام له ولزملائه الذين يسيرون وراءه فى هذا الدرب الذى يؤدى إلى تشويه كل مراحل التاريخ الإسلامى وصناعة العظماء والزعماء فى الإسلام .

إن هواه المرموز وهدفه الغامض هو الذى دفعه إلى اتهام الأفغانى بالمغامرة والإرهاب وبالكذب والزندقة ، ولتحقيق هذا الهدف الغامض قام بتأويل أقوال وأفعال الأفغانى ، وبتأويل أقوال وتصرفات المعاصرين للأفغانى على نحو يوافق نواياه السيئة وأهدافه التى تتسم بالغموض والرمزية .. ولأجل ذلك فرق فكر الأفغانى إربا إربا منطلقا فى عوالم من الخيال الباطل والاتهام الظالم لا أول لها ولا آخر .. وهو فى النيل من قادة البعث الإسلامى أكثر مكرا وأشد خبثا وأعمق هدفا .

كان الأفغانى الذى هاجمه لويس عوض نجما لامعا فى تاريخ حركات البعث الإسلامى ، شديد الإيمان بالقوة الديناميكية للإسلام ، وكان يؤمن ويدرك أن العقيدة الإسلامية هى العامل المشترك بين الشعوب الإسلامية التى كان الاستعمار الغربى يتسلل إليها ، وكان صاحب مدرسة فكرية كبرى فى تجديد الفكر الإسلامى وتنقيته مما علق به من أباطيل الوهم وخرافات العقيدة الباطلة .. كانت آثار أقدامه فى ذلك ثابتة راسخة ، وغبار معاركه الثورية تغطى سماء الشرق ، وكان صدى أفكاره تتردد بين جنبات الهندوكش ، وكانت آلامه وأحزانه الإسلامية ممتدة من كونر إلى كابل إلى طهران .. إلى الهند والقاهرة والآستانة وباريس ولندن .. وكان يقاوم سلطة البابا فى روما من خلال نشاطه السياسى والفكرى وأعتقد أن هذا أحد الأسباب القوية التى جعلت الأفغانى هدفا لحملة لويس عوض المسعورة التى ليس من المستبعد أن تكون حلقة من حملة أكبر تدبر للنيل من الزعامة الإسلامية من وراء الحجاب .

البحث عن تراث محمد عبده والأفغانى
فى فكر الإسلاميين المعاصرين
هل تتبنى المدرسة الإخوانية شعارات الاجتهاد والانفتاح على العالم والتجديد ؟

محمد الهاشمى الحامدى

هل يجوز القول بوجود حلقة مقطوعة بين تراث الأفغانى ومدرسة الإمام محمد عبده من جهة وبين أدبيات الإسلاميين المعاصرين المحسوبين من قريب أو من بعيد على حركة الإخوان المسلمين ؟

إن مشكلة الأستاذ الإمام بالأساس هى اتخاذه مرجعا لتيارات وأسماء كثيرة متضاربة بعده ، فقد نسب إليه تلميذه محمد رشيد رضا كما نسب إليه محمد لطفى السيد وطه حسين ، وكان ذلك مما أسهم بشدة فى صرف تلاميذ حسن البنا عنه وعن أستاذه جمال الدين . لكن إلى أى مدى أضر هذا الانفصال بين المدرستين بجهود التجديد والعقلنة والاجتهاد فى الفكر الإسلامى المعاصر ؟

هذا المقال الموجز إثارة للموضوع وفتح حوار أرجو أن يشارك فيه كثيرون .

مدرسة الأفغانى وعبده :

لابد للمرء أن ينبه ابتداء إلى أن جمع هذين العلمين فى باب واحد لا يعنى تجاهله للفروق الأساسية بين منهجيهما فى الإصلاح . لكن ما يجوز الجمع هنا هو المقارنة التى نعقدها مع مدرسة أخرى تجاهلت إلى حد كبير تراث الرجلين ، تراث جمال الدين فى الإصلاح السياسى والدستورى والعمل لتأكيد الوحدة الإسلامية القائمة والدفاع عن الفلسفة الإسلامية ، وتراث محمد عبده فى محاولة التقارب مع الحضارة الغربية وتوسيع دائرة الاجتهاد والاقتباس من الغير (الغرب أساسا) .

لم يكن الأفغانى وعبده رجلين معزولين فكريا ، بل لقد كانا على العكس تماما ، رائدين لتيار واسع ممتد فى الوطن الإسلامى الواسع ، يقدمه منير شفيق فى كتابه « الفكر الإسلامى المعاصر والتحديات » بهذا البعد العالمى ويصفه باتجاه الفكر الإسلامى ذى الجذور الأصولية ، ولكنه حاول التوفيق مع عدد من

الجوانب الفكرية والحضارية الغربية وحاول الانفتاح عليها أو الالتفاف حولها وإعطاءها مرادفات إسلامية . ومن ممثليه رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده (بعد مرحلة العروة الوثقى) والشيخ محمد رشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبى وخير الدين التونسى وعلال الفاسى ومالك بن نبى ، ومن سمات هذا الاتجاه أن بعض أهله تبنوا عددا من المقولات الغربية من خلال إيجاد مرادف لها أو استخراجها وإعادة استنباطها من الإسلام ، فبعضهم حاولوا تفسير آيات القرآن بما يتوافق والذوق الغربى العلمى كما فعل الشيخ محمد عبده أو محاولة بعضهم اقتباس جوانب الحياة الغربية فى تنظيم الحكم كما فعل خير الدين التونسى ورفاعة الطهطاوى أو السعى للتوفيق مع القومية وبعض إصلاحاتها كما فعل مالك بن نبى أو ترجمة الديمقراطية الغربية باعتبارها الشورى أو العكس كما فعل عبد الرحمن الكواكبى ، ويمكن أن يدرج فى هذا الاتجاه على نطاق عالمى الشاعر محمد إقبال وعلى شريعتى .

يركز منير شفيق فى هذا التقديم على الصورة التى ضخمها كثير من الإسلاميين المعاصرين لينقضوا صلاتهم بمدرسة الأفغانى وعبده . لكن ما من شك أن الأمثلة العينية لتنازلات ،محمد عبده مثلا للغرب لا يمكن أن تغطى السمات الأصلية لفكره وأستاذه : ذلك التطلع الرهين لإنشاء فكر إسلامى معنى بالنهضة والحضارة يتحرك فى ساحة واسعة تشمل الأمة كلها دون سقوط فى أى شكل من أشكال الحزبية والطائفية .

حسن البنا وسيد قطب :

جاء حسن البنا ليؤسس حركة الإخوان المسلمين بعد ثلاثة وعشرين عاما من وفاة محمد عبده وبعد أن أصبحت المدرسة العلمانية أعلى صوتا وأقوى نفوذا ، فكانت المسألة السياسية همه الأول ، وكان تشتت جهود الحادبين على الإسلام مصدر قلق كبير له ، واختار لمواجهته إجابة تنظيمية سياسية بالدرجة الأولى وفكرية بالدرجة الثالثة .

وجدت حركة الإخوان المسلمين صلات قربى أوثق مع حركة الإصلاح السلفية التى كانت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب منطلقا لها فى الجزيرة العربية خلال

القرن الثامن عشر الميلادى وكانت رسالة البنا فى العقائد تقليدا لرسائل ابن عبد الوهاب فى نفس الموضوع من قبل . وبالمقابل لم يترك زعيم الإخوان رسائل مفصلة فى الفكر ولا فى السياسة وربما لم يكن مطلوبا منه ذلك هو بالذات لطبيعة تكوينه ومشاغله كشيخ وزعيم لكن هذه الملابسات كانت أيضا سببا فى ضعف صلة حركة الإخوان ككل بتراث المدرسة الإصلاحية العقلية التى كان محمد عبده رائدها الأبرز . أصبح تنظيم « الإخوان المسلمين » خلال عقدين أو ثلاثة من الزمن قاعدة الحركة الإسلامية الحديثة فى أغلب أقطار العالم العربى ولكن الطابع العام للأصل والفروع ظل مشغولا بتأكيد شمولية الإسلام من مدخلها السياسى فتراجعت أسهم المهمات التى اعتبرتها المدرسة الإصلاحية الأولى ذات أولوية مطلقة ، كالتجديد والاجتهاد وتطوير الفكر الإسلامى المعاصر .

لا يعنى ذلك أن الإخوان لم يهتموا بهذه المسائل ، ولكنهم واجهوها متطوعين عن جهود الأولين الذين نظروا إليهم كمبهورين بالغرب أكثر من كونهم مجددين فى الفكر الإسلامى . كما أن الإخوان كانوا مشغولين بتوضيح برنامج حزب محدد ، بينما كان الأفغانى وعبده متحزبين للأمة إذا جاز التعبير ، أى أنهما لم يكونا متحزبين على الإطلاق ، كانا يسهمان كرائدين للأمة ودليلين لها ، وكان تراث المدرسة الإخوانية تراث حزب داخل الأمة وطائفة محددة من أبنائها ، وأكثر من ذلك أنها كانت طائفة محاربة بشدة لفترات طويلة من الزمن .

وجاء الشهيد سيد قطب فى أشد مراحل هذه الحرب ظلما ومرارة ليدعو ضحاياها إلى عدم التفكير فى البرامج والمشاريع . ليس الإسلام مطالبا بذلك على الإطلاق حتى يذعن سكان الدول المعتبرة إسلاميا له ولشريعته دون جدال (أصبحت شروط إطلاق الصفة الإسلامية على مجتمع أو شعب عسيرة جدا مع سيد قطب وتكاد لا تنطبق على شعوب العالم الإسلامى المعاصر) .

التوفيقيون :

لا يستعمل هذا الوصف دائما فى معرض التقييم السلبى ، وهناك فى قضية المال أسباب معقولة لإطلاقه إيجابا على جهود مدرسة الأفغانى وعبده ومدرسة الإخوان المسلمين .

يعرض الدكتور حسن الترابى على الحركة الإسلامية أن تطرح على نفسها مهمة التجديد فى أوسع مستوياتها وأن تبلور نمطها المعاصر فى التدين ، وينقد بشدة العقليات التى تجتهد لمعالجات مشكلات هذا الحزب الإسلامى أو ذاك بدلا من التفكير ضمن مستوى الوطن الأكبر والأمة .

لكن الشيخ راشد الغنوشى الأقل انخراطا فى معمعة السياسة اليومية من حسن الترابى يمضى شوطا إلى الأمام فى بناء قاعدة لدعوة التجديد والاجتهاد على أساس من مراجعة مسيرة المدرسة الإخوانية الحديثة والاعتراف بجوانب تقصيرها ، وعلى أساس أيضا من التسليم بدور مدرسة الإصلاح الكبرى التى قادها الأفغانى وعبده ونظراؤهما فى العالم الإسلامى من دون التوقف عند بعض المآخذ التقليدية على الأفغانى بالماسونية وعلى محمد عبده بتأويل الجن بالميكروب ، وطير الأبابيل بالبعوض أو الذباب ، وحجارة السجيل بجرثومة الجديرى .

مشقات المصالحة :

لكن هذا التوجيه نحو وصل ما انقطع بين جهود مدرسة الإصلاح والمدرسة الإخوانية لا يلقى طريقه بيُسر ، وإنما يواجه على العكس من ذلك مشقات عديدة من داخل التيار الإسلامى ومشقات أكبر من خارجه .

إن الشيخ محمد الغزالى لا يبدو بعيدا عن الحقيقة فى ما قاله بـ « الشرق الأوسط » يوم الأربعاء ٢ أغسطس ١٩٨٩ م من أنه ليس هناك رغبة من أحد فى نمو التيار الإسلامى المعتدل الذى يجمع بين مواجهة تحديات الحضارة والنهضة وتحديات الإصلاح السياسى المرحلى .

إن النظام الدولى السائد لا يضيق بالتطرف رغم كثرة استنكاره اللفظى له وإنما يضيق بكل جهد عاقل يحاول أن يقدم الإسلام دينا للسلام والعمران وللحضارة وأن ينشر الثقافة الرفيعة التى تنقل هذه القيم للبشرية جمعاء .

وهناك الآن أكثر من مراقب يعى يقينا أن التيار الإسلامى سيحقق كسبا تاريخيا كبيرا لو استعاد صلاته بالمهمات الكبرى التى طرحتها مدرسة الأفغانى وعبده وفكر من موقع الأمة لا من موقع الطائفة ، وتبنى عن قناعة وجدية

حقيقيتين شعارات الاجتهاد والانفتاح على العالم والتجديد .

* * *

كان العمل فى إعداد هذا الكتاب فى مراحله النهائية عندما نشرت صحيفة « الشرق الأوسط » السعودية مقالا بعنوان « البحث عن تراث محمد عبده والأفغانى فى فكر الإسلاميين المعاصرين » فى عددها ٣٩٠٤ بتاريخ ٦ أغسطس ١٩٨٩ م ، وكانت علاقة هذا المقال بهذه الدراسة وثيقة فرأيت أن أضيفه إلى هذا الكتاب إتماما للفائدة . وبهذا يتم الكتاب . والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الأفغانى والماسونية	١٣٣
قراءة عامة فى تجربة الأفغانى وآثاره	١٣٨
بين أفغانستان وإيران	١٣٨
مصر والمسألة المصرية	١٤٠
الماسونية وموقف جمال الدين	١٤١
الفكر السياسى والدينى عند الأفغانى ومحمد عبده	١٤٢
الجامعة الإسلامية والعروة الوثقى	١٤٤
الجامعة الإسلامية	١٤٤
العروة الوثقى	١٤٤
خطاب الأفغانى وتجربة النخبة فى تونس	١٤٧
العلماء والأمراء	١٤٩
فى نقد الأفغانى للغرب .. قراءة فى « رسالة الرد على الدهريين »	١٥٤
التعريب وصلته بوحدة الأمة عند الأفغانى	١٦٠
وحدة اللسان	١٦١
سبب الضياع	١٦٢
خطأ إستراتيجى مميت	١٦٤
أمثلة حية	١٦٥
لصالح من نهاجم رواد الفكر الإسلامى	١٦٦
تهمة الإثارة	١٦٧
الوثائق البريطانية	١٦٩
صلة الأفغانى بالماسونية تجربة اجتهادية غير موفقة	١٧٢
ـ الأفغانى باعث الصحافة فى الشرق وأحد وجهى عملة الإصلاح	١٧٦
نسبية الأحداث	١٧٧
جمال الدين الأفغانى وأرنست رينان .. أدب الإسلام فى مواجهة التعصب الغربى	١٧٩
لم يكن الأفغانى أنشط دعاة الجامعة الإسلامية ولا أعلمهم	١٨٨
جمعية العروة الوثقى	١٩١
الحزب الوطنى	١٩٢

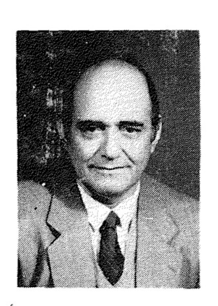
الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٧٧٣١ / ١٩٩١ م
I.S.B.N : 977 – 00 – 2119 – 5

دار شرف للطباعة والتجليد
٤ ش العدوية البراني - بولاق
ت : ٧٧١١٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب :



يهدف إلى سحق خصوم الأفغانى وزيفهم ، وإلى نسف افتراءات أعدائه من المستغربين والمتحجرين من عشاق السخف والطيش والتلفيق ، الذين جمعتهم غاية سخيفة واحدة ، وهى هز الثقة بالزعامة الإسلامية المتمثلة فى قيادة الأفغانى ، وأمثاله من زعماء النهضة الإسلامية .

هذا الكتاب يعالج موضوعا طالما احتدم حوله النقاش ، واختلفت فيه الآراء ، وهو ريادة الأفغانى للزعامة الإسلامية ، وكونه حلقة من حلقات الاتصال بين عصرها القديم والحديث ، ويبين كيف ظهر أنصار التغريب ، والمتزمتون على أطراف النهضة الإسلامية بزعامة الأفغانى يحومون حوله محاولين النيل منه ، ومن زعامته الإصلاحية بالتجريح والتلفيق والافتراء ، وبإثارة الشكوك فى سلامة عقيدته ومسقط رأسه ، يشترك فى ذلك كثير من العلمانيين ، ولا يتورع منه قليل من المحسوبين على الإسلاميين ..

هذا الكتاب يتضمن صفحات من البراهين ، ولهبا من الشهب الثاقبة على صفحات العدوان الهزيل ، والافتراء الدنىء ، والتلفيق الخسيس ، ويضع حدودا بين الحقيقة والافتراء ، وعلامات بين الصحيح والسقيم ، ويقدم فى ذلك آراء نخبة من المفكرين لتدحض زيف المزيفين ، وافتراء المفترين ، وذلك ليتبين الرشد من الغى ..

هذا الكتاب يقدم آراء هذه الفئة النبيلة التى أدت الشهادت العلمية بالتى هى أحسن وبأمانة وصدق ونقاء ، وفى تيقظ شديد حول زعيم من المصلحين ، مستبعدين كل شائبة أراد الزاعمون تلفيقها بالأفغانى الذى فهم حقيقة الإسلام ، وتحرك به بنقاء فكره ، وجاهد فى سبيله بصفاء نيته ، ونبه على كل ما عساه يخطر على بال كل متمحك متشوف منه من صنائع التغريب وأجلاس المتجمدين عند مشارف النصوص ، وافتراءات المتحجرين من أصحاب الرؤوس الجوفاء ﴿ ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾ .

هذا الكتاب فى جزئين .. الأول يقدم دراسات أقلام نخبة ممتازة من المفكرين المصريين دفاعا عن الأفغانى ، وفكره الإصلاحى ، وعن أفغانيته الثابتة تاريخيا . والثانى يتناول دراسات وبحوثا بأقلام المفكرين فى العالم الإسلامى عامة دفاعا عن فلسفة الأفغانى فى الإصلاح ، وعن أفكاره الإصلاحية فى السياسة والاجتماع ، وعن نقاء عقيدته ، وقوميته الأفغانية .. مولدا وموطنا ونشأة .

هذا الكتاب ينير الطريق أمامنا بألا نكون من حيث لا ندرى عونا لأعداء الإسلام من العلمانيين ، والمستغربين ، وبعض الإسلاميين فيما يسعون إليه ، ولنعلم أن للأفغانى كثيرا من النجاحات الباهرة ، وقليلا من الإخفاقات فى الاجتهاد .